حافظ إبراهيم

شاعر النيل

شاعر الأحزان وحامل هموم الإنسان

تأليف الدكتور

يوسف الحشكي

١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠ م



دار يافا العلمية للنشر والتوزيع



حافظ إبراهيم

شاعر النيل

شاعر الأحزان وحامل هموم الإنسان



حافظ إبراهيم

شاعر النيل

شاعر الأحزان وحامل هموم الإنسان

تأليف الدكتور

يوسف الحشكي

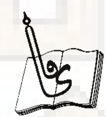
١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠ م



دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

٨١١,٩٢
الحشكي، يوسف
حافظ ابراهيم: شاعر النيل: شاعر الأحزان وحامل هموم الإنسان / يوسف محمد الحشكي ._ عمان : دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.
(   ) ص
ر.إ : ١٦٤٤/ ٥/ ٢٠١٠
الواصفات : / الشعراء العرب/ / الشعر العربي/ / العصر الحديث/

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



دار يـــافــا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – تلفاكس ٤٧٧٨٧٧٠ ٦ ٠٠٩٦٢
ص.ب ٥٢٠٦٥١ عمان ١١١٥٢ الأردن
E-mail: dar_yafa @yahoo.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبي الهدى وآله وصحبه أجمعين ،

الحمد لله الذي سخرنا فيمن سخر لخدمة لغة كتابه المبين.

وبعد:

تقول العرب (الشعر ديوان العرب) فيرون أنه مستودع حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وقاموسهم اللغوي والفكري، والشعراء متباينون ومتفاوتون في مشاعرهم وأحاسيسهم تجاه شعوبهم وأممهم، فمنهم الملتزمون بالتعبير عن آمالها وآلامها، ومنهم المتحللون الغائبون عنها، ومنهم المتأرجحون بين هؤلاء وأولئك، إلا أن الملتزمين بها هم أكثر التصاقا بشعوبهم ، وشعوبهم أكثر ميولا إليهم. ومن خلال دراستي للشعر العربي في مراحله الزمنية المتعاقبة، فقد اطلعت على الكثير من نتاجه، وأزعم أني اختزن الكثير منه في مستودع ذاكرتي، كما أحفظ الكثير منه ، ولم أفضل أو أقدم شعرا على شعر ، أو شاعرا على شاعر إلا بالمقدار الذي يصيب هوى في قلبي، ويثير إحساسا في نفسي ووجداني متمثلا بقول الشاعر العربي المصري محمد عمر الطوانسي الذي يقول :

الشعر نبض وإحساس وعاطفة ما أروع الشعر إن أملاه وجدان

قرأت الشعر لكثير من شعراء العربية قديمهم وحديثهم ، أجوس في رياضهم وأتصيده في ديوان أو كتاب أو مجلة، مسير بدافع الحس المفعم بالعاطفة المتأججة والخيال المجنح المشبوب والشعور الملتهب أن الشعر هو كل شيء في الوجود ((ديوان العرب)) للتعبير عن الخير والجمال، والتحدث عن المعاني النبيلة الفريدة، ومواقف المروءة والشهامة، والحب

والحنان والعاطفة والإخلاص: من كل جوهر متألق السنا باهر اللمعان، وليكون للروح قائدا ودليلا ، يحفزها للانطلاق والتقدم بسائر الميادين، ويبقيها للازدهار والتوهج، لتخلد وتبقى بعد فناء الأجسام وانحلالها، وليأتي بعد ذلك الباحثون، فيقرؤونها في كتاب نفحة عاطرة، تستعصي على الزمن، وتقف شامخة بوجه الأيام.

ولطالما وقفت أمام الصورة الشعرية، فأغيب عن الوجود ومن فيه ، وتتلاشى أمام ناظري مظاهر الألم والشقاء، وأنسى هموم الحياة وتصاريفها، وأشعر أنني دخلت عالما مسحورا، فيه روائع الرؤيا تلوح للعين ، ويتملى منها الفكر والقلب فينغمس في جو من البهجة، وخضم واسع من المعاني السامية الكبيرة.

لم أجد منذ عشقت الشعر فارقا بين قديمه وحديثه، فالجمال والصدق يستهويانني ، ويشدانني في أي مشهد من المشاهد التي يصورها فنان ماهر مبدع كشف الله –سبحانه – عن بصره وبصيرته، فاجتاز الأبعاد وقطع الآماد، ولم يعترف بالزمن فاصلا بين فكر وفكر، وقلب وقلب، وقف تصهره حرارة الشمس، وعانى من ألق النبوة الساطع، رشح جبينه عرقا، وأخذته هزة الموحي قبل أن يقول كلمته، ويفيض بالنفائس الغوالي، فليس سر الشعر في وزنه، ولا في قافيته وموسيقاه، ولا فائدة من التعاريف التي ظن أصحابها أنها حدود قاطعة له، من قولهم: (الشعر كلام موزون مقفى إلى قولهم: (هو انفعال مصور أو هو التصوير المعبر عن انفعال ذاتي) ولا من تقسيمه إلى أغراض الغزل والوصف والفخر والمدح والرثاء وإلى غير ذلك.

فالشعر لا تتحكم فيه نظريات وقواعد ، ولا تدنو من مقامه الرفيع محاولات لا تتسم بوحي إله ومعجزة نبي ، هو من الأدلة الكبرى على سمو الروح وفضلها وقوة جوهرها،

نحس به، ونكبو عند التعبير عنه، هو الحياة بما فيها من خلجات ونبضات ونوازع، وأهداف، هو الجمال والصدق والذوق والنغم، ومن حسب أنه يستطيع حدها فقد جانب الصواب، وضل ضلالا بعيدا .

والشاعر أكمل الأفراد في مجتمعه وأولاهم بحمل الرسالة والدعوة لها، والتضحية من أجلها، وبذل جميع ما يقدر عليه من وقت وجهد ومال، ليرى أحلامه وآماله وأهدافه قريبة التناول من يده .

يهمنا قبل كل شيء أن يكون صادقا بما يقول من شعر، مؤمنا بما يدعو إليه، ينطلق من مبدأ قويم ثابت في نفسه ، لا يساوم، ولا يجامل فيه، ولا يحيد عنه، ولا يجعل من شعره وغناه الفكري والنفسي شركا يصطاد به، ويقتنص الأطماع والرغائب، وله بعد ذلك أن يعيش كما يريد.

أما القول بأن الشعر فن مستقل لا علاقة له بالحياة العملية، ولا داعي بموجب ذلك لالتزام الشاعر بما يقول، فهو ادعاء لا يقره منطق ولا يرتضيه وجدان .

إن الشاعر الحق هو سفير مجتمعه والناطق باسمه والمعبر عن حاجاته وآماله وآلامه، وهذا ما يدفعنا للوقوف أمام القمم الشامخة والذرى السامقة والتحدث عن مثل هذه النخبة من الشعراء الذين كانوا مثالا للفكر النير والبيان الناصع والتعبير الصادق، ولم أر تفسيرا لذلك الوقوف سوى القول بأنهم كانوا –ولا يزالون– حملة المشعل في دنيا العرب، ومنارة الإشعاع في عالم التعبير عن حاجات أمتهم وهمومها.. خلدهم شعرهم فخلدوا ، وظلت الأجيال المتعاقبة تحفظ أشعارهم وتقولها حيثما كانت المناسبة .

وبعد... فإن الشاعر حافظ إبراهيم كان واحدا من هـؤلاء الـشعراء الـذين أخـذوا عـلى عاتقهم التعبير عن واقع تعيشه أمتهم، بل تجاوز ذلـك حـدود الإقليميـة إلى عـالم الإنـسانية جمعاء، ولا غرو في ذلك، فحياة هذا الشاعر العربي المصري لم تعـرف الاسـتقرار والاطمئنـان منذ ولادته، فقد اخترم الموت والديه، فلم ينعم بحياتها طويلا ، فقد انـتقلا لرحمتـه -تعـالى- وهو لم يجاوز الرابعة من عمره، وكانت تلك أولى محطـات فقـدان الحنـان والرعايـة الأبويـة، فكفله خاله وكان يعمل مهندسا ، ويبدو أن حافظا ضاق ذرعا بالحياة في بيت خالـه، وجعلـه يشعر بالمرارة والألم لواقع يعيشه، فأراد الحرية والانطلاق، والخلاص من المنـة ، فخـرج مـن بيت خاله تاركا له بيتي الشعر التاليين :

ثقلـــــت عليـــــك مـــــؤونتي	إني أراهـــــــا واهيـــــــــه
فـــــافرح فـــــإنني ذاهـــــب	متوجـــــــه في داهيـــــــه

بهذه الكلمات المتأثرة المتألمة يودع حافظ خاله، غير آسف أو آبه بما يمكـن أن يواجهـه في سبيله، أو يلقى به في دهاليز حياة غامضة مجهولة.

لكن، نجده يدخل في صباه المدرسة الخيرية، ثم مدرسة ابتدائية اسمها المدرسـة القربيـة، يشتغل بعد ذلك عند بعض المحامين، ويرافع أمام المحـاكم، لكـن لم يطـل بـه المقـام في تلـك المحاماة، وطال به السفار، وامتد ليله ، فكان يتقلـب بـالبؤس والـشقاء، ويـصارع المقـادير، ويشكو الأحداث، ولم يختلف شأنه بذلك عن شأن غيره من العصاميين الـذين بنـوا أنفـسهم بالصبر والكفاح، ثم تقوده المقادير إلى الالتحاق بالمدرسة الحربية ليتخرج فيها ضـابطا ، وهـو ابن العشرين عاما ، ثم يعين في الحربية وبعدها ينتقل إلى الـشرطة، ومـن ثـم يـشترك في حملـة (كتشنر) في السودان، حيث لقي هناك ضيقا وشـدة في العـيش، ويـشترك في ثـورة الجـيش في

السودان، وضيق عليه ، فأحيل بعدئذ إلى التقاعد، ويبقى متعطلا عن العمل، إلى عام ١٩١١، حيث عين مديرا للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية إلى عام ١٩٣٢ حيث أحيل إلى التقاعد لبلوغه سن الستين، ومات بعد قليل.

لم ينل حافظ إبراهيم حظا من التعليم المستمر، فكانت دراسته ابتدائية ثانوية متقطعة ، ولم يحصل على شهادة مدرسية، وقد تعلم الفرنسية، ودرس الحربية، وكان يجد في نفسه ميلا إلى الأدب وتذوقه، فأقبل على دراسة العربية وآدابها ولا سيما الشعر معتمدا على نفسه، واطلع على معظم نتاج العرب الشعري، وخصوصا شعر الفحول من الأقدمين ومعاصريه.

لقد لازم الفقر والشقاء حافظ إبراهيم طيلة حياته، طفلا وشابا وكهلا ، وألقيا بظلالهما المؤلمة على معظم شعره، فكان هذا من العوامل التي عملت على تكوين شخيته، إضافة إلى يتمه المبكر وصعيديته التي أعطته جرأة وشجاعة وصرامة ونفورا من الظلم، فجعلت منه مصريا صميما، كما كان للفقر والعوز واضطرابه في الدراسة والمعيشة وعسره الدائمين الملازمين الأثر الكبير في هيكلة شخصيته ، فهو القائل:

خلق الشاعر والبؤس معا ... فهما خلان لم يفترقا

صدقا بالوديا ليتهما ... بمواعيد الهوى لم يصدقا

ونضيف إلى العوامل حياة الشعب المصري في ظل الانتداب البريطاني والاستبداد الأجنبي الخارجي والداخلي، وانتفاضة الشعب للخلاص منها، كما كان لأحرار الفكر الذين عاصرهم وعايشهم أثر كبير في نفسه، وذلك من أمثال الشيخ محمد عبده، ومصطفى كامل، وسعد زغلول، كما كان لمواهبه الأدبية وروح الفكاهة والدعابة الغالبتين عليه ، وثقافته الخاصة الأثر الكبير في صقل شخصيته وتكوينها بصورة متميزة.

إن المتتبع والمتأمل لشعره ، الذي قاله للشعب المصري، وما كان يعانيه من ظلم وقهر واستبداد، واعتداء على الممتلكات والأموال والأعراض، يجد فيه مسحة الحزن وعلائم الألم التي تعتصر قلبه، وتذيب حشاشة نفسه، كما يحس بشكل جلي أن الألفاظ المستخدمة في هذه المعاناة تحمل في طياتها هموم واقع مرير معتم، ومستقبلا غامضا مجهولا ، يحاول الخلاص منهما.

وإن المرء ليقف حائرا أمام بعض الظواهر في الحياة لا يستطيع لها حلا ، فإن للروح أسرارا وللقلوب رموزا، تعجز الذهن المحدود عن الوصول لحقيقتها، ويتعثر في سبيل فهمها وجلاء غامضها:

عجبا لأمر الفكر تصرعه	**ويحب دوما أن يطل فيصرعا**
ما انفك يجري في مجال متعب	**يسعى فيعجز في الطريق إذا سعى**
شكلين تبصر في جمال رائع	**والطيب حل بواحد فتضوعا**
للروح دنيا من جمال غامض	**حسب المفكر أن يحس فيعرفا**

يشقى إنسان ويكدح ، وينتعل الدماء، ويشرب المر الزؤام ، ويسيغ الأذى ، ومع ذلك تراه قريبا من القلوب والنفوس، تعطيه الحياة من عواطف الناس وحنانهم ورحمتهم، ما يعوض عنه الفائت ويسترد المفقود، فتراهم يرضون منه بالقليل، ويقبلونه على مافيه من هنات، ويسعد إنسان بجاهه وسلطانه ووسائله المادية، ويرتفع بفكره ومواهبه الطبيعية، وتغدق عليه الحياة ما تشاء من عز ومنعة وشرف وجاه، ويتنكر له الناس، وتفتش عن عيوبه، ولا ترضى منه بغير ما يثقل الكاهل ويعجز المواهب.

وإذا ما سبرنا غور الحياة وتعمقنا في البحث عن نموذج واضح أبلج لمن حظي بحب الناس، واحترامهم حيا وميتا ، كالمرحوم حافظ إبراهيم، شاعر الحسرات والآلام والأنين، ومهما تباينت الآراء ، وتعددت المذاهب، على كثرة ما قيل حديثا وقديما بموضوعه، تبقى حقيقه ثابتة لا يعروها ريب ، ولا يساورها ظن أو شك ، ولا يتناولها تبديل، وهي أن الشاعر إن لم يعش الخاطرة التي ينقلها، والفكرة التي يظهرها، والعاطفة التي يصورها ، لا يمكن أن يؤثر ويدوم.

وشعر حافظ إبراهيم يتسم بصدق الشعور والتأثر الصحيح ، حتى أنك تلمس خلجات نفسه، وترى الإحساس كيف ينمو ويقوى بين جوانحه. وهو لا يعمد للبث إلا في حالة الانفصال، الشديد فيأتي شعره واضحا متصلا بالنفوس والقلوب، فكأن البوح عنده دائما أنه مشتاق ونفثه مصدور، وبيان جلي لخاطرة كريمة دخلت الفكر المشرق، وحلت بالقلب النير العامر بالإيمان، وهذه سمات اتصف بها حافظ في جل الشعر الذي قاله، وسنبين هذه الجوانب في الباب الثاني من هذه الدراسة، ولكن لا بأس أن نورد في هذا السياق شيئا من شعره... فهاهو يصور واقع شعبه وما يعانيه من عوز وفقر وجوع، حيث يقول في قصيدته (غلاء الأسعار) :

أيها المصلحون ضاق بنا العيش	**ولم تحسنوا علينا القياما**
عزت السلعة الذليلة حتى	**بات مسح الحذاء خطبا جساما**
وغذا القوت في يد الناس كالياقوت	**حتى نوى الفقير الصياما**
يقطع اليوم طاويا ولديه	**دون ريح القتار ريح الخزامى**
ويخال الرغيف في البعد بدرا	**ويظن اللحوم صيدا حراما**

إن أصاب الرغيف من بعد كد صاح: من لي بأن أصيب الإداما

وكان حافظ ذا شعور وطني يأبى الضيم والاستبداد، ويمقت الاستعمار والمستعمرين أحب وطنه، وتفانى في الدفاع عن حياضه، وقاوم المحتل الأجنبي بجسمه ولسانه، فهو ليس من أولئك الشعراء الذين يصنفهم النقاد والأدباء في دائرة أن الشاعرية فن مستقل، لا علاقة بينه وبين الحياة العملية التي يعيشها الشاعر ، فربما تغنى بشيء لا يؤمن به ، ونسج قصيدة لا تعبر عن حقيقة شعوره، وصور بمواقفه أشياء بعيدة عن نفسه وقلبه ، وأتى بالرائع المبدع ، واستدلوا بذلك بأقوال الأعلام من الشعراء السابقين كأبي الطيب المتنبي وغيره ، فإنهم كانوا يمدحون ويهجون، ويتحدثون عن أمور بعيدة عن نفوسهم وقلوبهم، رغبة في مطمع ، وسعيا وراء كسب، وزعموا أننا لا يحق لنا أن نحاسب الشاعر على حياته الخاصة في جده وتصرفه الاجتماعي ولهوه ومرحه، فإن ذلك له وحده، ويعنينا قبل كل شيء التجويد والإبداع، نقف أمام الأثر الرائع فنقدر ما فيه من جمال وخصائص فنية، ونترك ما عدا ذلك للشاعر، لكنهم لم يدركوا أن الشاعر نبي صغير أو سفير أمين لأمته، يتأثر بما يصادف أكثر من سواه، يعي الحياة، ويحس بجميع ما فيها، وينفعل بأحداثها، ويتخذ لنفسه بكل ذلك المواقف التي يفرضها عليه الخلق النبيل والضمير الحي، والإنسانية الرفيعة، لم يفهموا أن الشاعر صاحب رسالة، لا خير فيه وفي شعره إن لم ينهض بما تطلبه منه، ويبذل كل ما يستطيع في سبيل عقيدة يؤمن بها، ويدافع عنها، وهو في ألمه وسروره وحزنه وفرحه وجميع مواقفه في الحياة يصدر عن تلك العقيدة المتمكنة من قلبه وشعوره، والتي تحيا معه ، فتسعده أو تشقيه ، وتكون المحور لوجوده كله يصدر عنها وإليها يعود في تصرفاته، هي خلقه ودينه وشرفه ومعناه.

إن هذا الذي بسطنا فيه القول لم يكن بعيدا عن مفاهيم جماعة من المتقدمين، فهذا معاوية يقول لعبد الرحمن بن الحكم، إنك قد لهجت بالشعر، فإياك والمدح فهو كسب الأنذال، ولكن افخر بمآثر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وتؤدب به غيرك، وإن لم تجد من المدح بدا، فكن كذلك المرادي حين مدح فجمع في المدح بين نفسه وبين الممدوح، فقال:

أحللت رحلي في بني ثعل — إن الكريم للكريم محل

وهكذا كان حافظ أحب الشعب وفني فيه، وحن لوطنه ومجد بلاده، وعانى الفقر والحرمان، فأحس مع الضعفاء، ونشد العدالة الاجتماعية، فقال:

أيها المصلحون أصلحتم الأرض — وبتم عن النفوس نياما

أصلحوا نفوسا أضر بها الفقر — وأحيا بموتها الآثاما

تؤثر الموت في ربوع النيل جوعا — وترى العار أن تعاف المقاما

حقا تستحق يا حافظ إبراهيم أن تكون شاعر النيل والشعب، وقديما قيل: الوفاء في الرثاء، والرثاء هو لغة الحزن والأسى على فقيد، وفيه تظهر صدق العاطفة أو زيفها، وقد ظهرت عند (حافظ) عزته ونبله ووفاؤه لأصدقائه وأعلام الفكر من معاصريه، مصريين وغير مصريين، فلم يقل الرثاء تزلفا أو نفاقا، لم يرث من لا نباهة له، أو لقربه من حكام عصره، فإن مثل هذا الرثاء لا يعدو كونه تعزية عابرة لا أكثر ولا أقل. وقد أشار الدكتور طه حسين لهذه الناحية في حافظ إبراهيم فقال: ((... ورحم الله حافظا، لم يكن فردا يعيش لنفسه بنفسه، وإنما كانت مصر كلها، بل الشرق كله، بل الإنسانية كلها في كثير من الأحيان تعيش في هذا الرجل، تحس بحسه، وتتألم بقلبه، وتفكر بعقله، وتنطق بلسانه، ولا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ إبراهيم

رحمه الله .... هكذا كانت الصلة بينه وبين الناس، فليس غريبا أن تقع الحوادث والكوارث من نفسه أشد وقع، وأن تثير فيها لذاعة من الألم والحسرة، ومن الحزن واللوعة، وليس غريبا أن ينطق لسانه بالشعر في تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد في غير مشقة ولا عناء، ويصل إلى هذه المنزلة التي لا يصل إليها الشعراء، إلا أن يكونوا مطبوعين صادقين، أو تكون الظروف قد واتتهم، وأتاحت لهم من أساليب القدرة والبراعة ما يقربهم من المطبوعين، وهي أن يبلغوا بالذين يقرأونهم ويستمعون إليهم مثل ما في نفوسهم من الحزن واللوعة، ومن الحسرة والأسى، فإذا بكوا بكى معهم الناس صادقين، وإذا تألموا تألم معهم الناس مشاركين، وإذا جزعوا جزع معهم الناس مخلصين .

فهذه منزلة بلغها حافظ إبراهيم لم يبلغها كثير من شعراء العربية في العصر الحديث، فبين شعرائنا في هذه الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء، ويجيدون وصف الفقيد الراحل وتعديد مناقبه ومآثره، ويتقنون وصف الحزن عليه والأسى لفراقه، ويبلغون البراعة في ضرب الأمثال السائرة. والحكم البالغة، ويجمعون من هذا كله ما يحس وقعه في القلوب وما يلذ الأسماع والعقول معا، ولكنهم لا يثيرون على ذلك كله ما في النفوس من عواطف الحزن الكامنة، ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة، كما كان يفعل حافظ إبراهيم؛ لأن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن من غير حزن صادق، ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة، وهم يقصدون من الرثاء على أنه فن من فنون الشعر يجب أن يساهموا فيه، وعلى أن مكانتهم الأدبية تضطرهم إلى أن تكون لهم في الرثاء كلمة مسموعة، أما حافظ فكان يرثي؛ لأنه يحزن ، وكان يحزن ؛ لأنه يحب، وكان يحب؛ لأن الله وهبه نفسا رضية مؤثرة لم تبرأ من شيء قط كما برئت من الأثرة وكما برئت من الضغينة والحقد)) .

هذه إذن شهادة من عميد الأدب العربي في حافظ إبراهيم، وهي شهادة لعمري لا تبعد عن الحقيقة كثيرا، ولا تجانب الصواب، وإن قيل ما قيل من نقاد محدثين غير منصفين في حق هذا الشاعر الكبير.

فها هو يبدو متأثرا أشد التأثر حين يخاطب (إبراهيم بك الهلباوي) المدعي العام بمصر، إثر حادثة قرية (دنشواي) التي تقع في الوجه البحري من مصر، وكان ضباط إنجليز يصطادون فيها الحمام، فأصابوا بعض أهلها، فاصطدموا مع الإنجليز، فقتل أحدهم، فحوكم الأهلون، وشنق فريق منهم، وجلد فريق في القرية أمام الناس، فيقول حافظ إبراهيم مصورا ذلك الحدث ملقيا اللوم على ذلك المدعي العام الذي كان يأتمر بأوامر الحكام وينفذ قراراتهم:

أيها المدعي العمومي مهلا	بعض هذا فقد بلغت المرادا
قد ضمنا لك القضاء بمصر	وضمنا لنجلك الإسعادا
فإذا ما جلست للحكم فاذكر	عهد مصر فقد شفيت الفؤادا
لا جرى النيل في نواحيك يا مصر	ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا مصر	فأضحى عليك شوكا قتادا
أنت أنبت ناعقا بالأمس	فأدمى القلوب والأكبادا
إيه يا مدره القضاء ويامن	ساد في غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا	قد لبسنا على يديك الحدادا

واستمع إليه وهو يرثي (مصطفى كامل) في قصيدته التي أنشدها في العشرين من آذار عام ألف وتسعمائة وثمانية:

نثـــروا عليـــك نـــوادي الأزهـــار وأتيـــت أنثـــر بيـــنهم أشـــعاري
زيـــن الـــشباب وزيـــن طـــلاب العـــلا هـــل أنـــت بـــالمهج الحزينـــة داري؟
غادرتنـــا والحادثـــات بمرصـــد والعـــيش عـــيش مذلـــة وأســـار
مـــا كـــان أحوجنـــا إليـــك إذا عـــدا عـــاد وصـــاح الـــصائحون بـــدار
ورأيـــت كيـــف تفـــي الـــشعوب رجالهـــا حـــق الـــولاء وواجـــب الإكبـــار
تـــسعون ألفـــا حـــول نعـــشك خـــشع يمـــشون تحـــت لوائـــك الـــسيار

إلى أن يقول:

نعـــم الجـــزاء ونعـــم مـــا بلغتـــه في منزليـــك ونعمـــى عقبـــى الـــدار

والقصيدة تصل أبياتها إلى أربعة وأربعين بيتا، وفيها شاهد ساطع وبرهان قاطع على أن الوفاء في الرثاء لأولئك الذين يستحقون الرثاء . وحافظ إبراهيم يحب لغته العربية ويغار عليها، ويتأسى على ما تتعرض له من حملات مغرضة ودعوات هدامة، تنادي باستخدام اللغة العامية، فيهزه هذا الأمر ويشعر بأنها أصبحت في حال يدعو إلى اليقظة والتنبه والعض على النواجد في الحفاظ على اللغة الفصحى، لغة كتاب الله العزيز، القرآن الكريم.

فها هي تنعي حظها بين أهلها فتقول :

رجعـــت لنفـــسي فاتهمـــت حـــصاتي ونـاديـــت قـــومي فاحتـــسبت حيـــاتي
رمـــوني بعقـــم في الـــشباب وليتنـــي عقمـــت فلـــم أجـــزع لقـــول عـــداتي
ولـــدت ولمـــا لم أجـــد لعرائـــسي رجـــالا وأكفـــاء وأدت بنـــاتي
وســـعت كتـــاب الله لفظـــا وغايـــة ومـــا ضـــقت عـــن آي بـــه وعظـــات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسما لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادي بوأدي في ربيع حياتي

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا من القبر يدنيني بغير أناة

وأسمع للكتاب في مصر ضجة فأعلم أن الصائحين نعاني

يهجرني قومي عفا الله عنهم إلى لغة لم تتصل برواة

إلى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائي بعد بسط شكاتي

فإما حياة تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرموس رفاتي

وإما ممات لا قيامة بعده ممات لعمري لم يقس بممات

ولم يكن حافظ إبراهيم بمنأى عن زعماء مصر وقادتهم الأحرار كما أنه كان قريبا من دعاة الإصلاح وأعلامهم، لقد تأثر بمبادئهم الوطنية فسجلها في ديوان شعره، ومن هنا نجده الإنسان الوفي الذي يحفظ الود والتقدير لهؤلاء الأعلام، فرثاهم رثاء ينم عن شعور صادق وإحساس شفاف خالص، وسيرد ذكر هؤلاء في الباب الثاني من هذه الدراسة مع ما قاله فيهم من قصائد خالدة.

وعلى الرغم من كل ما أحاط بحافظ من سوء الطالع وملازمته للشقاء والبؤس وإحساسه الصادق بما يعانيه من آلام واستبداد داخلي، وخارجي، إلا أن هذا الشاعر الكبير المتألم الذي تبتسم له الحياة إلا نادرا، امتاز بالروح المرحة والدعابة الخفيفة الرقيقة، وقد رويت عنه طرائف كثيرة، نذكر منها:

أنه كان يلبس بذلة واحدة في جميع فصول السنة، فسأله مرة أحد أصدقائه: لم لا يغير هذه البذلة؟ فأجاب؛ لأن بها صفتين من صفات الله: الوحدانية والقدم.

وكتب الدكتور هيكل مقالا عنوانه: (شوقي وحافظ)، وبلغه أن شوقي غضب للجمع بينه وبين حافظ، فقال: لماذا يغضب؟ أما سمع الناس يقولون: خيار وفقوس، وسميط وجبنة، وعسل وبصل؟ أما من يكون العسل ومن يكون البصل فهذه مسألة أخرى.

وكان الشاعر إمام العبد من أصدقاء حافظ، وهو من أهل المرح والدعابة، وكان إذا ذكر حافظ، يقول: أنا الذي خلقته، مشيرا بذلك إلى أنه سبب شهرته وظهوره، ومرة جاء إمام العبد لحافظ يطلب منه نقودا، فقال له: رب أنا كما خلقتني.

ويصطحبه ذات مرة شوقي إلى دار الأوبرا المصرية لمشاهدة فيلما سينمائيا، فما أن وصلا باب الأوبرا وإلا أحد الذين يقفون على باب الدخول يطلب منهما التذاكر، ولم يكن حافظ يحمل تذكرة ولا نقودا، وهنا يتخلص حافظ من هذا الموقف الحرج، فيقول لهذا المسؤول لو قلت لك بيتين من الشعر ونالا منك الإعجاب والرضى ألا تسمح لي بالدخول؟ فقال له: قل: فقال حافظ إبراهيم:

رياض الأزبكية قد تجلت   بأنجاب كرام أنت منهم

فهبها جنة الخلد قد فتحت   وأدخلني مع المعفو عنهم

وعندها أذن له بالدخول.

ومع كل هذه الروح المرحة والدعابة الظريفة، نجده يصف سعيه المتواصل، وبؤسه وإباءه ويتمنى الراحة من ذلك بالموت، يقول:

سعيت إلى أن كدت أنتصل الذما وعدت وما أعقبت إلا التندما

لحى الله عهد القاسطين الذي به تهدم من بنياننا ما تهدما

سلام على الدنيا سلام مودع رأى في ظلام القبر أنسا ومغنما

أضرت به الأولى فهام بأختها فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما

فهبي رياح الموت نكبا وأطفئي سراج حياتي قبل أن يتحطما

فما عصمتني من زماني فضائلي ولكن رأيت الموت للحر أعصما

فيا قلب لا تجزع إذا اعضك الأسى فإنك بعد اليوم لن تتألما

ويا نفس كم جشمتك الصبر والرضا وجشمتني أن ألبس المجد معلما

فهذا فراق بيننا فتجملي فإن الردى أحلى مذاقا ومطعما

ويا قبر لا تبخل برد تحية على صاحب أوفى علينا وسلما

وهيهات يأتي الحي زائرا فإني رأيت الود في الحي أسقما

ويا أيها النجم الذي طال سهده وقد أخذت منه السرى أين يمما

لعلك لا تنسى عهود منادم تعلم منك السهد والأين كلما

يمثل هذه اللغة الحزينة يصف حافظ إبراهيم سعيه المتواصل وإباءه ولكن بلا جدوى ويتمنى الراحة من ذلك بالموت.

ولا يغيب عنا الإحساس الجمعي والقومي بأنه كان حاضرا في شعر حافظ إبراهيم. فها هي قصيدته التي حملت عنوان (سوريا ومصر)، تنهض شاهدا على ذلك، فتعبر عن إحساسه القومي وما يحمل بين جوانحه من آمال بأن يرى الأمة العربية أمة واحدة تسودها

المحبة والمودة، فالأقطار العربية وإن اختلفت أسماؤها يجمعها ويوحدها هدف واحد ومصير مشترك.

يقول:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب — هنا العلا وهناك المجد والحسب

ركنان للشرق لا زالت ربوعهما — قلب الهلال عليهما خافق يجب

خدران للضأد لم تهتك ستورهما — ولا تحول عن مغناهما الأدب

لو أخلص النيل والأردن ودهما — تصافحت منهما الأمواه والعشب

بالواديين يمشي الفخار مشيته — يحف ناحيته الجود والدأب

أيرغبان عن الحسنى وبينهما — تلك القرابة لم يقطع لها سبب

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم — فصافحوها تصافح نفسها العرب

فما الكنانة إلا الشام عاج على — ربوعها من بنيها سادة نجب

لولا رجال تغالوا في سياستهم — منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا

إن يكتبوا لي ذنبا في مودتهم — فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

ولم يكن حافظ إبراهيم مصريا صميما وحسب، بل كان شاعرا إنسانيا، لا تعرف إنسانيته الحدود، ولا تتعصب لأرض دون أرض، ولا إنسان دون إنسان، فها هو ينظم قصيدة طويلة، تناول فيها النكبة التي حلت بمدينة (مسينا) الإيطالية، فوصف آثار الزلزال الجبار الذي داهمها فقلب سافلها عاليها، ودمرها تدميرا، كما وصف الفيضان الجارف الذي صحب الزلزال، فأصبحت أثرا بعد عين.

يقول فيها:

مـــا لمـــسينا عوجلـــت في صـــباها	ودعاهـــا مـــن الـــردى داعيـــان
خـــسفت، ثـــم أغرقـــت، ثـــم بـــادت	قـــضي الأمـــر كلـــه في ثـــواني
بغـــت الأرض والجبـــال عليهـــا	وطغـــى البحـــر أيـــما طغيـــان

ويزيد الحادث تصويرا، فيقول:

رب طفـــل قـــد ســـاخ في بـــاطن	الأرض ينـــادي أمـــي أبي أدركـــاني
وفتـــاة هيفـــاء تـــشوى عـــلى الجمـــر	تعـــاني مـــن حـــره مـــا تعـــاني
وأب ذاهـــل إلى النـــار يمـــشي	مـــستميتا تمتـــد منـــه اليـــدان
باحثـــا عـــن بناتـــه وبنيـــه	مـــسرع الخطـــو مـــستطير الجنـــان

كان حافظ إبراهيم شديد الحساسية قوي الشعور، ولا سيما بالأرزاء التي حلت بوطنه، لذلك كان شعره سجلا للإحداث التي مرت بمصر، ومع ذلك لما كان موضوع قصيدة، (مسينا) موضوع مأساة وهو الذي عاصر المآسي، وولع بوصفها، وقد وجد ميدانا يصول فيها ثابت الخطو، موفور النشاط، فإن طبيعة موضوعها تنسجم مع طبيعة الشاعر، فهو يتناوله بالحماس الذي يتناول فيه مأساة مصرية وطنية.

فمثل هذه القصيدة وغيرها من قصائده الإنسانية، يدل دلالة واضحة على أن حافظ إبراهيم كانت تحركه الآلام التي تصيب الناس أينما كانوا بغض النظر عن أصولهم ومذاهبهم وأجناسهم.

ولا يفوتنا أن نذكر في هذه المقدمة أن حافظ إبراهيم كان عالي الخلق جم التواضع،وهو القائل المعتذر عندما شغله شاغل عن حضور ذلك الحفل الذي أقامه أمير الشعراء أحمد شوقي بمناسبة زفاف ابنته:

يـــا ســـــيدي وإمـــــامي ... ويـــا أديـــــب الزمــــان

قـــد عـــاقني ســـوء حظـــي ... عـــن حفلـــة المهرجـــان

وكنـــــــت أول ســـــاع ... إلى رحـــاب ابـــن هــــاني

حرمـــت رؤيـــة شـــوقي ... ولـــثم تلـــك البنـــان

فاصــــفح فأنـــت خليـــق ... بالــصفح عـــن كــل جـــان

رحم الله حافظ إبراهيم رحمة واسعة.

الباب الأول/ الشاعر

١ - اسمه ، ولادته ، يتمه المبكر / نشأته

هو ((محمد حافظ)) بن إبراهيم فهمي، فاسمه مركب، كدأب المصرين وغيرهم من العرب في تسمية أبنائهم بأسماء مركبة، مثل: ((محمد حسني)) و ((محمد أنور)) و ((محمد منير)) و ((محمد علي)) وما إلى ذلك، ولكن يغلب عليهم الاسم الثاني من الاسم المركب، ولهذا عرف باسم حافظ إبراهيم.

ولد حافظ إبراهيم في (ديروط) من أعمال مديرية (أسيوط) عام ١٨٧٠ في مصر من أب مهندس وأم تركية، وكان أبوه يعمل مهندسا مشرفا على بناء قناطر أسيوط، وما عتم أن فقد أباه، ولم يكن قد تجاوز السنتين من عمره، مات أبوه فقيرا في ديروط، فانتقلت به أمه إلى القاهرة حيث يقطن خاله فكفله، وجعله تحت رعايته، فأدخله (المدرسة الخيرية)، فمدرسة المبتديان، فالمدرسة الخديوية، ثم انتقل خاله إلى (طنطا) فنقله معه، فقضى فيها بضع سنين متبطلا متعطلا، يزجي فراغه بالقراءة، ويصرف ملاله بنظم القريض ومطالعة الكتب الأدبية والدواوين الشعرية.

ولم يستطع خاله لسبب ما أن يبعد عنه غمة اليأس وذلة اليتم، فكثيرا ما كان يبدو متبرما بالعيش، متأففا بالناس، متجنيا على القدر، لا ينظم إلا في ذاك، تم اضطرته الحاجة إلى مكاتب المحامين ليعمل مرافعا أمام القضاء، إلى أن حانت له فرصة دخول المدرسة الحربية وتخرج فيها ضابطا بالجيش، ثم نقل إلى الشرطة، تم أعيد إلى الجيش، وأرسل إلى السودان بقيادة (كتشنر) فبقي هناك زمنا كان لا ينفك فيه متبرما متمردا، حيث لم تطب له الحياة في

ذلك البلد، وكان يلح مطالبا بالعودة إلى مصر، فلما أخفق مسعاه ثار مع فئة من الضباط سنة ١٨٩٩، فحوكم وأحيل إلى الاستيداع، ومنه إلى المعاش (التقاعد).

حاول بعدها الفرار من فشله إلى معالجة الشعر ومطالعة دواوينه ومخالطة الأدباء، لكن حياته لم تعرف الاستقرار ولم تحظ الاطمئنان، فعاد كما كان يضطرب في الحياة المبهمة الغامضة، لا يستريض لعمل، ولا يستقر على أمر، ولا يتشوف إلى غاية محدده، وإنما يضطرب نهاره منتقلا من مقهى إلى مقهى، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس، ويفيء إلى ظل الإمام (محمد عبده) ، فينتفع بعلمه وجاهه، ويعيش على رفده ونواله، ويغشى مع ذلك أرباب النعمة يسامر أهلها بعذب حديثه ودعابته الخفيفة، وينادمهم برقيق شعره، وجديد نظمه، وفي سنة ١٩١١ عينه (أحمد حشمت باشا) وزير المعارف يومئذ رئيسا للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، ثم وكيلا للدار، وظل في هذا المنصب حتى أحيل إلى التقاعد في بداية سنة ١٩٣٢، وكان في هذه الفترة قد نعم بشيء من سعة العيش وحسن التقدير، وتوفي صيف سنة ١٩٣٢، رحمه الله.

٢- بيئته الخاصة والعامة:

بدأت حياة حافظ سيئة الطالع، اخترم الموت والديه مبكرا، فعانى اليتم وفقد الحنان، وكابد الضياع، وقاسى حياة الفقر والحرمان، فعاش بحكم طفولته المشردة عيش الكسل والتبطل، لا يرغب في علم، ولا ينشط إلى عمل، وكان مبدأه الأدبي مبدأ اليوم، كما كانت حياته المادية حياة الساعة، يعيش ليومه ويترك غده للقدر، رأى الآمال في البداية تتهافت حينا على أريكة الخديوية في مصر وعرش الخلافة في الأستانة، فجرى لسانه بالشعر المطبوع في مدح الخديوي عباس والسلطان عبد الحميد، ثم اتصل بالإمام (محمد عبده)وأنصاره من سراة البلاد وشيوخ الأمة، ولهم يومئذ في الإنجليز رجاء موصول وظن حسن، فصدرت عنه في هذه الفترة قصائد في رثاء الملكة (فكتوريا) وتتويج الملك (إدوار السابع)، ووداع اللورد (كرومر) عبر بها عن الرأي الارستقراطي في ذلك الحين، ثم انقطع للشعب وخلص إليه، فلازم دهماءه، وخالط زعماءه،واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء (مصطفى كامل) فمزج شكواه بشكوى البلاد، وضرب على أوتار القلوب وكوامن النفوس أناشيد الجهاد، ونظم أماني الشباب وتطلعاتهم من حبات قلبه، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره.

لقد عاشت مصر في زمنه حياة كثر فيها الظلم والاستبداد وشاع فيها الفقر والجوع ولم يكن شعوره بالألم وقفا على لواعج نفسه وأحداث حياته، فقد شارك الشعب في مصائبه، وسمع شكاوي المظلومين، وعزى المفجوعين، وآسى المتألمين وقاوم المستبدين والمستعمرين، ونادى برحيل الانتداب والمحتلين.

ومن هنا يمكننا القول بان حافظ إبراهيم في بيئته الخاصة وبيئته العامة، كان كل منهما في اضطراب يلقي بظلاله على معظم نتاجه الشعري، فقلما نقرأ له قصيدة إلا ونجد فيها تلك

النفس المتألمة والقلب المكلوم، فجاءت معبرة عن واقع مرير، ومصير مجهول ينتظر أن يكشف عما يحبط به ظلام ليبزغ النور من جديد، وبيدأ النهار المشرق بعد ليل بهيم طالت ظلمته، وسأذكر نماذج من شعهر في هذه الجوانب عند دراسة شعره.



٣- ثقافته:

لم ينل حافظ إبراهيم حظا وافرا من التعليم المستمر، فقد كانت دراسته متقطعة غير منتظمة، ابتدائية ثانوية، ولم يحصل فيها على شهادة، وكان خاله قد أدخله مدارس عدة، منها مدرسة القلعة الخيرية، تم مدرسة يقال لها المدرسة القربية، ومنها دخل المدرسة الخديوية، كانت هذه الدراسة حين كان في القاهرة، ولما انتقل مع خاله إلى (طنطا) ودخل حافظ المعهد الأحمدي، وسرعان ما ضاق حافظ ذرعا بنفقة خاله عليه، وكان إذ ذاك في السنة السادسة عشرة من عمره، فترك المدرسة، وعكف على مطالعة الكتب الأدبية والعلمية، ومدراسة دواوين فحول الشعراء العرب قديمهم وحديثهم، ومن ثم كان له نصيب من الإلمام بالقوانين عندما انخرط في سلم المتدرجين العاملين في مكاتب عدد من المحامين، منها مكتب محمد الشيمي، ومكتب محمد أبي شادي.

أما ثقافته الأجنبية ولا سيما الفرنسية، فلم تكن نتيجة دراسة منتظمة في معاهد معينة، وإنما كانت بجهد شخصي، مكنه من إجادتها وبالتالي استخدمها في حياته العملية، وفي نتاجه الأدبي، وقد ساعده ذكاؤه الفطري وقوة حافظته على اقتباس معلومات كثيرة، وكانت ثقافته عربية أكثر مما كانت أجنبية.

٤ – حياته العملية، وفاته ، آثاره الأدبية، صفاته الخلقية والخلقية:

مارس حافظ إبراهيم مهنة المحاماة والمرافعة أمام المحاكم، لكنه سرعان ما سئم دنيا القانون وعالم الادعاء والدفاع عن الحقوق، وفض الخلافات والخصومات، فهجر طنطا والمحاماة، ليدخل المدرسة الحربية بالقاهرة، وما لبث أن تخرج فيها برتبة ضابط في الجيش، انتقل بعدها إلى جهاز الشرطة والبوليس في بني سويف القريبة من القاهرة، ثم في شرطة الإبراهيمية، ثم يعود مرة أخرى إلى المدرسة الحربية، ومن ثم اختير للعمل تحت لواء اللورد (كتشنر) للعمل في صفوف الحملة البريطانية المصرية المرابطة في السودان.

وكان حافظ يحمل في قلبه حبا كبيرا للسوادن، ولكنه شعر أنه جر إلى هذا البلد جرا، فعاش فيه، وهو يعاني من الوحدة والوحشة والغربة، والبعد عن الأهل، والأصدقاء والصحب، ناهيك عما كان يعانيه من وطأة الأوامر التي كان يكلف بها من قبل اللورد (كتشنر) ومن قبل رئيسه المصري (رفعت بك)، فشكل هذا الوضع ضغطا على نفسه مما أثار حفيظته على هذين الرجلين كليهما، وعلى الوضع السائد في السودان بصفة عامة، فلما قامت ثورة السودان سنة ١٨٩٩، كان حافظ واحدا من ثمانية عشر ضابطا، ممن وجهت إليهم تهمة التقصير والإهمال بالواجب، وتهمة التمرد على الالتزام بالأوامر العسكرية، فحوكموا محاكمة صورية، أحيلوا على أثرها إلى الاستيداع، لكن حافظا، كان الوحيد من هؤلاء الضباط، إذ طلب إحالته إلى المعاش بدل الاستيداع، فكان له ما أراد.

عاد حافظ إبراهيم بعد إحالته إلى التقاعد إلى وطنه مصر ، حيث عاش فيها زمنا طويلا، ثم يتزوج، لكن هذا الزواج لم يكتب له النجاح والديمومة، ولم يثمر عن عقب يهنأ به ويأنس إليه، ثم كانت وفاة الزوجة سنة ١٩٠٨ بعد أن كان طلقها، واكتفى بعدها بالعيش في ظل

زوجة خاله (نيازي بك)، واسمها (عائشة هانم)، وهي أيضا لم ترزق بولد، فحدبت عليه وعلى ابنتين يتيمتين تبنتهما من قبل، واستمر حافظ على هذا الحال حتى وفاة الخالة البرة بالأيتام سنة ١٩٢٩.

كان راتب حافظ إبراهيم حين أحيل على التقاعد، أربعة جنيهات شهريا، وهي قيمة لا تسمن ولا تغني من جوع، فهذا المبلغ الضئيل لا يغطي مستلزمات الحياة الحرة الكريمة، فماذا يفعل حافظ؟وما العمل؟ وما هو الحل؟

لقد عمل حافظ وبمساعدة أحد أصدقائه، في صحيفة الأهرام الذائعة الصيت، ولكن كان العمل فيها لأشهر معدودة، انقطع بعدها عن العمل إلى حين، ثم عين بعد ذلك وبواسطة من وزير المعارف آنذاك – (أحمد حشمت باشا) – رئيسا للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية، فهدأت نفسه بعض الشيء، وشعر بالاستقرار وسعة الرزق إلى وقت غير قصير.

وبعد هذا المشوار الطويل من حياة حافظ المضطربة، تكون نهايتها في ليلة الخميس في الحادي والعشرين من شهر (تموز) عام ١٩٣٢، وخلال تناوله الطعام مع صديقين عزيزين مخلصين له، وفي بيته المتواضع في أحد أحياء القاهرة – حي الزيتون – ثقلت الحال فجأة بالشاعر حافظ، وما أن بادر خادمه الأمين وصديقاه المخلصان إلى استدعاء الطبيب المختص، حتى كانت روحه قد فاضت لتنتقل إلى الرفيق الأعلى فكانت خسارة مصر والأمة العربية والإسلامية في واحد من أعظم شعرائها المبدعين، فبكته مصر، وبكاه النيل، وحصل على وسام من الدرجة الرابعة يسمى وسام النيل، فكان يحق شاعر النيل، وشاعر الشعب.

وأما آثاره الأدبية فكانت: كتابا في النثر موسوما بـ (ليالي سطيح)، وترجمة قسم كبير من ((رواية البؤساء)) لفكتور هوجو (victor Hugo)، واشترك مع خليل مطران في نقل كتاب ((الموجز في الاقتصاد السياسي)) للروابوليه – (Leray Beulieu)، وله في الشعر ديوان يقع في ثلاثة أجزاء يجمع إلى الأغراض التقليدية كثيرا من القصائد الاجتماعية والسياسية.

وفيما يتعلق بصفاته الخلقية والخلقية، فكان ذا سحنة سمراء، طويل القامة، مستحكم الخلقة والتركيب، يحمل بين جبينه نفسا في غاية السماحة والبساطة، يحب الآخرين، وقريب منهم يرغب في التحدث إليهم بكل أريحية وطيب خاطر، بعيدا عن التكلف والحرج، جواد كريم يعطي من سأله ومن لم يسأله، ذو سريرة سليمة، ومواهب في غاية الرقة واللطف، والوداعة، ذلكم هو حافظ إبراهيم الذي نشأ فقيرا وأحسن فقر الآخرين، فشاركهم في البأساء والضراء، ((وخاطب العظماء والعامة على سجيته دون مقدمات، ومراسم)) هكذا عبر عنه محمود عباس العقاد.

وعلى الرغم مما عاناه حافظ وكابده في حياته الخاصة والعامة، فقد خلق الله سبحانه – في نفسه ميلا إلى الدعابة والفكاهة، وشغفا بالنكتة، التي يبلسم بها آلامه، ويشفي بها جراحه، ويسلي بها وحدته، كانت نكته تنم عن ذكاء مفرط وجواب حاضر، لكن مثل هذه الدعابات والفكاهات لم يسجلها في ديوانه، ولم يحفظ في أوراقه شيء منها، وإنما اختزنتها الذاكرة، وشاعت على ألسنة عامة الناس وخاصتهم سواء بسواء.

الباب الثاني / شعره

سأتناول في هذا الباب الحديث عن شعر حافظ إبراهيم غير ملتزم بتقسيمه إلى الأغراض الشعرية التقليدية التي دأب عليها الأدباء والنقاد، وسأختار من قصائده التي نظمها في مناحي الحياة المختلفة، أبياتا شاهدة على ما نذهب إليه من أن إحساسه بالحزن وحمله هموم الإنسان سمة ظاهرة وبارزة في معظم أشعاره، وقد قسمت هذه الأشعار على النحو التالي:

١ - الوطنيات والقوميات:

عاش حافظ إبراهيم جل حياته قريبا ن مجتمعه المصري بشكل خاص، ومن مجتمعه العربي بصورة عامة، فصور أحداثها وما يجري على الساحة المصرية والعربية من وقائع، فكان من الشعراء الذين تهفو إليهم قلوب الأمة، يعيش حياتها، فيشقى حين يشيع الشقاء، ويبتهج حين يشيع فيها الرخاء، ويحيا مع أبنائها ويشاركهم حياتهم بكدرها وصفوها، ويتخذ منها مادة لأدبه، فلم يكن منفصلا عنهم أو معتزلا حياتهم، وما يعيشون فيه من آمال وآلام ومواقف اجتماعية مختلفة، وليس معنى ذلك أن الشاعر لا ينبغي أن يصور نفسه، وإنما معناه أنه ينبغي إذا صور نفسه صور من خلالها مجتمعه، فهو لا ينأى بعيدا عنه، بل يمتزج به، بحيث تصبح نفسه صورة لأفراده، ويصبح وحدة حية من وحداته، وبذلك تلتئم في تصويره لنفسه أحاسيسه الذاتية وأحاسيس مجتمعه الموضوعية.

خالط حافظ الشعب واتصل بقادة الفكر والإصلاح ولا سيما الإمام ((محمد عبده)) وأمدته نزعته الشعبية وعاطفته الوطنية بالقوة التي تدفع به إلى ميدان الكفاح في سبيل رقي

الأمة وازدهارها، ولئن أبعد شاعرنا عن ساحات الوغى فقد فتح له شعره مجالا أوسع للمناضلة والدفاع، فرجع إلى الماضي، وصاغ حياة رجاله في منظومات تعيد إلى النفس العربية الرغبة في الكفاح وما سلف من الثقة والنخوة، وعالج الحاضر بثورته على داء التفرقة وتدخل الأجانب في مصالح الوطن، وبدعوته إلى تهذيب الأخلاق، وتعميم الإخاء ـ وتعليم الفتاة، وتنشيط الثقافة والتعليم والمشاريع العمرانية، ورمى بنظره إلى المستقبل فتغنى بآمال الأمة المصرية والعالم العربي بلهجة وثابة حماسية مضيئة بنور الأمل الوطيد والاعتقاد الراسخ، فرسم للوطن صورة خلابة تستفز الهمم وتستهوي القلوب، واستحق لقب شاعر النيل، فها هو يحمل هموم شعبه، ويعبر عن تطلعاتهم وآلامهم وآمالهم، ويعرض بالامتيازات الأجنبية وبأهل الحكم والسياسية الذين لا هم لهم إلا مصالحهم الذاتية وأغراضهم الشخصية، يقول في قصيدة ((من مجزوء الوافر)) .

سكت فأصغروا أدبي ... وقلت فأكبروا أربي

وما أرجوه من بلد ... به ضاق الرجاء وبي

وهل في (مصر) مفخرة ... سوى الألقاب والرتب

ويقول فيها:

أروني نصف مخترع ... أروني ربع محتسب[1]

أروني ناديا حفلا ... بأهل الفضل والأدب

وماذا في مدارسكم ... من التعليم والكتب ؟

(١) المحتسب : العالم بتصريف الأموال واستثمارها .

ومـــــــاذا في مـــــــــساجدكم مـــــن التبيــــان والخطـــــب ؟

ومـــــــاذا في صـــــــــحائفكم ســــوى التمويـــه والكـــذب ؟[1]

فالشاعر مسكون بغيرته على بني شعبه ومهموم بما هو عليه من حال سيئة مزرية، كما أنـه يندد بالألقاب والرتب الشائعة في مصر ، وبمن يحملونها، وفي الوقت نفسه ينعـى عـلى بنـي قومه خلـو أوسـاطهم مـن أهـل العلـم والاخـتراع والاحتـساب، ويخاطـب أئمـة المـساجد والصحافة المصرية التي هي عامرة بالكذب والتشكيك .

ولا شك أن ألفاظ هذه الأبيات وعباراتها تنم عن أسى وحزن لما هو عليه بنو قومه .

ويقول في قصيدة منتقدا وغامزا سياسة المستعمر المحتل (من مجزوء الكامل) :

(قـــصر الـــدبارة) قـــد نقـــضت العهــــد نقـــــض الغاصـــــب

أخفيـــــــت مـــــا أضـــــمرته وأبنـــــــت ود الـــــــصاحب

الحـــرب أروح للنفـــوس مـــــن الحيــــــــاد الكــــــاذب

فالحكام في قصر الدبارة نقضوا العهد شأنهم في ذلك شأن الغاصب، وأظهروا خلاف ما يضمرون، وهم في سياستهم هذه ، إعلان الحرب فيها أهون على الشعب من ادعـائهم الحيـاد الكاذب.

تبدو في هذه الأبيات لغة التذمر والضيق من سياسة المستعمر المحتل الذي يظهر خـلاف ما يضمر، يظهر ذلك في الألفاظ: نقـضت العهـد، نقـض الغاصـب، أخفيـت مـا أضـمرته، الحرب أهون للنفوس ، الحياد الكاذب.

---

(١) التمويه : الكذب والخداع.

وشاعر كحافظ إبراهيم يخرج من محيط وطنه فيستلهم الشعر من أحداث عصره العالمية، من مثل (غادة اليابان) التي تعمل بوحي من مبادئها وخدمة لوطنها وإذعانا لأوامر (الميكـاد) أي ((امبراطور اليابـان)) الـذي غـرس في نفـوس رعيتـه حـب المـوت والانـدفاع ذودا عـن الأوطان ، يقول في قصيدته بعنوان (غادة اليابان) (من الرمل) :

لا تلــــم كفـــي إذا الـــسيف نبـــا ... صـــح منـــي العـــزم والـــدهر أبـــى[1]

رب ســـــاع مبـــــصر في ســـــعيه ... أخطـــأ التوفيـــق فـــيما طلبـــا

يطلب الشاعر في هذين البيتين ممن يخاطبه ألا يلومه، فهو يعتذر عـما لحقـه مـن فـشل في سعيه رغم اجتهاده وإقدامه.

ويقول فيها:

مرحبــــا بالخطـــــب يبلـــــوني إذا ... كانـــــت العليـــــاء فيـــــه الـــــسببا

عقنــــي الـــــدهر ولــــولا أننــــي ... أوثـــر الحـــسنى عققـــت الأدبـــا[2]

إيـــه يـــا دنيـــا اعبـــسي أو فابـــسمي ... لا أرى برقـــــك إلا خلبـــــا[3]

بهذه الألفاظ الحزينة يرحب الشاعر بالخطوب التي تنزل في ساحته، غير مبـال بـصروف الدهر ونوائبه من مثل: الخطب يبلوني، عقني الدهر، اعبسي أو فابسمي .

ثم يتحدث في قصيدته هذه عن غادة اليابان، فيقول على لسانها :

---

(١) نبا السيف : أخطأ .

(٢) عقني : ظلمني .

(٣) خلبا : خداعا ومكرا .

أنـــــا يابانيـــــــة لا أنثنـــــــي ... عـــن مـــرادي أو أذوق العطبـــا[1]

أنـــــا إن لم أحــــسن الرمــــي ولمْ ... تــستطع كفــاي تقليــب الظبــا[2]

أخـــدم الجرحـــى وأقـــضي حقهـــم ... وأواسي في الـــوغى مـــن نكبـــا[3]

هكــــذا (الميكـــاد) قـــد علمنـــا ... أن نـــرى الأوطـــان أمـــا وأبـــا

في هذا المقطع من القصيدة يضمن الشاعر جواب غادة اليابان، حين سألها في أبيات سابقة من القصيدة ، فتجيبه: إنها فتاة يابانية مندفعة متحمسة في سبيل سمعة بلدها والذود عن حياضه ، إنها تخدم الوطن وبني بلدتها بكل ما تملك، فهي تواسي الجرحى، وتمسح الدمعة، وتبلسم جراح من جرح من اليابانيين.

وكأنني أنظر إلى حافظ إبراهيم وهو يرصد هذه المواقف وهذه المعاني من فتاة اليابان، بأنه ملتاع وحزين لواقع أمته، وكأنه يقول: لماذا لا نكون كأمة اليابان التي ضربت أروع الأمثال في الذود عن الأوطان .

ويقول في قصيدة بعنوان (ارتفاع الأسعار) ((من الخفيف)) :

أيهـــا المـــصلحون ضـــاق بنـــا العـــيش ولم تحـــسنوا علينـــا القيامـــا

عـــزت الـــسلعة الذليلـــة حتـــى ... بـات مـسح الحـذاء خطبـا جـساما[4]

(١) العطب: الهلاك.

(٢) الظبا: جمع ظباة ، شفرة السيف أو السكين .

(٣) أواسي: أداوي.

(٤) جسام: عظيم .

وغـــذا القـــوت في يـــد النـــاس كاليـــاقوت حتـــى نـــوى الفقـــير الـــصياما[1]

يقطـــع اليـــوم طاويـــا ولديـــه   دون ريـــح القتـــار ريـــح الخزامـــى[2]

ويخـــال الرغيـــف في البعـــد بـــدرا   ويظـــن اللحـــوم صـــيدا حرامـــا

إن أصـــاب الرغيـــف مـــن بعـــد كـــد   صـــاح مـــن لي بـــأن أصـــيب الإدامـــا[3]

يتوجه الشاعر في هذه الأبيات إلى المصلحين وأولي الأمر لافتا إلى الأزمة القاتلة التي يمر بها الناس جوعا وكدحا وغلاء أسعار.

ويلاحظ أن حافظ إبراهيم ماهر في اقتناص الألفاظ مما ورد في أشعار الأقدمين، كما هو في استخدامه للفظ ((طاويا)) وكأنه ينظر إلى قول الشاعر:

وطـاوى ثـلاث عاصـب الـبطن مرمـل   بيـداء لم يعـرف بهـا سـاكن رسـما

ويقول فيها:

أيهـــا المـــصلحون أصـــلحتم الأرض   وبـــتم عـــن النفـــوس نيامـــا

تـــؤثر المـــوت في ربـــوع النيـــل جوعـــا   وتـــرى العـــار أن تعـــاف المقامـــا

وبنـــو مـــصر في حمـــى النيـــل صرعـــى   يرقبـــون القـــضاء عامـــا فعامـــا[4]

(١) الياقوت من الحجارة الكريمة .

(٢) طاويا : جائعا .

(٣) الإدام : ما يؤكل .

(٤) صرعى: قتلى.

أيهـــا النيـــل كيـــف نمـــسي عطاشـــا   في بـــلاد رويـــت فيهـــا الأنامـــا[1]

يـــرد الواغـــل الغريـــب فـــيروى   وبنـــوك الكـــرام تـــشكو الأوامـــا[2]

يحث الشاعر في هذه الأبيات على إصلاح الأمور ووضع حد للفقر والغلاء، وجموع المصريين تتشبث بالأرض وتفضل الموت جوعا في ربا النيل ، وترى العار كل العار أن تعاف أو تكره الإقامة على أرض النيل. ويعجب الشاعر عجبا شديدا من أن يرى المصريين ظمأى في بلد ارتوى الناس عامة من ماء نيله، في الوقت الذي يرد فيه من يريد الشراب أو الطعام فيرتوي ، في حين يشكو أبناء المصريين من الظمأ والعطش الشديدين.

يعود الشاعر فيخاطب النيل متسائلا عن عطش المصريين وجوعهم في حين يكون النيل يغني أهل الأرض لو أحسن استغلاله.

ويقول فيها :

أيهـــا المـــصلحون رفقـــا بقـــوم   قيـــد العجـــز شـــيخهم والغلامـــا

وأغيثـــوا مـــن الغـــلاء نفوســـا   قـــد تمنـــت مـــع الغـــلاء الحمامـــا[3]

أوشـــكت تأكـــل الهبيـــد مـــن الفقـــر وكـــادت تـــذود عنـــه النعامـــا[4]

ضـــاق في مـــصر قـــسمنا فاعـــذرونا   إن حـــسدنا عـــلى الجـــلاء الـــشآما

(١) الأنام: الناس .

(٢) الأوام : الظمأ .

(٣) الحمام : الموت .

(٤) الهبيد : من أخس أنواع الطعام ، يقدم علفا للدواب .

قد شقينا – ونحن كرمنا الله – بعصر يكرم الأنعاما

الشاعر متأثر أشد التأثر في هذه الأبيات لما عليه المصريون من وضع سيء ، ويهيب بالمصلحين بأن يسارعوا لنجدة الشعب ويردوا عنه صولة الجوع ولدغ الفقر، وإن المتأمل في هذه الأبيات المستلة من قصيدة طويلة، يدرك أن الحزن والأسى والألم كلها معان سيطرت على ألفاظ الشاعر التي استخدمها للتعبير عن هذه المآسي، وذلك في قوله: ضاق بنا العيش، عزت السلعة الذليلة، بات مسح الحذاء خطبا جساما، غدا القوت في يد الناس كالياقوت ، نوى الفقير الصياما، يظن اللحوم صيدا حراما من لي بأن أصيب الإداما، تؤثر الموت جوعا، بنو مصر وحمي مصر جوعى ، كيف نمسي عطاشا ، نشكو الأواما .

وأقام جماعة من السوريين حفلا تكريميا لحافظ إبراهيم ، فجادت قريحته في هذه المناسبة بقصيدة حملت عنوان (لمصر أم لربوع الشام تنتسب) ((من البسيط)) .

يقول فيها :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب

ركنان للشرق لا زالت ربوعهما قلب الهلال عليها خافق يجب[1]

خدران للضاد لم تهتك ستورهما ولا تحول عن مغناهما الأدب[2]

ويقول:

(١) يجب: يرتعش ، يرتجف .

(٢) خدران : مسكنان – الضاد: اللغة العربية .

إذا ألمت بوادي النيل نازلة ... باتت لها راسيات الشام تضطرب[1]

لو أخلص النيل والأردن ودهما ... تصافحت منهما الأمواه والعشب

ويقول:

لولا رجال تغالوا في سياستهم ... منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا[2]

إن يكتبوا لي ذنبا في مودتهم ... فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

بهذه اللغة يجسد الشاعر الوحدة بين مصر والشام، وكأنه يستشرف المستقبل، فقد تمت الوحدة بينهما في النصف الأول من القرن العشرين بعد وفاة الشاعر، ولكنها لم تدم طويلا . وهو يرى أن هذه الوحدة حتمية؛ لأنهما جمعا المجد من أطراف، على ومجدا ، ولغة وأدبا .

ثم نراه يمد يده مصافحا يد أبناء الشام، بل يد العرب جميعا ، داعيا إلى وحدة العرب، بالرغم من دعوة الداعين إلى الفرقة والانقسام. ويرى أن الساسة في بلاد الشام ومصر غالوا في سياستهم ، ولولا هذه المغالاة لما لمناهم ولا عتبوا علينا ، ويقول إنني أقبل التهمة في مودتي لأبناء الشام ويحسبونها لي ذنبا، فأنا لي عظيم الفخر في هذا الذنب.

يبدو في هذه الأبيات الحس القومي المرهف عند حافظ إبراهيم ، على الرغم مما يبرز فيها من معاني التألم والتوجع والحزن لفرقة العرب وتباعدهم عن بعضهم البعض، يبرز ذلك من خلال اللغة المستخدمة للتعبير عن هذه المعاني ، مثل قوله : يجب ، ألمت ، نازلة، تضطرب، تغالوا، لمنا، عتبوا، ذنبا .

---

(١) راسيات الشام: جبالها، تضطرب : تهتز، تتحرك .

(٢) تغالوا: بالغوا ، تمادوا .

وإن ما عرضناه من شعر فيما تقدم، إنما جئنا به كشاهد على ما ذهبنا إليه من أن حافظ إبراهيم كان شاعرا وطنيا قوميا ، ولا داعي للاسترسال في عرض مزيد من هذه النماذج ، فحسبنا ما عرضناه .

٢- المقاومات والمنددات بالاستعمار والمستعمرين :

اكتوى حافظ إبراهيم كما اكتوى الشعب المصري بنار ظلم المحتلين المستعمرين، وعانى كما عانى الشعب المصري من وطأة حكم الانتداب المحتل الذي كانت تقوم سياسيته على الاستبداد والطغيان وينطلق من مبدأ ، فرق تسد ، فهب حافظ إبراهيم مدافعا عن وطنه وأبنائه، مهيبا بهم إلى التنبه واليقظة، وعدم الركون إلى وعوده الكاذبة وكلامه المعسول.. وقد جسد هذا الأمر والأوضاع التي يعيشها والشعب المصري في كثير من قصائده التي نظمها في هذا الشأن .

نقتطف بعضا من شعره الذي قاله في هذا الجانب :

يقول في قصيدة قالها في السير (غورست) عميد الدولة الإنجليزية وقد جاء إلى مصر خلفا للورد (كرومر) سنة ١٩٠٧ (من الوافر):

بنات الشعر بالنفحات جودي   فهذا يوم شاعرك المجيد[١]

وحلي عقدة من أصغريه   يلن لهتافه قاسي الحديد[٢]

(١) بنات الشعر: ألفاظه وقوافيه ومعانيه.

(٢) الأصغران : القلب واللسان .

فـــما أنـــا واقـــف برســـوم دار أســـائلها ولا كلـــف بـــرود[1]

ولكنـــي وقفـــت أنـــوح نوحـــا عـــلى قـــومي وأهتـــف بالتـــشيد

وأدفـــع عنهـــا بـــشبا يـــراع يـــصول بكـــل قافيـــة شرود[2]

بنـــات الـــشعر إن هـــي أســـعدتني شـــكوت مـــن العميـــد إلى العميـــد

يخاطب الشاعر في هذه الأبيات بنات الشعر التي هي ألفاظه وقوافيه ومعانيه بأن تسعفه للقول من أجل مصر وشعب مصر، وهو لا يقف مخاطبا أطلال دار درست. ولا يتغزل بفتاة غادة حسناء كما كان يفعل القدامى من شعراء العربية، إنما يقف باكيا نائحا نادبا حال قومه، وهو لا يملك من السلاح سوى يراع قلمه، يصول به مدافعا عنهم باثا شكوا هم، فيشكو إلى العميد الجديد ما كان فعله سلفه العميد السابق وهو لا ينكر فضله البتة ، بل يغمز من قناته .

ومن الملاحظ أن الشاعر يستخدم ألفاظا وتعابير ذكرها الشعراء القدامى في قصائدهم كقوله: فما أنا واقف برسوم دار ...... وكأنه ينظر إلى قول الشاعر القديم النابغة الذهيباني :

وقفـــت فيهـــا أصـــيلانا أســـائلها عيـت جوابـا ومـا بالـدار مـن أحـد

ويقول في هذه القصيدة :

جـــراح في النفـــوس نغـــرن نغـــرا وكـــن قـــد انـــدملن عـــلى صـــديد[3]

(١) الرود: الفتاة الغادة الحسناء .

(٢) اليراع: القلم، وشباه : حده وطرفه .

(٣) نغرن : سالتا دما وقيحا ، اندملن : برئن وشفين .

إذا مــا هــاجهن أســى جديــد ... هــتكن سرائــر القلــب الجليــد[1]

فأجسام المصريين لم تجرح ، وإنما جرحت نفوسهم فكانت أكثر تألما، وقد سالت دما وقيحا وهذه الجراح لم تشف منها النفوس حقيقة، ولكنها رمت على إهمال وفساد، وكأن حافظ إبراهيم ينظر إلى قول المتنبي :

إذا مــا الجــرح رم عــلى فــساد ... تبــين فيــه إهمــال الطبيــب

ويقول فيها :

فليــت (كرومــرا) قــد دام فينــا ... يطــوق بالــسلاسل كــل جيــد[2]

ويتحــف (مــصر) آنــا بعــد آن ... بمجلــود ومقتــول شــهيد

لننــزع هــذه الأكفــان عنــا ... ونبعــث في العــوالم مــن جديــد

رمــى (دار المعــارف) بالرزايــا ... وجــاء بكــل جبــار عنيــد[3]

يــدل بحولــه ويتيــه تيهــا ... ويعبــث بــالنهى عبــث الوليــد[4]

فبــدد شــملها وأدال منهــا ... وصــاح بهــا : ســبيلك أن تبيــدي

يتألم الشاعر في هذه الأبيات من أفعال (كرومر) في مصر ، وينحي عليه باللائمة، فقد عاث في مصر فسادا عم البلاد، وقتلا طال الكثير من العباد، ونهبا أتى على الخيرات، وقضاء

---

(١) هتكن : شققن ، الجليد : الصلب .

(٢) الجيد : العنق .

(٣) الرزايا : جميع رزية وهي المصيبة.

(٤) الوليد: اسم الخليفة الأموي العابث المستهتر بالقيم والدين.

أمات المعارف والحضارات، ثم يستحث المصريين على النهوض من كبوتهم، وخلع أكفان الحزن والبدء بعهد جديد، يعيد ماضيهم المجيد، ويثبت فيه المصريون وجودهم الفعال في عالم الكون .

ثم يقول مخاطبا العميد الجديد :

أرى أحداثكم ملكوا علينا ... (بمصر) موارد العيش الرغيد[1]

وقد ضقنا بهم وأبيك ذرعا ... وضاق بحملهم ذرع البريد

أكل موظف منكم قدير ... على التشريع في ظل العميد ؟

فضع حدا لهم وانظر إلينا ... إذا أنصفتنا نظر الودود

وخبرهم وأنت بنا خبير ... بأن الذل شنشنة العبيد[2]

وأن نفوس هذا الخلق تأبى ... لغير إلهها ذل السجود

فالشاعر مستاء عن سياسة العميد الجديد الذي أمر الأحداث والصبية من الموظفين على المصريين، ويطالبه بأن يضع حدا لهذا الصنع المشين، وأن يعلمهم بأن الذل لا يقبله إلا العبيد، وإن نفوس المصريين أبية عزيزة لا تقبل الذل والهوان ولا تسجد لغير الله الخالق الديان :

ويقول فيها :

إذا ما ناح (أسوان) باك ... سمعت أنين شاك في (رشيد)

جميع الناس في البلوى سواء ... بأدنى الثغر أو أعلى الصعيد

(١) الأحداث: الصغار السن .

(٢) شنشنة العبيد: ما اعتادوا عليه من رطانة .

يتحدث الشاعر في هذين البيتين عن تماسك المصريين ومشاعرهم الموحدة. فإذا ما ناح باك في ناحية من مصر سمعت لها صدى أنين أخرى منها، فهم موحدون متماسكون في ثغورهم وأعلى صعيدهم.

ويقول فيها:

أجئت تحوطنا وترد عنا وترفعنا إلى أوج السعود ؟

أم (اللرد) الذي أنحى علينا أتى في ثوب معتمد جديد ؟

يتساءل الشاعر عن مهمة العميد الجديد، قائلا له: أجئت لرعايتنا ورفع شأننا؟ أم أنك جئت تلبس ثوب سلفك الذي لاقينا على يديه كل شقاء وعناء ؟ فكنتما وجهين لعملة واحدة.

لقد طال نفس الشاعر في هذه القصيدة، فبلغت أبياتها سبعة وستين بيتا، ولا غرو في ذلك، فحافظ ابن الشعب، عاش مع الشعب، واصطلى بنار سياسة الإنجليز الجائرة، فكانت لقريحته هذا الدفق من التعبير والتصوير، مستخدما الألفاظ والعبارات التي تحمل الكثير الكثير من معاني الأسى والألم مما حل بالمصريين، نتيجة سياسة المستعمر الظالمة والتي أهلكت الزرع والضرع وأتت على الحجر والبشر، كل ذلك جسده الشاعر في ألفاظه وعباراته ، من مثل : ما أنا واقف برسوم، ولا كلف برود، أنوح نوحا، جراح في النفوس، نغرن نغرن، اندملن على صديد، هاجهن رأسى جديد، يطوق بالسلاسل كل جيد، مجلود ومقتول شهيد ، لننزع الأكفان، الرزايا، ضقنا ذرعا، شنشنة العبيد، ناح باك، سمعت أنين شاك، البلوي .... فكلها ألفاظ وتعابير متألمة باكية نائحة .

لقد كان حافظ إبراهيم لسان حال شعبه، وسفير بني أمته، يتألم لما يلحق بهم من أذى، ويتفطر قلبه حزنا على وطنه الذي عاث فيه الاستعمار الفساد ومارس فيه الاعتداء على المواطنين وإذلالهم. فهاهو يقول في قصيدة نظمها إثر حادثة (دنشواي)[1] التي وقعت فيها المصادمات بين أهالي (دنشواي) والإنجليز، إثر تعرض بضعة ضباط إنجليز للاعتداء ، مما اضطر الحكومة البريطانية ممثلة باللورد (كرومر) إلى الرد على شبان المواطنين في (دنشواي) فحكمت على عدد منهم بالقتل، أو بالسجن ، أو بالجلد، والقصيدة من (البحر الخفيف) :

أيها القائمون بالأمر فينا ... هل نسيتم ولاءنا والودادا

خفضوا جيشكم وناموا هنيئا ... وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا[2]

وإذا أعوزتكم ذات طوق ... بين تلك الربا فصيدوا العبادا[3]

إنما نحن والحمام سواء ... لم تغادر أطواقنا الأجيادا[4]

لا تظنوا بنا العقوق ولكن ... أرشدونا إذا ضللنا الرشادا[5]

جاء جهالنا بأمر وجئتم ... ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا

---

(١) دنشواي : اسم قرية تقع في الصعيد المصري .

(٢) جوبوا : تجولوا وانتشروا .

(٣) أعوزتكم : أعجزتكم، ذات طوق : الحمامة ، وكما هو معلوم فإن سبب حادثة دنشواي كان اصطياد الحمام من قبل ضباط الانجليز.

(٤) الأجياد : الرقاب والأعناق .

(٥) العقوق : الجحود .

يخاطب الشاعر الانجليز القائمين على أمر المصريين بأن يحسنوا السياسة ويطبقوا العدالة فلا يأخذوا البريء بالمجرم، ويقول لهم لا داعي لحشد جيوشكم فالأمور كلها بين أيديكم فأنتم الحكام، وإذا لم تتمكنوا من صيد الحمام في ربوع مصر تحولوا إلى صيد العباد .

ويقول فيها:

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أقصاصا أردتم أم كيادا ؟[1]

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أنفوسا أصبتم أم جمادا ؟

ليت شعري أتلك (محكمة التفتيش) عادت أم عهد (نيرون) عادا ؟

كيف يحلو من القوي التشفي ... من ضعيف ألقى إليه القيادا؟[2]

إنها مثلة تشف عن الغيظ ولسنا لغيظكم أندادا[3]

أكرمونا بأرضنا حيث كنتم ... إنما يكرم الجواد الجوادا

إن عشرين حجة بعد خمس ... علمتنا السكون مهما تمادى[4]

أمة النيل أكبرت أن تعادي ... من رماها وأشفقت أن تعادى

ليس فيها إلا كلام وإلا ... حسرة بعد حسرة تتهادى

(١) ضننتم : بخلتم .

(٢) التشفي الانتقام الذي يعقبه سرور المتشفي .

(٣) المثلة : التنكيل بالضحية أو القتيل .

(٤) الحجة : السنة، تمادى : طال وامتد .

بهذه الصياغة القوية الرائعة يندد الشاعر بسياسة الإنجليز الجائرة، طالبا إليهم أن يحسنوا العقاب ويعدلوا في الحكم، لكنهم كانوا جائرين في الحكم الذي صدر على شبان بلدة (ونشواي) بالقتل، وهذا مما يعيد ذاكرة الزمن إلى الوراء، لتذكر الأذهان أيام محاكم التفتيش في أوروبا، وأيام محاكمات (نيرون) الإمبراطور الروماني ، الطاغية ، ويخاطب الإنجليز طالبا إليهم أن يحسنوا القتل إن بخلوا بالعفو وأن يبتعدوا عن التعذيب، قائلا لهم أكنتم تنوون القصاص، أم أضمرتم الكيد والضغينة ؟ وأكنتم تعاقبون نفوسا بشرية أم جمادات حجرية؟ كيف يحلو للقوي التشفي بالضعيف؟ سلم إليه أمره وامتثل لأوامره، حقا إنها جريمة العصر التي تحكي غيظكم وحقدكم ونحن لسنا بأنداد لكم، كان عليكم أن تكرمونا في بلادنا ، فالكريم يكرم الكريم، فيملكه، واللئيم يخذل الكريم إذا أكرمه . ويتأسى الشاعر على استمرار الاحتلال والاستعمار لأرض النيل، وأن مصر أم الحضارات والاستقرار والحكمة، فمن العار على بريطانيا أن تعيث في هذه البلاد التي ما عرف عنها إلا العدل والتسامح، لا العداء والنفور، ثم يتوجه إلى المدعي العمومي، القاضي المصري الذي كان ألعوبة في أيدي الإنجليز، فنفذ أوامرهم بالحكم بالإعدام على المصريين، يقول حافظ إبراهيم في ذلك :

أيها المدعي العمومي مهلا ... بعض هذا فقد بلغت المرادا

قد ضمنا لك القضاء بمصر ... وضمنا لنجلك الإسعادا

فإذا ما جلست للحكم فاذكر ... عهد (مصر) فقد شفيت الفؤادا

لا جرى النيل في نواحيك يا (مصر) ولا جادك الحيا حيث جادا[1]

(١) الحيا : المطر .

أنت أنبت ذلك النبت يا (مصر) فأضحى عليك شوكا قتدا[1]

أنت أنبت ناعقا قام بالأمس فأدمى القلوب والأكبادا[2]

إيه يا مدره القضاء ويا من ساد في غفلة الزمان وشادا[3]

أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا[4]

تبدو في هذه الأبيات سورة غضب الشاعر على المدعي العمومي الذي حكم بالإعدام على الشباب المصريين بإيعاز من الإنجليز، فقد كان ظالما متآمرا في حكمه هذا وكان مثالا للعقوق والجحود والنكران لمصر وللمصريين، وفي الوقت نفسه ينحى باللائمة على المصريين فهم الذين أوجدوا مثل هؤلاء القضاة والحكام المستبدين؛ نتيجة إذعانهم وسكوتهم على وجود الاستعمار والاحتلال على أرض بلادهم، ويلوم المصريين على تنصيب مثل هذا القاضي، الذي هو بمثابة غراب لا ينعق إلا على خراب ودمار ويذكره بأنه هو الآن جلاد المصريين، لكن عليه ألا ينسى بأنه في قضائه هذا أورث المصريين الحزن، ولبسوا على يديه ثياب الحسرة والألم حدادا على قتلاهم.

وتبدو لغة الحزن في هذه الأبيات والأبيات التي سبقتها واضحة جلية متمثلة في ألفاظ الشاعر وعباراته من مثل: ابتغوا صيدكم، جوبوا البلادا، فصيدوا العبادا، إنما نحن والحمام سواء، لم تغادر أطواقنا الأجيادا، ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا، أحسنوا القتل، أقصاصا

(١) القتاد : الشوك .

(٢) الناعق : الزاعق بالخراب .

(٣) المدره : المفوه .

(٤) الحداد : الحزن .

أردتم أم كيادا؟ أنفوسا أصبتم أم جمادا؟ محكمة التفتيش عادت، عهد نيرون عادا، التشفي من ضعيف ألقى إليه القيادا، إنها مثلة، تشف عن الغيظ، علمنا السكون مهما تمادى، حسرة بعد حسرة تتهاوى، شفيت الفؤادا، لا جرى النيل في نواصيك يا مصر، فأضحى عليك شوكا قتادا، أنبت ناعقا، فأدمى القلوب والأكبادا، أنت جلادنا، لبسنا على يديك الحدادا .

ويقول في قصيدة منددا بسياسة الإنجليز (من الطويل):

بنيتم على الأخلاق أساس ملككم ... فكان لكم بين الشعوب ذمام[1]

فما لي أرى الأخلاق قد شاب قرنها ... وحل بها ضعف ودب سقام[2]

أخاف عليكم عثرة بعد نهضة ... فليس للملك الظالمين دوام

أضعتم ودادا لو رعيتم عهوده ... لما قام بين الأمتين خصام

إذا كان في حسن التفاهم موتنا ... فليس على باغي الحياة ملام

يندد الشاعر في هذه الأبيات تنديدا مؤدبا ومهذبا بسياسة الإنجليز، فيذكرهم بأن سياسة العدل والأخلاق التي عرفوا بها في بادئ الأمر، سرعان ما انقلبت إلى قهر وظلم، وفساد، ويلفت نظرهم إلى أن دوام الحال من المحال فلربما لحقتهم عثرة بعد نهضة، لأن ظلم الظالمين إلى زوال وإن طال ليله وظلمته، ويقول لهم: تنكرتم لوداد المصريين فكان ذلك سببا في ظهور المشاكل والخصومات، وإذا كان طلبنا في أن يكون حسن التفاهم هو أساس تعاملنا وكان فيه موتنا، فحينئذ ليس على من يطلب الحياة الكريمة أي لوم أو مأخذ.

---

(١) الذمام : العهود .

(٢) السقام : المرض والداء .

تبدو في هذه الأبيات لغة الشاعر الحزينة بأسلوب غير مباشر، كاستخدامه للألفاظ والعبارات من مثل : حل بها ضعف، ودب سقام، لما قام بين الأمتين خصام، موتنا، ليس على باغي الحياة ملام....

ويقول في قصيدة يشكو فيها الاحتلال الإنجليزي (من الطويل):

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت — حواشيه حتى بات ظلما منظما[1]

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى — وأن أصبح المصري حرا منعما[2]

أعد عهد (اسماعيل) جلدا وسخرة — فإني رأيت المن أنكى وآلما[3]

يعرض الشاعر بالحاكم الإنجليزي ويغمر سياسته، حيث راح يمض ظلما، ما جعل المصريين يتذكرون عهد الخديوي اسماعيل الذي اتسم بالقسوة والعبودية والسخرة .

ويقول فيها :

عملتم على عز الجماد وذلنا — فأعليتم طينا وأرخصتم دما

إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها — فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما[4]

نهش إلى الدينار حتى إذا مشى — به ربه للسوق ألفاه درهما[5]

---

(١) حواشيه: أطرافه ، نواحيه .

(٢) تمن علينا : إشارة إلى الحاكم الإنجليزي .

(٣) المن: التذكير بالفضل والعطية.

(٤) جادها: أمطرها .

(٥) نهش : نبسم : ألفاه : وجده .

فـلا تحـسبوا في وفـرة المـال – لم تفـد متاعـا ولم تعـصم مـن الفقـر – مغـنما[١]

فـإن كثـير المـال –والخفـض وارف – قليـل إذا حـل الغـلاء وخـيما[٢]

يغمز الشاعر ثانية في هذه الأبيات من سياسة الحاكم الإنجليزي، ثائرا في وجهه ووجه أسياده وعملائه، مدافعا عن عزة المصريين وكرامتهم في وجه الاستعمار والاستغلال، ويقول: لقد كان عمل الاحتلال الإعلاء من شأن الجهاد وإذلال المصريين وإرخاص دمائهم، وإذا أخصبت أرض مصر ولحق أهلها الجدب والفقر فإني أسأل الله ألا تجود السماء على أرضها بالماء ، ويرى أن المال الوفير الذي تدره أرض مصر يذهب إلى جيوب المحتلين، ولم يكن له أي أثر في طرد الفقر وجلب المسرة .

ولغة الحزن في هذه الأبيات واضحة وتتمثل في الألفاظ والعبارات التي استخدمها الشاعر من مثل : فينا الظلم فوضى، تمن علينا، أعد عهد (اسماعيل)، جلدا وسخرة. رأيت المن أنكى وآلما ، عملتم على عز الجهاد وذلنا . أعليتم طينا وأرخصتم دما، أجدب أهلها ، فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما، ألفاه درهما ، ولم تعصم الفقر، حل الغلاء وخيما .

ويقول في قصيدة منددا بسياسة الإنجليز ومهددا (من الخفيف) :

حولـوا النيـل واحجبـوا الـضوء عنـا واطمـسوا الـنجم واحرمونـا النـسيما[٣]

وأقيمـــوا للعـــسف في كـــل شـــبر (كنـستبلا) بالـسوط يفـري الأديـما[٤]

(١) تعصم : تحفظ .

(٢) الخفض : ضد الغلاء ، وهو اليسر والبحبوحة، خيم : سيطر وبسط نفوذه .

(٣) اطمسوا : امحوا .

(٤) العسف : الظلم ، الأديم : الجلد .

إننا لن نحول عن مصر أو ترونا في الترب عظما رميا[1]

نشتم في هذه الأبيات رائحة التهديد والتنديد بسياسة الإنجليز، فمهما قاموا به من ظلم واستعباد فإنهم لن يستطيعوا أن يثنوا من عزيمة المصريين وإرادتهم.

ويقول فيها :

فشهدنا ظلما يقال له العدل وودا يسقي الحميم الحميما[2]

فاتقوا غضبة العواصف إني قد رأيت المصير أمسى وخيما[3]

يقول لقد شهدنا على أيديكم الظلم والاستبداد ، وإن أسميتموه عدلا ، وزعمتم ودنا، وكان نارا سقاه للصديق الوفي القريب.

الألفاظ التي استخدمها الشاعر في هذه الأبيات المستلة من القصيدة تحكي معاني الحزن والأسى وذلك من مثل قوله : حولوا النيل، احجبوا الضوء، اطمسوا النجم، احرمونا النسيما، أقيموا العسف، يفري الأديما، ترونا في الترب عظما رميما، شهدنا ظلما يقال له العدل، يسقي الحميم الحميما، غضبة العواصف ، أمسى وخيما ....

ويقول في بيتين منتقدا سياسة الإنجليز الحيادية (من الكامل) :

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم فمصابكم ومصابنا سيان[4]

---

(١) رميما : باليا .

(٢) الحميم الأولى : الصديق الوفي القريب ، والحميم الثانية : النار .

(٣) وخيما : سيئا .

(٤) سيان : واحد .

حـــاربتم أخلاقكـــم لتحـــاربوا أخلاقنـــا فتـــألم الـــشعبان

ويسخر الشاعر من سياسة حياد الإنجليز، هي في نظره كاذبة .

ألفاظ التألم واضحة في البيتين في قوله: فمصابكم ومصابنا، فتألم الشعبان .

ويقول في قصيدة في السير (مكمهون الإنجليزي) لما عين مفوضا عاما للإنجليز لـدى مصر سنة ١٩١٥ (من مجزوء الكامل) :

أي (مكمهـــون) قـــدمت بالقـــصد الحميـــد وبالرعايـــه

مـــاذا حملـــت لنـــا عـــن الملـــك الكبـــير وعـــن (غرايـــه) ؟

أوضـــح (لمـــصر) الفـــرق مـــا بـــين الـــسيادة والحمايـــه

وأزل شـــكوكا بـــالنفوس تعلقـــت منـــذ البدايـــة

ودع الوعـــود فإنهـــا فـــيما مـــضى كانـــت روايـــه

يحذر الشاعر السير (مكمهون) من مغبـة سياسـة الوعـود الكاذبـة والمماطلـة التـي دأب عليها الإنجليز، وفي الوقت نفسه يسأل عما يحمله عن ملك بريطانيا ووزير خارجيتهـا آنـذاك (إدوار غرايه) ، كما يطالبه بتبديد الشكوك التي ساورت المصريين منذ تعيينه مفوضا في مصر.

ويقول فيها :

أضـــحت ربـــوع النيـــل ســـلطنة وقـــد كانـــت ولايـــه

فتعهـــدوها بالـــصلاح وأحـــسنوا فيهـــا الوصـــايه

إنـــا لنـــشكو واثقـــين بعـــدل مـــن يـــشكي الـــشكايه

نرجـــو حيـــاة حـــرة مـــضمونة في ظـــل رايـــه

ونروم تعليما يكون له من الفوضى وقايه

ونود ألا تسمعوا فينا السعاية والوشايه

يحث الشاعر حافظ إبراهيم السير (مكمهون) على أن ينهج سياسة صادقة، تعمل على توطيد أركان البلاد وترسي قواعد الإصلاح والبناء والحرية والكرامة ، وتصون العلم وأهله.

ويقول فيها:

أنتم أطباء الشعوب وأنبل الأقوام غايه

أنى حللتم في البلاد لكم من الإصلاح آيه

وعدلتم فملكتم الدنيا وفي العدل الكفايه

إن تنصروا المستضعفين فنحن أضعفهم نكايه

أو تعملوا لصلاحنا فتداركوه إلى النهايه

إنا بلغنا رشدنا والرشد تسبقه الغوايه

لا تأخذونا بالكلام فليس في الشكوى جنايه

هذا (حسين) فوق عرش (النيل) تحرسه العنايه

هو خير من يبنى لنا فدعوه ينهض بالبنايه

يطري الشاعر في هذه الأبيات على بريطانيا وعظمتها ومكانتها بين الدول، وبعد لها وسياستها الحكيمة، ولكن يتمنى الشاعر وأبناء مصر جميعا أن تكون بريطانيا وفية لمبادئها وأن تكون صادقة في وعودها، وأن تؤازر زعيم مصر ومليكها (حسين كامل) فهو وحده الذي يستحق أن يحكم مصر وتصدر عنه الأحكام والقوانين.

ولا يخفى على المتأمل في هـذه الأبيـات أن الـشاعر متـوجس ومتخـوف مـن أن تـستمر سياسة الإنجليز ذات الوعود الكاذبة، كما أن الشاعر يأمـل أن يعـيش المـصريون عيـشة حـرة كريمة في ظل راية واحدة، وأن ينالوا حظهم من التعليم ليطردوا به الفـوضى، ويحمـيهم مـن براثن الجهل والتخلف، كما أنه يثني عـلى البريطـانيين مـن أنهـم أطبـاء الـشعوب، يـداوون أمراضها، ويشفون أسقامها أينما حلوا وأينما كانوا، كما أنهم يعملون على إشاعة العدل ونصرة المستضعفين، ويطلب منهم أن يعطـوا للمـصريين حـريتهم ويـسندوا أمـر إدارة بلادهـم إلى زعمائهم وحكامهم الوطنيين..

ولا شك أن مثل هذا الإطراء من الشاعر للإنجليز هو من قبيل المدح المبطن؛ لأنـه سـبق أن اتهمهم بالعمل على تجهيل الشعوب وقهرها بظلمهم واستبدادهم .

وقد استخدم الشاعر ألفاظا تنم عن الأمل والخوف في آن واحد وذلك مـن مثـل قولـه: ماذا حملت لنا؟ الفرق بـين الـسيادة والحمايـة، أزل شـكوكا، دع الوعـود، كانـت روايـة، إنـا لنشكو، بعدل من يشكي الشكاية، نرجو حياة حرة ، ونـروم تعليما يكـون لـه مـن الفـوضى وقاية، ألا تسمعوا فينا السعاية والوشاية، أنتم أطباء الشعوب، إن تنصروا المستضعفين، نحن أضعفهم، نكاية، فليس في الشكوى جناية .

٣- المنوهات والداعمات لدور (رعاية الأطفال) .

حافظ إبراهيم شاعر الشعب، ابن مصر الكادح، القريب مـن طبقـة الفقـراء المحـرومين والمعوزين المشردين، تحزنه أناتهم، وتؤلمه أوجاعهم، وتبكيه حسراتهم، جـسد هـذه المعـاني في شعره الاجتماعي، وعبر عنها أصدق تعبير، لأنها كانت تعتلج في قلبه، وتذيب حشاشة نفسه،

فها هو يقول في قصيدة يتحدث فيها باسم يتيم كانت قد كفلتـه الجمعيـة وربتـه ورعتـه (مـن مجزوء الكامل) .

قـــضيت عهـــد حـــداثتي ... مـــا بـــين ذل واغـــتراب

لم يغـــن عنـــي بـــين مـــشرقها ومغربهـــا اضـــطراب

صـــفرت يـــدي فخـــوى لهـــا ... رأسي وجـــوفي والوطـــاب[1]

وأنـــا بـــن عـــشر لـــيس في ... طـــوقي مكافحـــة الـــصعاب[2]

لم يبـــق مـــن أهـــلي ســـوى ... ذكـــر تناســـاه الـــصحاب

يتحدث اليتيم في هذه الأبيات عن طفولته ذليلا مغتربا، فقيرا، بائسا، يتيما ضائعا، غـض الإيهاب لا يقوى على مواجهة الصعاب ولما يبلغ العاشرة من عمره، وقبل أن يبسم له الـدهر، ويتلقفه المسؤولون عن الجمعية الخيرية فيبروه ويحسنوا إليه. ولغة الحـزن والأسـى ظـاهرة في ألفاظ هذه الأبيات وتراكيبها من مثل قوله: ما بين ذل واغتراب، صـفرت يـدي، فخـوى لهـا رأسي وجوفي والوطاب، لم يبق من أهلي سوى ذكر، تناساه الصحاب .

ويقول فيها :

أمـــشي يرنحنـــي الأســـى ... والبـــؤس تـــرنيح الـــشراب[3]

(١) صفرت يدي أي كانت فارغة، الوطاب: سقاء اللبن .

(٢) طوقي : قدرتي ، استطاعتي .

(٣) يرنحني: يجعلني أترنح وأتمايل.

فلكـــــم ظللـــت عـــلى طـــوى ... يـــومي وبـــت عـــلى تبـــاب[1]

والجـــــوع فـــــراس لــــــه ... ظفـــر يـــصول بــــه ونــــاب[2]

فكأنـــــــــه في مهجتـــــــــي ... نـــصل تغلغـــل للنـــــصاب

فـــــإذا ظفـــــرت بكـــــسرة ... فإدامهـــــا منـــــي لعـــــاب[3]

وعـــــلي طمـــــر لوهفـــــت ... ريـــح الـــشمال بـــه لـــذاب[4]

فخروقـــــــــه ومـــــــــصابي ... في العـــد يخطئهـــا الحـــساب

مـــا زلـــت أوســـع محنتـــي ... صـــبرا واحتمـــل العـــذاب

حتـــى تـــنفس صـــبح إقبـــالي ... ونجـــم الـــنحس غـــاب

فتلقفتنــــــــي فتيــــــــة رحــــــــب الــــــــشمائل والجنــــــــاب[5]

مهـــــدوا لأنفـــــسهم بـــــما ... صـــنعوه زلفـــى واحتـــساب[6]

كـــم أسرة ضـــاق الرجـــاء بهـــا وأعياهـــا الطـــلاب[7]

(١) الطوى: الجوع. تباب: هلاك.

(٢) يصول: يهجم. فراس: شديد الافتراس .

(٣) الإدام: ما يؤخذ مع الخبز من الطعام.

(٤) الطمر: الثوب الرث.

(٥) رحب الشمائل: ذوو صفات كريمة حسنة.

(٦) زلفى: قربى.

(٧) أعياها: أعجزها.

دقـــــوا عليهـــــا بابهـــــا والليـــل مـــسدول النقـــاب[1]

وتعاهـــــدوها مـــــثلما يتعاهـــد النبـــت الـــسحاب

يستمر الشاعر في الحديث عن هذا اليتيم فيصوره في مشهد مـؤلم. إنـه يمـشي هـائما عـلى وجهه مترنحا ترنيح الثمل، يقضي يومه على جوع، ويبيت على هلاك، والجوع حيوان مفترس سلاحه الأظفار والأنياب يصول بها على فريـسته، وقـد تغلغـل الجـوع فنفـذ إلى قلبـه حتـى النصاب، وإذا ما ظفر هذا اليتيم بكسرة من الخبز الجـاف كـان إدامهـا لعابـه، ويلـبس اليتـيم أطمارا بالية إذا ما مر بها ريح الشمال أطارها وأذابها، وهي ممزقة كثيرة الخروق تـشكل مـع مـا يعانيه من مصائب كما يخطئ من يحاول تعداده أو حسابه، ولكنه كـان يلـوذ بالـصبر ويحتمـل العذاب، وما بعد الضيق إلا الفرج، وإن بعد العـسر يـسرا، فيتـنفس صـبحه ويقبـل سـعده، ويغيب نجم نحسه، فإذا بفتية ذوي شمائل طيبة وصفات رحبـة حـسنة يتلقفونـه ويتعهدونـه تقربا إلى الله –سبحانه– واحتسابا له، فهؤلاء الفتية يسارعون إلى إغاثـة الأسر المعـوزة والتـي ضاقت بها الدنيا واسودت أيامها.

وقد صور الشاعر مشهد هذا اليتيم تمهيدا للثناء على ما قامت به الجمعية لجهـة تقـديمها العون للأسر الفقيرة المعوزة.

والأبيات السابقة تفيض بمعاني الحـزن والأسـى واللوعـة وقـد جـسدتها لغـة الـشاعر المتمثلة في ألفاظه وتراكيبه من مثل قوله: أمشي يرنحني الأسى والبؤس، ظللت عـلى طـوى، بت على تباب، الجوع فراس، نصل تغلغل للنصاب، ظفرت بكسرة، فإدامها مني لعاب، عـلي

(١) مسدول النقاب: حالك شديد الظلمة.

طمر، فخروقه ومصائبي يخطئها الحساب، أوسع محنتي، واحتمل العذاب، كم أسرة ضاق الرجاء بها، والليل مسدول النقاب.

ويقول فيها :

(جمعيـــــــــة خيريـــــــــة) قامـــــت لتخفيـــــف المـــــصاب
قـــــد كـــــان فيهـــــا (عبـــــده) عونـــــا يلبـــــي مـــــن أهـــــاب
لم يـــــدع مـــــسماحا إلى إنعاشـــــها إلا أجـــــاب
مـــــا غـــــاب عنهـــــا مـــــرة حتـــــى تغيـــــب في الـــــتراب

يثني الشاعر في هذه الأبيات على صنيع الشيخ (محمد عبده) وحسن رعايته للجمعية، وحثه المحسنين على التبرع بالمال للجمعية، الذين كانوا يسارعون إلى إنعاشها ومساعدتها على تقديم العون لكل محتاج ملتاع، ويذكر أن الشيخ (محمد عبده) كان دائم التواجد والحضور في هذه الجمعية، ولم يغب عنها إلى أن مات وغيبه التراب.

ويقول في قصيدة بمناسبة حفل أقيم تكريما لجمعية رعاية الأطفال (من مجزوء الكامل):

هـــــذا صـــــبي هـــــائم تحـــــت الظـــــلام هيـــــام حـــــائر[1]
أبـــــلى الـــــشقاء جديـــــده وتقلمـــــت منـــــه الأظـــــافر
فـــــانظر إلى أســـــماله لم يبـــــق منهـــــا مـــــا يظـــــاهر[2]

(١) هائم: يسير في الأرض على غير هدى .

(٢) الأسمال: الثياب الرثة البالية .

هو لا يريد فراقها ... خوف القوارسي والهواجر[1]

إني أعد ضلوعه ... من تحتها والليل عاكر[2]

أبصرت هيكل عظمه ... فذكرت سكان المقابر

فكأنما هو ميت ... أحياه (عيسى) بعد عازر[3]

وتراه من فرط الهزال تكاد تثقبه المواطر

عجبا أيفرسه الطوى ... في قلب حاضرة الحواضر[4]

وتغوله البؤس وطرف (رعاية الأطفال) ساهر[5]

كم مثله تحت الدجى ... أسوان بادي الضر طائر

خزيان، يخرج في الظلام خروج خفاش المغاور[6]

متلفعا جلبابه ... مترقبا معروف عابر[7]

هكذا يصور الشاعر مشهد هذا الصبي الهائم على وجهه، الحائر في دنياه المظلمة، فقد أتى الشقاء على ما لديه من جديد ملابس، وتقلمت أظفاره، ويطلب الشاعر ممن يخاطبه أن ينظر

(١) القوارس: البرد. والهواجر: جمع هاجرة، شدة الحر .

(٢) عاكر: مدلهم، شديد الظلمة.

(٣) عازر: اسم الرجل الميت الذي أحياه عيسى بن مريم عليه السلام.

(٤) أيفرسه: أي أيفترسه .

(٥) أسوان: حزين بائس .

(٦) الخفاش: طائر ليلي معروف، المغاور: جمع مغارة، وهي الكهف المظلم.

(٧) متلفعا: مرتديا ، مترقبا: منتظرا .

إلى ثياب هذا الصبي، إنها ثياب بالية مهترئة، لم يبق منها ما يراه فيها الناظر،، ورغم هذه الحالة المزرية، فإنه لا يريد خلع هذه الملابس التي تقيه شدة البرد ولفح الحر، ويستمر الشاعر في تصوير حال هذا الصبي، فيقول: إنني أستطيع عد ضلوعه في الليل المدلهم وذلك من شدة هزاله، وقد أصبح ميتا أحياه عيسى بن مريم، كما أحيا قبله ذلك الرجل المسمى بـ (عازر)، ويقول: لقد نحل جسم هذا الصبي وأخذ الهزال منه مأخذه حتى تكاد تثقبه أمطار السماء الغزيرة، ويعجب الشاعر من وضع هذا الطفل، متسائلا: كيف يسمح للجوع أن يقتله وهو يعيش في القاهرة عاصمة العواصم؟ وكيف يترك فريسة للبؤس، ودار رعاية الأطفال تسهر على رعاية أمثاله؟ ويزداد المشهد أسى وألما، فهذا الصبي يشعر بالخزي والحرج، فلا يخرج إلا ليلا كما يخرج خفاش المغاور كي لا يراه الآخرون، وإذا ما خرج تراه مرتديا جلبابه منتظرا معروف عابر طريق أو سبيل.

فالشاعر يرثي حال هذا الصبي الضارب في أرض الله في جنح الظلام، وما يعانيه من بؤس وشقاء، وعري، وجوع، وهزال، وقد جسد هذه المعاني في لغته الحزينة ومعانيه الإنسانية النبيلة من خلال الألفاظ التي استخدمها في هذه الأبيات من مثل قوله: هائم هيام حائر، أبلى الشقاء جديده، تقلمت منه الأظافر، انظر إلى أسماله، لا يريد فراقها خوف القوارس والهواجر، إني أعد ضلوعه، أبصرت هيكل عظمه، ذكرت سكان المقابر، فكأنما هو ميت أحياه (عيسى) بعد (عازر)، وتراه من فرط الهزال، تثقبه المواطر، أيفرسه الطوى، وتغوله البؤس، أسوان بادي الضر طائر، خزيان، يخرج في الظلام خروج خفاش المغاور، متلفعا جلبابه مترقبا معروف عابر....

ويقول في قصيدة استلهمها من وحي الحريق الذي أصاب بلدة (ميت غمر) المصرية (من الخفيف) :

سائلوا الليل عنهم والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى

كيف أمسى رضيعهم فقد الأم ... وكيف اصطلى مع القوم نارا[1]

كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعى وأسقف تتجارى[2]

رب إن القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الأقدارا[3]

ومر النار أن تكف أذاها ... ومر الغيث أن يسيل انهمارا[4]

أين طوفان صاحب الفلك يروى ... هذه النار؟ فهي تشكو الأوارا[5]

أشعلت فحمة الدياجي فباتت ... تملأ الأرض والسماء شرارا

غشيتهم والنحس يجري يمينا ... ورمتهم والبؤس يجري يسارا[6]

فأغارت وأوجه القوم بيض ... ثم غادرت وقد كستهن قارا[7]

أخرجتهم من الديار عراة ... حذر الموت يطلبون الفرارا

---

(١) اصطلى: اكتوى .

(٢) طاح: هلك، يتداعى: يتهدم، تتجارى: يسابق بعضها بعضا .

(٣) أنحى عليهم: أهلكهم.

(٤) الغيث: المطر .

(٥) صاحب الفلك: نوح عليه السلام ، الأوار: الظمأ .

(٦) غشيتهم: فاجأتهم وسيطرت عليهم .

(٧) أغارت : ذهبت بعيدا. القار: القطران .

يلبسون الظلام حتى إذا ما أقبل الصبح يلبسون النهارا

حلة لا تقيهم البرد والحر ولا عنهم ترد الغبارا

يصور الشاعر هذا الحدث المؤلم، مبينا فظاعة ما حل ببلدة (ميت غمر) من عظيم الهول، إذ أتت النار على كل شيء فيها، فالأطفال الرضع فقدوا أمهاتهم، واكتووا بنيران الحريق مع أهاليهم، وهلكت العجائز وانطمرت تحت جدران متهدمة وأسقف تتسابق في الانهيار والسقوط، ويتوجه الشاعر بالدعاء إلى الله قائلا إن قضاءك أهلكهم وأتوسل إليك بأن تكشف كربهم وتمسك عنهم أقدارك، وأتضرع إليك بأن تكف أذى النار عنهم، وأن ترسل الغيث مدرارا ليطفئ هذه النار، ويحضر الشاعر طوفان صاحب الفلك (نوح عليه السلام) متمنيا أن يكون حدث الآن ليروي هذه النار التي تشكو الظمأ، فهذه النار طبق دخانها وشرارها آفاق الأرض والسماء، وقد غشيتهم وهيمنت عليهم، وهم في نحس يمر عن يمينهم وبؤس يجري عن يسارهم، لقد كانت وجوه القوم في هذه القرية بيضا فغادرتها وقد أحالتها إلى سواد القطران، لقد داهمت بيوتهم فخرجوا منها عراة خشية الموت، طالبين الفرار منها، هائمين يلبسون الليل إذا أقبل ويلبسون النهار إذا أصبح، عراة يلبسون ثيابا لا تقوى على مقاومة البرد والحر ولا تستطيع رد الغبار المنعقدة عنهم .

إن لغة الحزن والتألم ظاهرة في هذه الأبيات جسدها الشاعر في الألفاظ التي استخدمها في التعبير عن هذه النار المستعرة التي تركت آثارها الواضحة على البلاد والعباد، وذلك من مثل قوله: كيف باتت تساؤهم والعذارى، كيف أمسى رضيعهم فقد الأم، اصطلى مع القوم نارا، كيف طاح العجوز، إن القضاء أنحى عليهم، فاكشف الكرب واحجب الأقدار، مر النار أن تكف أذاها، أين طوفان صاحب الفلك؟ يروي هذه النار، تشكو الأوارا، أشعلت

فحمة الدياجي، غشيتهم والنحس يجري يمينا والبؤس يجري يسارا، ثم غارت وقد كستهم قارا، أخرجتهم من الديار عراة، يطلبون الفرارا، لا تقيهم البرد والحر، ولا ترد عنهم الغبارا .

ويقول فيها:

وسمعنا في (ميت غمر) صياحا ... ملأ البر ضجة والبحارا

جل من قسم الحظوظ هذا ... يتغنى وذاك يبكي الديارا

رب ليل في الدهر قد ضم نحسا ... وسعودا وعسرة ويسارا

يستمر الشاعر في تصوير هذا المشهد المؤلم، فيذكر ما كان عليه أهل بلدة (ميت غمر) من صياح وضجة واضطراب، ويجل الله في حكمته، فقد قسم الناس إلى من يتغنى بحظه، وإلى من يندب حظه ويبكي دياره، وقد اقتضت حكمته أن يتفاوت الناس في ليلهم فمنهم من يكون ليله نحسا ومنهم من يكون ليله سعدا، ومنهم يعاني ليله عسرة وعوزا، ومنهم من يمضي ليله لينا هنيئا ، فسبحان من قسم الحظوظ بين البشر فمنهم من يعيش في فرح ومنهم من يندب حظه ، فهذا هو قانون الحياة.

ولغة الحزن والأسى واضحة في هذه الأبيات من مثل قوله: صياحا، ضجة، يبكي الديارا، نحسا وعسرة ....

ويقول في قصيدة يحث فيها على مؤازرة دور (رعاية الأطفال) ومواساة الغرباء (من الرمل):

أيها الطفل لك البشرى فقد ... قدر الله لنا أن ننشرا

قدر الله حياة حرة ... وأبى سبحانه أن تقبرا

لا تخــــف جوعـــا ولا عريـــا ولا   تبــك عينـــاك إذا خطـــب عـــرا[١]
لـــك عنـــد الـــبر في ملجئـــه   حيـــث تـــأوي خـــاطر لـــن يكـــسرا
حيـــث تلقـــى فيـــه حـــدبا وتـــرى   بـــين أترابـــك عيـــشا أنـــضرا[٢]

يثني الشاعر في هـذه الأبيـات عـلى دور رعايـة الأطفـال والأيتـام، والـساهرين عليهـا ويطمئن هؤلاء الأطفال والأيتام بأنهم سيجدون في هـذه الـدور كـل رعايـة وعنايـة وحنـان وعطف.

يذكر في هذه الأبيات كما في غيرهـا ألفـاظ الجـوع والعـرى، والبكـاء، والخطـب، وهـي مفردات تومئ إلى ما تعاني منه شريحة من المجتمع المصري ولا سيما الأطفال والأيتام منهم .

ويقول فيها :

لا تـــسئ ظنـــا بمثرينـــا فقـــد   تـــاب عـــن آثامـــه واســـتغفرا[٣]
فغـــدا اليـــوم يـــواسي شـــعبه   وهـــو لا يرغـــب في أن يـــشكرا
فتعاهـــدنا عـــلى دفـــع الأذى   بركـــوب الحـــزم حتـــى نظفـــرا[٤]
وتواصـــينا بـــصبر بيننـــا   فغـــدونا قـــوة لا تـــزدرى[٥]

(١) الخطب: الرزء والمصاب. عرا : أصاب.

(٢) الحدب: العطف. الأتراب: الرفاق في السن جمع ترب .

(٣) مثرينا: غنينا.

(٤) الحزم: الأمر الصعب. نظفر: ننتصر .

(٥) تزدرى: تحتقر .

يثني الشاعر في هذه الأبيات على جهود الأثرياء المصريين الذين تنادوا إلى بناء تلك المؤسسات الاجتماعية والسهر على حياة الأيتام وراحتهم وإيوائهم، ويشير إلى تعاضد المصريين واجتماعهم على مواصلة العمل وركوب الصعب حتى يصبحوا قوة لا يستهان بها.

ونلاحظ استخدام الشاعر لألفاظ وعبارات الحزن، مثل : تاب عن آثامه واستغفرا، يواسي شعبه، تعاهدنا على دفع الأذى، وتواصينا بصبر، غدونا قوة لا تزدرى .

ويقول فيها:

يا رجال الجد هذا وقته ... آن أن يعمل كل ما يرى[1]

فابدءوا بالملجأ الحر الذي ... جئت للأيدي له مستمطرا

واكفلوا الأيتام فيه واعلموا ... أن كل الصيد في جوف الفرا[2]

أيها المثري ألا تكفل من ... بات محروما يتيما معسرا[3]

يخاطب الشاعر أهل الخير الأثرياء من المصريين بأن يعملوا على الاهتمام بملاجئ الأيتام وكفالة الأيتام الذين يبيتون محرومين معسرين.

لا ينفك الشاعر يكرر ذكر كلمات الحرمان واليتم والعسر، وذلك في قوله: بات محروما يتيما معسرا .

ويقول فيها:

---

(١) آن : حان .

(٢) كل الصيد في جوف الغرى: مثل عربي قديم ، يدل على الغنيمة والخير.

(٣) معسرا: فقيرا معوزا.

كـم طـوى البـؤس نفوسـا لـو رعـت — منبتـا خـصبا لكانـت جـوهرا

كـم قـضى العـدم عـلى موهبـة — فتـوارت تحـت أطبـاق الثـرى[1]

كـل مـن أحيـا يتـيما ضـائعا — حـسبه مـن ربـه أن يـؤجرا

إنـما تحمـد عقبـى أمـره — مـن لأخـراه بـدنياه اشـترى

يبين الشاعر أن البؤس عواقبه وخيمة فكم قضى على نفوس كثيرة لو وجدت من يرعاها لكانت، جوهرا ثمينا، كما يرى أن الفقر يقتل المواهب ويدفنها تحت التراب فتذهب سدى، وأن كل من أنقذ يتيما مشردا يكفيه أن ينال الأجر عند ربه، والعاقبة الحميدة تكون لمن باع دنياه واشترى آخرته فهي خير وأبقى.

يستخدم الشاعر في هذه الأبيات ألفاظا تدل على خطورة إهمال الأطفال والأيتام؛ ولأنهم سيكونون حينئذ ضحية للبؤس والعدم، وفي استعماله (كم الخبرية) مكررة مرتين ما يدل على كثرة هذه المآسي، كما أن استعماله للفظ (كل) ما يدل على العموم والشمول لكل من أراد أن يفعل خيرا .

ويقول في قصيدته التي أنشدها في الحفل الذي أقامته جمعية رعاية الأطفال سنة ١٩١٠ (من الكامل):

شـبحا أرى أم ذاك طيـف خيـال — لا، بـل فتـاة بـالعراء حيـالي

أمـست بمدرجـة الخطـوب فمالهـا — راع هنـاك ومالهـا مـن والي[2]

(١) العدم: الفقر. الثرى: التراب .

(٢) بمدرجة الخطوب: في محك المصائب .

حسرى تكاد تعيد فحمة ليلها ... نارا بأناة ذكين طوال[1]

ما خطبها عجبا؟ وما خطبي بها ... مالي أشاطرها الوجيعة مالي؟[2]

دانيتها ولصوتها في مسمعي ... وقع النبال عطفن إثر نبال[3]

وسألتها من أنت؟ وهي كأنها ... رسم على طلل من الأطلال

فتململت جزعا وقالت : حامل ... لم تدر طعم الغمض منذ ليالي[4]

قد مات والدها وماتت أمها ... ومضى الحمام بعمها والخال[5]

وإلى هنا حبس الحياء لسانها ... وجرى البكاء بدمعها الهطال[6]

فعلمت ما تخفي الفتاة وإنما ... يحنو على أمثالها أمثالي[7]

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن فتاة حامل بدت كشبح أو طيف خيال، وتقاذفتها المصائب وألقت بها في ظلمات ليل بهيم، ليس لها من يرعاها أو يتولاها، تتمزق حسرة وتنفث أنات نارية لا تنتهي ، ويسأل الشاعر، ما شأن هذه الفتاة، وما هي مصيبتها؟ وما علاقة خطبه بها؟ ولماذا يقاسمها وجيعتها؟ ويقترب الشاعر من هذه الفتاة التي علا صوتها بصياح

---

(١) أناة ذكين: زفرات شديدة طويلة.

(٢) أشاطرها: أقاسمها. الوجيعة: الألم والوجع .

(٣) دانيتها: اقتربت منها . عطفن: وقعن .

(٤) جزعا: خوفا وإشفاقا.

(٥) الحمام: الموت .

(٦) الهطال: الغزير.

(٧) يحنو: يعطف .

وقع على مسمعه كوقع النبال المتتالية في يوم النزال. ويعاود الشاعر سؤاله عن هويتها، وقد بدت هزيلة كأثر رسم دارس على طلل من الأطلال، فتتململ خوفا وإشفاقا على نفسها بأنها تحمل جنينا في أحشائها مما أقض مضجعها، فلم تعرف طعم النوم منذ ليال خلت، وتزداد مأساتها بموت أبيها وأمها، واخترام الموت لعمها وخالها... وهنا يخرس الحياء لسانها، وتذرف عيناها الدموع الغزيرة، فيعلم الشاعر ما تكتمه هذه الفتاة من سر في نفسها، فيحنو عليها الشاعر حنو الأب العطوف.

بهذه اللغة يصور الشاعر هذا المشهد الذي رآه أو توقع حدوث مثله إنها لغة تتفطر حزنا وتتفجر حسرة وألما.

وقد امتزجت ألفاظه بلظى الحزن والألم... تمثلت في قوله: شبحا أرى ، طيف خيال، أمست بمدرجة الخطوب، ما لها من راع ومالها من وال، أشاطرها الوجيعة، لصوتها في مسمعي وقع النبال عطفن إثر نبال، حسرى تعيد فحمة ليلها نارا . بأناة ذكين طوال. جزعا، حامل، لم تدر طعم الغمض منذ ليال، مات والدها وماتت امها، ومضى الحمام بعمها والخال، حبس الحياء لسانها، جرى البكاء بدمعها الهطال.....

ويقول فيها:

ووقفت أنظرها كأني عابد ... في هيكل يرنو إلى تمثال[1]

ورأيت آيات الجمال تكفلت ... بزوالهن فوادح الأثقال[2]

---

(١) يرنو: ينظر متأملا .

(٢) فوادح الأثقال: عظيمها وشديدها (كناية عن الخطوب) .

فحملـــت هيكـــل عظمهـــا وكـــأنني	حملــت حــين حملــت عــود خــلال[١]
وطفقـــت أنتهـــب الخطـــا متـــيمما	بالليـــــل دار رعايـــــة الأطفـــــال[٢]
أمـــشي وأحمـــل بائـــسين: فطـــارق	بـــاب الحيـــاة ومـــؤذن بـــزوال[٣]
أبكـــيهما وكـــأنما أنـــا ثالـــث	لهـــما مـــن الإشـــفاق والإعـــوال[٤]

يستمر الشاعر في وصف المشهد الذي رآه أو تخيله، وكان له أثره الموجع في نفسه؛ لأنه هو نفسه ابن المآسي والويلات، فهو لا يمر بهذه الفتاة مرور الكريم، ولا يتجاوزها أو يحتقرها لفقر أو ضعة، بل تأخذه هول مصيبتها، فيقف أمامها خاشعا ساهما وقوف العابد السابح في التأمل في تمثال ليتبين ما فيه من مواطن الفن والجمال، فيعود الشاعر يحدثنا بأسلوب خبري عن جمال غابر وعز داثر عاشته الفتاة، ولكن المصائب المتعاقبة تكفلت بطمس ما وهبها الله –سبحانه– من جمال رائع، فتذوب محاسنها في جحيم الفقر والهزال والحرمان والضياع، ولم يبق من بهائها سوى ومضات خفيفة تفصح عن واقع ماضيها الزائل.

وحيال هذا المشهد يرى الشاعر قد اضطربت مشاعره وتأججت عواطفه، واتقدت أحاسيسه، فيبادر إلى الوصول إليها فيأخذها بين يديه هيكلا عظميا كعود الخلال نحافة ودقة، وينطلق إلى دار رعاية الأطفال حاملا بائسين، أحدهما يطرق باب الحياة والآخر يطرق باب الموت.. ويبكيهما الشاعر بكاء مرا وكأنما هو ثالثهما من الإشفاق والإعوال ...

(١) عود الخلال: العود يتخلل به لتنظيف الأسنان .

(٢) متيمما: قاصدا .

(٣) طارق باب الحياة: الطفل الذي هو في أحشاء الفتاة . والمؤذن بزوال: الفتاة نفسها .

(٤) الإشفاق: الخوف والفزع.

ثم يقول فيها:

وإذا بأيـــد طـــاهرات عـــودت	صـنع الجميـل تطوعـت في الحـال
جــاءت تــسابق في المــبرة بعــضها	بعــضا لوجـــه الله لا للـــمال[1]

يصل الشاعر إلى دار رعاية الأطفال في سواد ليل بهيم، فإذا بها تستقبل الطارقين وتؤوي الملتئمين إليها، وتشعرهم بالأنس والحنان، يتسابق القائمون عليهـا إلى فعـل الخـير حبـا للـبر نفسه، لا يريدون جزاء ولا شكورا .

ويحدثنا الشاعر عن هؤلاء الذين يسهرون من أجل التخفيف من آلام المنكوبين وجـراح الهائمين على وجوههم، فهم أهل لكـل بـائس، ومـلاذ لكـل متـشرد ، وملجـأ لكـل جـائع، ومشفى لكل عليل، وظل لكل عار حائر يرتـدي خلـق الثيـاب وأسمالها، تكـاد تـرى معـالم جسمه من خلال خروقه وقد أصبح نهبا موزعا بين برد يقرسه وحر يلفحه.

يقول:

لله درهـــم فكـــم مـــن بـــائس	جـــم الوجيعـــة سيء الأحـــوال[2]
ترمـــي بـــه الـــدنيا، فمـــن جـــوع إلى	عــــري إلى ســـــقم إلى إقـــــلال
فكــــأن ناحــــل جــــسمه في ثوبــــه	خلــف الخــروق يطــل مــن غربــال

(١) المبرة: فعل الخير.

(٢) جم الوجيعة: كثير الوجع .

وبعد أن يثني الشاعر على القائمين على هذه الدار، نراه يبدو مطمئنا على الفتاة فقد أوصلها إلى بر الأمان وشاطئ السلام، فيغادرها منشرحا رضي البال مؤديا واجبا، وتاركا الفتاة الحامل في أيد أمينة.

لكن الشاعر لم يقتصر حديثه على تلك الفتاة، وإنما عاد لتعميم عمل هذه الدار ليشمل كل البائسين الذين عبست لهم الدنيا -فساءت أحوالهم- ورمتهم نهبا لأنياب الجوع وذل العرى وألم المرض ولدغ الفقر والحرمان.

ويستمر الشاعر في الحديث عما يعانيه البائسون ، فيقول:

يا برد فاحمل، قد ظفرت بأعزل   يا حر، تلك فريسة المغتال

يا عين سحي، يا قلوب تفطري   يا نفس رقي، يا مروءة والي[1]

لولاهم لقضى عليه شقاؤه   وخلا المجال لخاطف الآجال[2]

يصور الشاعر في هذه الأبيات حال البائسين فقد أصبحوا فريسة لبرد قارس وحر لافح.

وحيال هذا المشهد المفجع المؤلم، لا تجد العيون مفرا من أن تذرف دموعا سخية ، ولا تستطيع القلوب أن تتوقف عن نبضها، بل تتفطر وتشقق ويزداد خفقانها إشفاقا وألما. ولا تقوى النفوس الإنسانية الكريمة أن تتجرد من مشاعرها وإنما تزداد عطفا ورقة، ويسارع أهل المروءة والشهامة إلى الأخذ بيد من قست عليهم الحياة وآلمتهم صروف الزمان.

(١) سحي: جودي، تفطري: انشقي.

(٢) الآجال: جمع أجل: الموت.

ونصل إلى قول الشاعر:

لله در الساهرين على الأولى	سهروا من الأوجاع والأوجال[1]
القائمين بخير ما جاءت به	مدنية الأديان والأجيال
أهل اليتيم وكهفه وحماته	وربيع أهل البؤس والإمحال[2]

يثني الشاعر في هذه الأبيات على القائمين على هذه الدار، فهم يسهرون للتخفيف من أوجاع وآلام المريض والعاجز والبائس واليتيم.

وبعد... حسبنا ما اجتزأناه من أبيات هذه القصيدة وقد حفلت مفرداتها بالحزن والأسى والرجاء والأمل والمعاني الإنسانية الشريفة النبيلة والتي نجدها منبثة في ألفاظها وتراكيبها، والتي لا تغيب عن ذهن القارئ المتأمل أو المستمع المتنبه.

وهكذا يبلغ الشاعر غايته في تحريك النفوس بمنظر البؤس، وأثار العواطف بصورة الشقاء والعناء، ويستخلص الإعجاب من السامعين بهؤلاء الكرام البررة الذين يفعلون الخير لوجه الله، ورغبة في الخير.

لقد قصد الشاعر من هذا كله حمل السامعين على مساعدة هؤلاء الناس بالمال وإثارة الحمية فيهم للتبرع لهذا المشروع الذي يحتاج إلى مال طائل وإنفاق كثير، جرى كل ذلك على لسان الشاعر في أسلوب عذب وكلام سهل سلس، لا وعورة فيه ولا تكلف، وجاء تصويره لهذه المأساة بارعا فرسم بريشة ألفاظه صورة حية واضحة المعالم لهذه الفتاة الهائمة الحامل،

(١) الأوجال: المخاوف.

(٢) الإمحال: الجدب.

فيها الكثير من الحركة والنشاط، وكأنها هي تمثل أمام القارئ أو السامع فيرى كل منهما وقائعها رؤية العين، ويلمحان صورا أخرى لبيئة الشاعر التي كثر فيها البؤس، وانتشر في أنحائها الفقر، وغاية ما كان يرجوه المخلص فيه أن يخفف من ويلات الناس البائسين باستئصال أسبابها، واجتثاث جذورها.

لقد مضت على مناسبة هذه القصيدة مدة طويلة، ومضى على وفاة الشاعر عشرات السنين، ولكنها قد أثرت في نفوسنا، وستؤثر في نفوس الأجيال القادمة؛ لأنها تخاطب العواطف البشرية التي هي واحدة في جوهرها، ولا تزول بتعاقب الأجيال وتبدل الأحوال، والأهم من كل ذلك أنها جاءت من لسان شاعر صادق العاطفة، مرهف الوجدان، ذاق مرارة البؤس والحرمان.

إن هذه القصيدة تحكي قصة موجعة، وتصور مشهدا محزنا مبكيا، قد يكون حدث فعلا، وقد يكون من نسج خيال الشاعر، وإن كان كذلك فلا ضير ولا غبار عليه، لأن مثله يقع كثيرا بين شرائح المجتمع ولا سيما الفقيرة منها.

وقد يكون من نافلة القول أن أذكر هنا أنني قرأت في كتاب بعنوان (مقدمة في دراسة الأدب الحديث) للدكتور عبد الرحمن ياغي، قرأت تعليقا ونقدا له على هذه القصيدة وما جرى فيها من أحداث. يقول الدكتور ياغي: ((لم يستطع الشاعر أن ينفعل بالحادث... لا لشيء سوى أن الشاعر لم يكن في بؤرة الأحداث وإنما هو مجلوب إليها مدفوع نحوها دفعا لا يظهر فيه إرادة، ولا تظهر فيه رغبة... إنه بالفعل غائب ليس له حضور في هذا المجال.. ولكنه اضطر نفسه وقسرها ودفع بها... وزيف الكثير حتى يوهم أن له حضورا.... !)) .

وتعقيبا على قول الدكتور، أقول أبعد كل هذا الانفعال الملتهب، وبعد كل هـذا التـصوير والتجسيد للأحداث، لا يكون للشاعر حضور، لا أدري مـا الحـضور الـذي يريـده الـدكتور الفاضل من حافظ إبراهيم... ؟!

ويقول الدكتور في موضع من دراسته لهذه القصيدة : ((... وما هي صورة الشاعر حـين طرق الباب وهو يحمل هذه الفتـاة الحامـل؟ ... مـا الـذي دعـاه إلى أن يـصور نفـسه في هـذا الموقف بأنه غير هياب ولا وجل.. أو أنه يطرق الباب كما يطرق مسافر آب من سـفره، أو أنـه يطرق كما يطرق رب الدار الغير المبالي؟ صور لا موضع لها في شيء...)) .

إنني استغرب كل الاستغراب أن يذهب الدكتور ياغي هذا المذهب، فيظلم هذا الـشاعر الإنسان الذي هو جزء ممن اكتووا بنار الفقر والحرمان والعوز، وهو الأقدر عـلى التعبـير عـن هموم من هم في مثل ما تعانيه هذه الفتاة الضائعة في دهاليز الأسى والحاجة. وقـد غـاب عـن ذهن الدكتور يـاغي أن الـشاعر لم يطـرق بـاب دار هـذه الفتـاة وإنـما طـرق بـاب دار رعايـة الأطفال. ولم يقحم نفسه إقحاما وإنما أخذته الغيرة على هذه الفتاة الحامل .

ويقول في موضع آخر من دراسته لهذه القصيدة: ((وأخيرا فإن الشاعر حـين اعـتلى منـبر الوعظ الأجوف... وتنفخ . لم يـستطع أن يكـون فنانـا ولم يـستطع أن يكـون قـصاصا... ولم يستطع أن يرتفع بالسامع إلى حرارة الموقف... ولم يتجاوز الدائرة الأولى مـن محاولـة الإيهـام بالواقع دون أن ينجح في هذا الإيهام... فلم ينضج له فكر فلسفي اجتماعي وراء الظاهرة، ولم يكن له موقف يتبناه إزاء هذه المشكلة.. ولم يستطع أن يحول هذا الحدث الفردي فنيا إلى قضية يشد إليها الكثيرين...)) .

وتعقيبا على قوله هذا .. وبعد استعماله لحرف الجزم (لم) مكررا ليكون حرف نفي وجزم وقلب، أقول لقد قلبت يا دكتورنا الفاضل الحقائق رأسا على عقب، أليس الشاعر هو ابن بيئته؟ أليس مطلوبا منه أن يصور واقع مجتمعه فيقف مخاطبا إياه فيكون حينئذ خطيبا واعظا؟ ألم يستطع الشاعر أن يهز نفوس السامعين فتستعر حرارتها؟ ألم يمض زمن طويل على مناسبتها، ولا نزال نقرأها وننفعل بقصتها المؤلمة وستقرؤها وتتأثر بها الأجيال من بعدنا؟ ألم يكن حافظ إبراهيم ذا فكر فلسفي اجتماعي وهو يصور هذه المشكلة؟؟ ألم يكن له موقف تبناه حين أخذ بيد هذه الفتاة وشارك القائمين على دور رعاية الأطفال؟! ولماذا يتهمه الدكتور الفاضل بزيف العاطفة وهو المعروف بصدقها في جل قصائده؟ فيا ترى هل يريده الدكتور الياغي ملاكا سماويا، أو يريده أثيرا هوائيا ؟؟!!

وأقول أليس للشاعر المبدع خياله؟ أليس للشاعر المبدع عالمه؟ أليس من حقه أن يستلهم الماضي ويصور الحاضر ويستشرف المستقبل؟! ألم نقرأ لقدامه بن جعفر قوله: أعذب الشعر أكذبه؟؟ وليس الكذب هنا ما يقابل الصدق وإنما هو خيال الشاعر الواسع المجنح المترجم لما يعتلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس. لماذا هذا الإسقاط؟ ولماذا هذا التقليل من شأن شعراء العربية الكبار؟ ولماذا نجلدهم بسياطنا المهترئة؟ ألم يكن حافظ إبراهيم شاعرا كبيرا؟ ألم يلقب بشاعر النيل وشاعر الشعب؟؟ ألم تطبق شهرته الديار المصرية وتجاوزتها إلى البلاد العربية ومن ثم إلى البلاد الغربية؟؟ إنه من الشعراء العظام الذين خلدهم شعرهم فخلدوا، ولا يزالون يعيشون بين ظهرانينا ....

ويقول في قصيدة بمناسبة الحفل الذي أقامته جمعية (رعاية الطفل) سنة ١٩٢٨ (من الخفيف) :

أيها الطفل لا تخف عنت الدهر ولا تخش عاديات الليالي[1]

قيض الله للضعيف نفوسا   تعشق البر من ذوات الحجال[2]

أي ذوات الحجال عشتن للبر ودمتن قدوة للرجال

لم يكونوا ليدركوا المجد لولاكن أو يسلكوا سبيل المعالي

بسمة تجعل الجبان شجاعا   وتعيد البخيل أكرم نال[3]

وعظام الرجال من كل جنس   في رضاكن أرخصوا كل غالي

قمن علمننا المروءة والعطف على البائسين والسؤال

قمن علمننا الحنان على الطفل شريدا فريسة المغتال

قد أجبنا نداءكن وجئنا   نسأل القادرين بعض السؤال

لو ملكنا غير المقال لجدنا   إن جهد المقل حسن المقال

يطمئن الشاعر في هذه الأبيات الطفل المشرد واليتيم إلى أن ثمة من يخفف من عنائه وبؤسه وضعفه، إنها نفوس كبار، هي نفوس المشرفات والممرضات والمعلمات اللواتي يعتنين بتربية الأطفال اليتامى وتثقيفهم، وذلك في دار رعاية الأطفال، فعين الله –سبحانه– لا تنام فقد سخر لهم من يخفف من عنائهم ويحنو عليهم، وفي الوقت نفسه يثني على النساء ذوات الحجال ودورهن في إعداد الرجال، وهن موضع احترام وتقدير لما يحملنه في قلوبهن من حنان وعطف على الأطفال المشردين الهائمين.

(١) عنت الدهر: شدة وطأته، عاديات الليالي: أحداثها الجسام.

(٢) قيض: هيأ ويسر، ذوات الحجال: كناية عن النساء.

(٣) النال: شديد النوال والعطاء.

وإن معاني الإعجاب بهؤلاء النساء تبدو في ألفاظ وتراكيب هذه الأبيات، وقد صاغها الشاعر بريشته البارعة حيث رسمت أروع اللوحات الفنية.

ويقول فيها:

أنقذوا الطفل إن في شقوة الطفل شقاء لنا على كل حال

إن يعش بائسا ولم يطوه البؤس يعش نكبة على الأجيال

رب بؤس يخبث النفس حتى يطرح المرء في مهاوي الضلال

أنقذوه فربما كان فيه مصلح أو مغامر لا يبالي

في هذه الأبيات يحث الشاعر على إنقاذ الطفل من شقوته، وعلى تربيته فلربما كان مصلحا أو إنسانا ذا شأن كبير، ويرى إن لم يبادر إلى حمايته ورعايته فسيكون عالة على مجتمعه مع تعاقب الأجيال.

بهذه اللغة المتألمة، والألفاظ المتوجعة، جسد ما قصد إليه من معان إنسانية نبيلة، من مثل قوله: أنقذوا الطفل، شقوة الطفل، شقوة لنا على كل حال، إن يعش بائسا يعش نكبة على الأجيال، رب بؤس يخبث النفس، في مهاوي الضلال.

ويقول فيها:

شاع بؤس الأطفال والبؤس داء لو أتيح الطبيب – غير عضال[1]

أيدوا كل مجمع قام للبر بجاه يظله أو بمال

(١) عضال: فتاك يصعب الشفاء منه.

كم يتيم كادت به البأساء لولا (رعاية الأطفال) [1]

ورجال الإسعاف أنبل - لولا شهوة الحرب - من رجال القتال

يسهرون الدجى لتخفيف ويل أو بلاء مصوب أو نكال [2]

يتحدث الشاعر عن شيوع ظاهرة بؤس الأطفال وانتشارها، حيث أصبحت تشكل داء خطيرا لو أتيح لها من يعالجها ويتعهدها بالملاحظة والعناية فلن تكون داء عضالا يصعب شفاؤه، ويقول كثير من اليتامى كادت البأساء أن تودي بهم إلى الهلاك، لولا القائمون على دور رعاية الأطفال الذين يسهرون ليلهم للتخفيف من بلواهم.

ويقول:

فاصنعوا البر منعمين وجودوا أيها القادرون قبل السؤال

لانتشار العلم أو لانطواء البؤس والشر أو لترفيه حال

يطلب الشاعر في هذين البيتين من الموسرين القادرين على بذل المال وصنع البر من أجل هؤلاء الأطفال قبل أن يمدوا إليهم أيديهم بالسؤال، ففي بذلهم ودعمهم ينتشر العلم ويطوى البؤس والشر وإصلاح حال المعوزين والمحتاجين.

لا ينفك الشاعر يكرر الألفاظ التي تذكر بالمآسي. كما هو ملاحظ في قوله: لانطواء البؤس والشر....

(١) كادت به: قتلته.

(٢) النكال: العذاب.

من خلال عرضنا لهذه النماذج الشعرية الداعية إلى دعم دور رعاية الأطفال والثناء على دورها الرائد في احتضان الأطفال ورعايتهم، نلاحظ أن الشاعر يميل إلى المبالغة والتهويل من شأن ما يعرضه أو يصوره من أحداث اجتماعية ومشاهد إنسانية، أقول إنها مبالغة مقبولة، بل محببة – في رأيي- لأن الشاعر يعد نفسه مسؤولا أمينا عما يعانيه أفراد شعبه من أنات وحسرات ومن هنا كان عليه أن يسبر غورها ويتعمق جوهرها، فتبدو حينئذ مثل هذه المبالغة التي قد يعتبرها بعضهم انتقاصا من فنه.

٤ -الجامعيات:

لم ينل حافظ إبراهيم حظا وافرا من التعليم المنتظم، ولم يحصل على شهادة علمية، نتيجة ما اكتنفت حياته من ظروف صعبة منذ طفولته، ورغم هذا، فقد كان غيورا ومتحمسا على تعليم أبناء وطنه وتثقيفهم، فهو يحب العلم والمعرفة، وينادي بتعميمها ونشرها في أرجاء البلاد، ويمقت الجهل والضلال ويحث على محاربتهما والقضاء عليهما، وينادى بتأسيس المدارس والمعاهد وإقامة الجامعات ودعمها بالمال، فهاهو يقول في قصيدة أنشدها في الحفل الذي أقيم دعما لمشروع تأسيس الجامعة المصرية سنة ١٩٠٧ (من البسيط) :

إن كنتم تبذلون المال عن رهب   فنحن ندعوكم للبذل عن رغب(١)

ذر الكتاتيب منشئها بلا عدد   ذر الرماد بعين الحاذق الأرب(٢)

(١) الرغب في الشيء، بخلاف الرهب.

(٢) الأرب: الحاذق الماهر، الكتاتيب: جمع كتاب: هو موضع التعليم.

فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا　　　أن المصابيح لا تغني عن الشهب[1]

يدعو الشاعر في هذه الأبيات إلى بذل المال من أجل إنشاء الجامعة، وإلى الكف عن إنشاء الكتاتيب التي انتشرت في مصر وبلغ عددها الآلاف وهي لا فائدة منها ولا تسمن ولا تغني من جوع، فالمصابيح التي يضيئها الناس لا تغنيهم عن ضوء النجوم.

استخدم الشاعر في هذه الأبيات لغة دالة على استثارة العواطف من أجل بذل المال لدعم الجامعة المصرية. يظهر ذلك من خلال الطباق ما بين عن رهب، وعن رغب . وما بين إنارة المصابيح وإضاءة النجوم.

ويقول فيها :

فما لكم أيها الأقوام جامعة　　　إلا بجامعة موصولة السبب

قد قام (سعد) بها حينا وأسلمها　　　إلى (أمين) فلم يحجم ولم يهب[2]

فعاونوه يعاونكم على عمل　　　فيه الفخار وما ترجون من أرب[3]

لا تلجئوا في العلا إلا إلى همم　　　وثابة لا تبالي همة النوب[4]

فإن تأميلكم في غيركم وهن　　　في النفس يزجي عنان السعي والدأب[5]

---

(١) الشهب: النجوم.

(٢) يحجم: يمتنع .

(٣) الأرب: الغاية.

(٤) النوب: المصائب.

(٥) الوهن: الضعف، الدأب: السعي الجاد، سعد: هو سعد زغلول الزعيم المصري المشهور، وأمين هو قاسم أمين الأديب المصري المشهور.

يؤكد في هذه الأبيات على ضرورة إنشاء الجامعة؛ لأنها هي التي تجمع المصريين وتوحدهم، ويشيد بفضل كل من سعد زغلول وقاسم أمين اللذين عملا على دعم الجامعة المصرية، طالبا من المصريين مؤزارتهما في عملهما الذي فيه فخارهم وتحقيق ما يرجونه من غايات، داعيا إياهم الاتكال على أنفسهم لا على غيرهم .

لقد استخدم الشاعر في هذه الأبيات لغة التوجيه والتقرير، والأمر، والنهي، والتحذير، ظهر ذلك من خلال الألفاظ التي تضمنتها هذه الأبيات.

ويقول فيها:

إن قام منا مناد قال قائلهم ... لا تصخبوا فهلاك الشعب في الصخب [1]

أو نابنا حادث نرجو إزالته ... قال استكينوا وخلوا سورة الغضب [2]

فما سمونا إلى نجد نحاوله ... إلا هبطنا إلى غور من العطب [3]

يا مصر، هل بعد هذا اليأس متسع ... يجري الرجاء به في كل مضطرب [4]

لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا ... كأنا فيك لم نشهد ولم نغب

نبكي على بلد سال النضار به ... للوافدين وأهلوه على سغب [5]

متى نراه وقد باتت خزائنه ... كنزا من العلم لا كنزا من الذهب

---

(١) الصخب: الضجة والاضطراب.

(٢) سورة الغضب: شدته .

(٣) النجد: المرتفع ، الغور : المنخفض.

(٤) المضطرب: المذهب.

(٥) السغب: الجوع، العطب: الهلاك، نابنا: أصابنا .

هـــذا هـــو العمـــل المـــبرور فـــاكتتبوا بالمـــــال اكتتبنـــــا فيـــــه بـــــالأدب

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى سياسة المحتل المستعمر، الذي يعمـل دائـما عـلى تجهيـل الشعوب، والتحذير من القيام بالاحتجاج والاضطراب، ويقـول مـا نكـاد نـصل إلى وضـع يرفعنا إلى العلا ويقودنا إلى الرفعة والازدهار، إلا سرعان مـا عـدنا إلى الهبـوط والانـزلاق في غور الهلاك والتخلف، وينادي المصريين قائلا: أبقي بعد هـذا اليـأس القـابع في نفوسـنا مـن رجاء ينهضنا من كبوتنا؟؟

ويقول لقد وصلنا إلى واقع مرير لا نحن فيه أحياء ولا نحن فيه أموات، وأصبحنا نبكـي على بلدنا الذي تذهب خيراته للوافدين الغرباء، ويتـساءل: متـى يـا تـرى تحقـق آمالنـا وقـد تحولت كنوزه إلى كنوز من العلم لا كنـوز مـن الـذهب؟ فهـذا هـو العمـل المـبرور المبـارك. فسارعوا أيها القادرون ويا أرباب المال إلى دعم إنشاء الجامعة، فنحن لا نملـك مـن المـال إلا أدبنا وشعرنا الذي يدعم جامعتنا.

يستخدم الشاعر في هذه الأبيات لغة التقرير والنداء والاستفهام فينعى مـن خلالهـا عـلى قومه روح اليأس والقنوط والتكاسـل، ويـدعو إلى النهـوض مـن جديـد، وإلى متابعـة روح العمل والجهاد، كما نراه يستخدم أسلوب المطابقة والمقابلة بين هذه المعاني.

وحافظ إبراهيم يهمه نشر العلم والمعرفة بين أفراد شعبه، فالعلم نور، والجهـل ظلـمات، فها هو يقول في قصيدة أخرى أنشدها في الحفل الذي أقـيم مـؤازرة (لمـشروع إنـشاء الجامعـة المصرية) (من البسيط) :

حيـــاكم الله أحيـــوا العلـــم والأدبـــا إن تنـشروا العلـم ينـشر فـيكم العربـا

ولا حيـــــاة لكـــــم إلا بجامعـــــة   تكـــون أمـــا لطـــلاب العلـــم وأبـــا

تبنــي الرجــال وتبنــي كــل شــاهقة   مــن المعــاني وتبنــي العــز والغلبــا[1]

يحيي الشاعر في هذه الأبيات المؤتمرين الـذين تنـادوا واجتمعـوا تأييـدا لإنـشاء الجامعـة المصرية التي ستكون أما حنونا وأبـا عطوفـا لطـلاب العلـم، وسـتكون رمـزا لبنـاء الرجـال وإشادة البنيان وإعلاء العمران.

ويقول في نهاية هذه القصيدة الطويلة:

إن تقرضـــوا الله في أوطـــانكم فلكـــم   أجــر المجاهــد طــوبى للــذي اكتتبــا

في هذا البيت يجمل الشاعر دعوته المصريين والمسؤولين. فيقـول: إنهـا دعـوة إلى البـذل والسخاء والعطاء من أجل إقامة الجامعة المصرية، إن في البذل من أجل هذا المشروع الـوطني الكبير فائدة عظيمة.. إنه عمل طيب، وجهاد في سبيل الله والعلم.

تتوزع لغة الشاعر في هذه الأبيات ما بين الإنشاء والخبر، ما بين الطلب والتقريـر، يتبـين هذا من الألفاظ والعبارات التي استخدمها الشاعر في التعبير عما قصد إليه من أهداف.

ويقول في قصيدة بعنوان: (اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها) (من الطويل):

رجعـــت لنفـــسي فاتهمـــت حـــصاتي   وناديـــت قـــومي فاحتـــسبت حيـــاتي[2]

رمـــوني بعقـــم في الـــشباب وليتنـــي   عقمـــت فلـــم أجـــزع لقـــول عـــداتي[3]

---

(١) الغلب: الظفر والانتصار.

(٢) حصاتي: فكري .

(٣) العقم: عدم القدرة على الإنجاب.

ولـــدت ولمــا لم أجـــد لعرائـــسي	رجـــالا وأكفـــاء وأدت بنـــاتي[1]
وســعت كتــاب الله لفظــا وغايـــة	ومــا ضــقت عــن آي بــه وعظــات
فكيـف أضـيق اليـوم عـن وصـف آلـة	وتنـــسيق أســـماء لمخترعـــات
أنــا البحــر في أحــشائه الــدر كــامن	فهـل سـألوا الغـواص عـن صـدفاتي
فيــا ويحكــم أبــلى وتــبلى محاســني	ومـــنكم وإن عـــز الـــدواء أســـاتي
فـــلا تكلـــوني للزمـــان فـــإني	أخـــاف علـــيكم أن تحـــين وفـــاتي

بمثل هذه اللغة التي تقطر حزنا وأسى يصور الشاعر ما آلت إليه لغة الضاد من وضع لا يسر، فهي حزينة متألمة، تعود لنفسها فتتهمها بالضعف وتستصرخ قومها فتحتسب حياتها، وأن موتها دنا واقترب، وتشعر أنها غريبة بين أهلها فلم تجد من الرجال الأكفاء من أبنائها من يحسن استعمال ألفاظها، فتسارع إلى وأدها، لقد اتهمها أبناؤها بالجمود والتقصير، وتتمنى لو أنها كانت عقيمة لا تلد، فلا تجزع لقول أعدائها فيها، إنها لغة القرآن الكريم وسعت ألفاظه ومعانيه ومراميه، ومع هذا فقد عقها أبناؤها اليوم وهجروها، واتهموها بالعجز عن أداء المعنى وفهم مصطلحات العلوم.

جاءت لغة الشاعر في هذه الأبيات خبرية تقريرية واتسمت بالأسى والحزن على ما آلت إليه من حال لا تحسد عليه، ولهذا نراه يهيب ببني العروبة، طالبا منهم أن يستخدموا اللغة الفصحى ويجتهدوا في تطويرها ويحرصوا على استخدامها في كل ما ينثرون من كلام وما ينظمون من شعر، فهي لغة حية مرنة قادرة على مسايره كل ما هو مستجد، وهي ليست

(١) وأدت: دفنت، عرائسي: كناية عن الألفاظ .

قاصرة وإنما التقصير آت من أبنائها الناطقين بها، ويعجب الشاعر من أن توجه إليها مثل هذه التهم، وهي البحر الذي يكمن في أحشائه الدر واللآلئ، مكنيا بذلك عن ألفاظها وأساليبها، وما على أبنائها إلا الغوص في أعماقها لصيد دررها وصدفاتها .

ويقول فيها:

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي[1]

سقى الله في بطن الجزيرة أعظما ... يعز عليها أن تلين قناتي[2]

وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخرات[3]

تعتب اللغة العربية على أبنائها مستنكرة عليهم موقفهم السلبي تجاهها حين تراهم يطربون ويسرون لصوت ناعب قادم من بلاد الغرب رافعا عقيرته مناديا بقتلها وعدم استعمالها وهي لم تشخ، وإنما هي في مقتبل عمرها وميعة صباها، وهي تترحم على تلك الأعظم والرفات المدفونة في بطن الجزيرة العربية التي كان أصحابها يصعب عليهم أن ينال منها مغرض أو ينتقص من قدرها منكر . وقد فاخرت العرب بعلومها، وتذكر بني قومها بسالف مجد العرب لما كانت العربية هي لغة العلم والحضارة والفلسفة... وتندب على الشرق إطراقه حياء وخجلا حيال عظام تلك الأجساد التي رعت اللغة العربية وصانتها من عاديات الزمان وتبدو في هذه الأبيات لغة الاستنكار والترحم والدعاء والإخبار، جاء ذلك من خلال الألفاظ والتراكيب التي استخدمها الشاعر في التعبير عن هذه المعاني. وفي قوله:

---

(١) وأدي: دفني وقتلي، ربيع حياتي: مقتبل عمري .

(٢) تلين قناتي: تضعف مقدرتي.

(٣) النخرات: الباليات .

(ينادي بوأدي في ربيع حياتي) إشارة ذكية إلى ما كان يفعله العرب عندما تأتيهم البنات فيسارعون إلى دفنهن أحياء خشية الفقر والعار، وكأنه ينظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وفي تضمين الشاعر لهذا التصوير غمز لأولئك المغرضين المنادين بالتخلي عن اللغة العربية الفصيحة، وتبجحوا بالنطق بلغة الغرب، واستهتروا بلغة الضاد .

ويقول فيها:

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا	من القبر يدنيني بغير أناة[1]
وأسمع للكتاب في مصر ضجة	فأعلم أن الصائحين نعاتي[2]
أيهجرني قومي -عفا الله عنهم-	إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى	لعاب الأفاعي في سيل فرات[3]
إلى معشر الكتاب والجمع حافل	بسطت رجائي بعد بسط شكاتي[4]
فإما حياة تبعث الميت في البلى	وتنبت في تلك الرموس رفاتي[5]
وإما ممات لا قيامة بعده	ممات لعمري لم يقس بمماتي

(١) المزلق: موضع الانزلاق والعثرة، بغير أناة: بدون رحمة وتمهل.

(٢) النعاة: حاملو خبر الموت.

(٣) لوثة الإفرنج: كناية عن ألفاظها المستعملة في العربية .

(٤) الشكاة: هي الشكوى.

(٥) الرموس: القبور، الرفاة: العظام البالية .

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى تلك الدعوات الهدامة التي يجبرها أصحابها في الصحف منادين بهجر اللغة العربية الفصيحة واستبدالها باللغة العامية أو الأجنبية، ويقول إنهم بدعوتهم هذه يقسون على لغة الضاد، وبحدوث ضجة وبلبلة ظاهرها الغيرة وباطنها الإجهاز عليها، وكأنهم بفعلهم هذا يعلنون خبر موتها، كما يومئ في الوقت نفسه إلى تسرب الألفاظ الأجنبية إليها وجريانها على ألسنتهم، واستعمالها في كتاباتهم. وإزاء هذا الوضع المزري المبكي يهيب الشاعر بالأدباء والفصحاء والعلماء أن ينهضوا من سباتهم لتعزيز اللغة الفصحى والعمل على استعادة دورها الريادي الحضاري.

بهذا الأسلوب الخبري والتعجبي يتحسر الشاعر وبلسان اللغة العربية للحال التي وصلت إليه هذه اللغة حيث راح العرب –كتابهم وقصاصوهم – يخلطون بينها وبين لغة الغرب. جاء ذلك من خلال الألفاظ والعبارات التي تضمنتها هذه الأبيات.

ولعل ما اجتزأناه من أبيات هذه القصيدة ينهض دليلا وبرهانا على الحال التي آلت إليه اللغة العربية وهي تنعى حظها بين أهلها. وقد يسأل سائل: لماذا كانت هذه القصيدة مصنفة في قائمة القصائد التي يدعو فيها الشاعر إلى تأسيس الجامعات ودعمها؟ نقول: إن هذه الجامعات ستقوم بنشر العلم والمعرفة بين أبناء الشعب، ولا شك أن لغتها هي اللغة العربية التي سيستخدمها القائمون عليها والدارسون فيها. فهي أساس البناء وعمود البيت، بها ينمو العلم وتشيع المعرفة، وبدونها يهدم البنيان، ويسكت اللسان.

إن المتأمل في الأبيات المستلة من هذه القصيدة يدرك أنها تفيض بالألفاظ والتراكيب الحزينة الأليمة، من مثل قول الشاعر: احتسبت حياتي، بعقم، وليتني عقمت، وأدت بناتي، فياويلكم، أبلى وتبلى محاسني، عز الدواء، أساتي، تحين وفاتي، أرى كل يوم بالجرائد مزلقا من

القبر، يدنيني بغير أناة، نعاتي، أيهجرني، لوثة الإفرنج، لعاب الأفاعي، شكاتي، تبعث الميت في البلى، الرموس، رفاتي، ممات، ممات لم يقس بممات..

هذا بالاضافة إلى الاستعارات والتشبيهات والكنايات التي تضمنتها الأبيات كقوله: لم أجد لعرائسي، أنا البحر في أحشائه الدر كامن، أيطربكم من جانب الغرب ناعب، ربيع حياتي، أرى كل يوم بالجرائد مزلقا، إلى لغة لم تتصل برواة، لوثة الإفرنج، كما سرى لعاب الأفاعي...

٥- الإنسانيات:

لم يكن حافظ إبراهيم مسجلا أو مصورا للأحداث التي تقع في وطنه فحسب، وإنما تخطى دائرة الوطن الضيقة وتجاوزها إلى خارجها، ليصل بشعره إلى المكان والإنسان في عالم الكون، إيمانا منه أن العالم كله متكافل ومتضامن فيما يعيشه من أفراح ومسرات، وما يحل فيه من مصائب وكوارث.

فها هو يقول في قصيدة قالها في ثورة بركان (جزيرة المارتنيك) إحدى الجزر الهندية الغربية سنة ١٩٠٢ (من الخفيف):

ألبسوك الدماء فوق الدماء　　　وأروك العداء بعد العداء

فلبست النجيع من عهد قابيل وشاهدت مصرع الأبرياء[1]

---

(١) النجيع: الدم الشديد .

يخاطب الشاعر (جزيرة المارتنيك)، واصفا ما حل بها من أسى ودمار، وآثار دماء للضحايا الذين قضوا في الزلزال الذي فجر البراكين، وهم أبرياء لم يقترفوا إثما، ولم يرتكبوا جرما، وذاكرا حادثة قتل هابيل على يدي أخيه قابيل، وهما ابنا آدم أبي البشر.

يتضح في هذين البيتين قوة التعبير عن هذا الحدث الإنساني، فقد استخدم الشاعر الصور البيانية كالاستعارة في قوله: ألبسوك الدماء فوق الدماء، وأروك العداء بعد العداء، ولبست النجيع من عهد قابيل، وقد جرى ذلك على لسان الشاعر في أسلوب إخباري وتعبير تقريري. وتذكير بالأحداث التاريخية الغابرة .

ويقول فيها:

فلك العذر إن قسوت وإن خنت وإن كنت مصدرا للشقاء

غلط الناس، ما طغى جبل النار بإرسال نفثه في الهواء[1]

أخرجوا صدر أمه فأراهم بعض ما أضمرت من البرجاء[2]

يعذر الشاعر هذه الجزيرة إن كانت قاسية على أهلها أو خانتهم أو كانت مصدرا لحزنهم وشقائهم – ويرى أن ناسها هم المخطئون، فالبركان حينما أرسل حممه إنما كان بجريرة ما أضمروه لبعضهم بعضا من حقد وضغينة .

(١) نفثه: ما يلفظه من حمم .

(٢) البرجاء: الحقد والضغينة .

ويقول فيها:

أسخطوها فصابرتهم زمانا ثم أنحت عليهم بالجزاء

أيها الناس إن يكن ذاك سخط الأرض، ماذا يكون سخط السماء؟

فاتقوا الأرض والسماء سواء واتقوا النار في الثرى والفضاء

يلوم الشاعر سكان الجزيرة الذين أغضبوا جزيرتهم بسخطهم على بعضهم البعض، وعداوة بعضهم لبعض، فكان ذلك سببا لحدوث الزلزال وثوران البركان، الذي كان نفثة للأرض لتعبر عن سخطها وغضبها على البشر.

بهذا الأسلوب الإخباري والندائي والأمري يعبر الشاعر عما أصاب أهل هذه الجزيرة من دمار وموت، مذكرا الناجين منهم أن يتعظوا ويعتبروا فإن كان هذا الذي حصل هو سخط الأرض، فكيف سيكون سخط السماء؟ ويطلب منهم أن يحذروا الأرض والسماء سواء بسواء، وأن يتقوا النار إن في الثرى وإن في الفضاء.

لقد توزع تعبير الشاعر عن هذه المعاني ما بين الخبر والإنشاء، فجاء الخبر في قوله: أسخطوها، فصابرتهم، ثم أنحت عليهم، وجاء الإنشاء في النداء والأمر الملتمس في قوله: أيها الناس، فاتقوا الأرض والسماء، واتقوا النار في الثرى والفضاء، كما جاء الإنشاء في الاستفهام في قوله: ماذا يكون سخط السماء؟ هذا فضلا عن ظهور فن الطباق في الأبيات، فقد طابق الشاعر بين الأرض والسماء، والثرى والفضاء. ولا شك أن المراوحة بين الخبر والإنشاء، يشد القارئ والسامع إلى متابعة الكلام، ويبعث على الحركة والحيوية والنشاط.

ويقول في قصيدة أنشدها بمناسبة احتفال المجمع العلمي البريطاني بذكرى مرور ثلاثمائة سنة على وفاة (شكسبير) الشاعر الإنجليزي المشهور (من الطويل):

يحييك من أرض الكنانة شاعر ... شغوف بقول العبقريين مغرم[1]

ويطربه في يوم ذكراك أن مشت ... إليك ملوك القول عرب وأعجم

نظرت بعين الغيب في كل أمة ... وفي كل عصر ثم أنشأت تحكم

فلم تخطئ المرمى ولا غرو أن دنت ... لك الغاية القصوى فإنك ملهم

يحيي الشاعر في هذه الأبيات، نيابة عن المصريين، شاعر بريطانيا العظيم، ويشير إلى أن العظام من ملوك القول عربا وعجما جاءوا مشاركين في إحياء يوم وفاتك، كما أنه ينوه بعبقرية (شكسبير) التي طبقت الآفاق، وبنظرته البعيدة في الأمور التي ثبتت صحتها وبلغت غايتها. وقد جاء فيها تعبير الشاعر خبريا تقريريا، ومستخدما الأفعال المضارعة التي تدل على الحاضر والاستمرار. وذلك في مثل قوله: يحييك، يطربه.

ويقول فيها:

أفق ساعة وانظر إلى الخلق نظرة ... تجدهم – وإن راق الطلاء – هم هم[2]

على ظهرها من شر أطماعهم دم ... وفوق عباب البحر من صنعهم دم[3]

تفانوا على دنيا تغر وباطل ... يزول إلى أن ضجت الأرض منهم

(١) الكنانة: لفظ يطلق على مصر.

(٢) الطلاء: الصباغ.

(٣) عباب البحر: موجه الزاخر.

فليتــك تحيــا يــا أبــا الــشعر ســاعة لتنظــر مــا يــصمي ويــدمي ويــؤلمُ

وقــائع حــرب أجــج العلــم نارهــا فكادبهــا عهــد الحــضارة يختــتم[1]

وتعلـــم أن الطبـــع لا زال غالبـــا ســـواء جهـــول القـــوم والمـــتعلم

فـــما بلغـــت منـــه الحـــضارة مأربـــا ولا نـــال منـــه العلـــم مـــا كـــان يـــزعم

يستنهض الشاعر في هذه الأبيات (شكسبير) لينظر من وراء الغيب ما حل بالبشرية مـن دماء وحروب، وإلى ما جناه تقدم العلم عـلى العـالم مـن ويـلات وشرور . ويـشير إلى تفـاني الناس وتكالبهم على حطام الدنيا. وقد ضجت منهم الأرض وعافتهم، وهـذا الطبـع غلـب عليهم، وعالمهم وجهولهم سواء في ذلك.

يراوح الشاعر في هذه الأبيات بين الخبر والإنشاء، فتبدو الأخبار في قوله:

على ظهرها... دم، وفوق عباب البحر.. دم، وقائع حرب ، أجج العلـم نارهـا، ويبـدو الإنشاء في قوله : أفق ساعة ... وانظر إلى الخلق.. فليتك تحيا، ... يا أبا الـشعر.. كـما ظهـرت المطابقة في قوله: جهول القوم والمتعلم.. وألفاظ الحزن في قوله: يصمي ويدمي ويؤلم.

ويقول فيها:

ألا إن ذكـــرى شكـــسبير بـــدت لنـــا بـــشير ســـلام ثغـــره يبتـــسم

فلـــو أنـــصفوا أبطالـــهم لتهـــادنوا قلـــيلا وحيـــوا شـــعره وترنمـــوا[2]

(١) أجج: أضرم.

(٢) ترنموا: تغنوا، تهادنوا: وضعوا الهدنة بينهم.

ولم يطلقـوا في يـوم ذكـراه مـدفعا ولم يزهقـوا نفـسا ولم يتقحمـوا[1]

يرى الشاعر أن ذكرى شكسبير تذكرنا بأنه كان داعية سلام للبشرية جمعاء، وما كانت البسمة تغادر ثغره، ويتمنى لو أن بريطانيا ومعها الغرب ترنمت وتغنت بشعر هذا العبقري، ودعت إلى السلام بدلا من دق طبول الحرب وإشعال نارها.

بهذا الأسلوب الخبري والتقريري، يعبر الشاعر عن ذكرى شكسبير وموقف بريطانيا ومعها الغرب منه.

ويقول فيها:

ولـوع بتـصوير الطبـاع فلـم يجـز بعاطفـة إلا حـسبناه يرسـم

أراني في (ماكبيـث) للحقـد صـورة تكـاد بهـا أحـشاؤه تتـضرم

وأقعدني عـن وصـف (همليـت) حـسنها وفي مثلهـا تعيـا اليراعـة والفـم

دع السحر في (روميو) و (جوليـت) إنـما يحـس بـما فيهـا الأديـب المتـيم[2]

أتـاهم بـشعر عبقـري كأنـه سـطور مـن الإنجيـل تـتلى وتكـرم

لقـد جهلـوه حقبـة ثـم ردهـم إليـه الهـدى فاسـتغفروا وترحمـوا

يثني الشاعر في هذه الأبيات على عبقرية شكسبير وموهبته المسرحية في كل من (ماكبث) و (شيلوك) و (روميو وجوليت) وهي جميعا من أشهر مسرحياته، ويصف الشاعر هذه المسرحيات بأنها تسحر النفوس، وتأسر القلوب، ويهيم بها الأديب المتيم، ولقد جهل

(١) يزهقوا: يهلكوا، يتقحموا : يلجوا .

(٢) شجتنا: أحزنتنا.

الإنجليز والغرب معه فضل هذا العبقري العظيم، ولكن سرعان ما عاد إليهم وشدهم وهداهم، فكفروا عن جهلهم بالاستغفار والترحم على روح هذا الشاعر العظيم.

لقد عبر حافظ إبراهيم عن عظمة هذا الشاعر الكبير وإبداعه الملهم في الفن المسرحي مستخدما أسلوبا خبريا وإنشائيا، تمثل في الألفاظ والعبارات التي تضمنتها هذه الأبيات.

وأخيرا يقول فيها:

فقل لبني التاميز والجمع حافل ... به ينثر الدر الثمين وينظم

لئن كان في ضخم الأساطيل فخركم ... لفخركم بالشاعر الفرد أعظم

يهنئ الشاعر الإنجليز بهذا العبقري الذي لم ينصفوه إلا بعد مماته، ويذكرهم قائلا لهم، إن كنتم تفخرون بما لديكم من أساطيل ومعدات حربية، فإن فخركم بهذا الشاعر العبقري الفذ أعظم من فخركم بها.

هكذا يكون حافظ إبراهيم قد عبر عما يكنه هو والمصريون من إعجاب وإكبار لهذا الشاعر العظيم الخالد، مؤديا واجبا إنسانيا في المشاركة في إحياء ذكراه، بعيدا عن التعصب للجنس أو للدين، وبعيدا عن النفاق والرياء، قال كلمة حق في شاعر عظيم طبقت شهرته الآفاق ولا تزال الإنسانية تعيش ذكراه.

ويقول في الزلزال الذي ضرب مدينة (مسينا) الإيطالية سنة ١٩٠٨: (من الخفيف):

نبئاني إن كنتما تعلمان ... ما دهى الكون أيها الفرقدان[(١)]

(١) الفرقدان: نجمان في السماء الشمالية قريبان من نجمة القطب.

غـــضب الله أم تمـــردت الأرض فأنحـــت عـــلى بنـــي الإنـــسان؟ [1]

لـــيس هـــذا ســـبحان ربي ولا ذاك ولكـــن طبيعـــة الأكـــوان

غليـــان في الأرض نفـــس عنـــه ثـــوران في البحـــر والبركـــان

رب أيـــن المفـــر والبحـــر والـــبر عـــلى الكيـــد للـــورى عـــاملان

كنـــت أخـــشى البحـــار والمـــوت فيهـــا راصـــد غفلـــة مـــن الربـــان [2]

فـــإذا الأرض والبحـــار ســـواء في خـــلاق كلاهمـــا غـــادران

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن شدة فزعه لما أصاب مدينة (مسينا) الإيطالية من زلزال وطوفان وبركان، فيتوجه بالسؤال إلى النجمين (الفرقدين) أن يخبراه عما جرى إن كانا يعلمان، إنه في دهشة وذهول، هل هو غضب من الله، أم تمرد من الأرض وغضب منها على الإنسان؟ ويعود الشاعر مستدركا وقائلا: ليس هذا نتيجة هذا أو ذاك وإنما الذي حدث هو من طبيعة الكون كظاهرة أرضية، وكان الشاعر يخاف ركوب البحار حذر الموت عندما يغفل ربان السفينة فيخطئ القيادة، ولكنه سرعان ما يدرك أن لا فرق بين ثورة الأرض وهيجان البحر فكلاهما سواء في خلاقهما وطبعهما وغدرهما.

ولقد استخدم الشاعر لغة تنطق بانفعاله وتأثره لهذا الحدث الجلل، مستخدما الألفاظ التي تحكي قصة الزلزال والطوفان والبركان، ومراوحا بين أسلوبي الإنشاء والخبر، فالطلب والتقرير، والنفي والاستفهام واضحة في هذه الأبيات.

(١) أنحت عليه: أحلت عليه غاضبة.

(٢) الربان: قائد السفينة.

ويقول فيها:

مـــا (لمــسين) عوجلـــت في صـــباها ... ودعاهـــا مـــن الـــردى داعيـــان[١]

ومحـــت تلكـــم المحاســـن منهـــا ... حـــين تمـــت آياتهـــا آيتـــان

خـــسفت، ثـــم أغرقـــت، ثـــم بـــادت ... قـــضي الأمـــر كلـــه في ثـــواني[٢]

وأتـــى أمرهـــا فأضـــحت كـــأن لم ... تـــك بـــالأمس زينـــة البلـــدان

ليتهـــا أمهلـــت فتقـــضي حقوقـــا ... مـــن وداع اللـــدات والجـــيران[٣]

بغـــت الأرض والجبـــال عليهـــا ... وطغـــى البحـــر أيـــما طغيـــان

فهنـــا المـــوت أســـود اللـــون جـــون ... وهنـــا المـــوت أحمـــر اللـــون قـــاني

جنـــد المـــاء والثـــرى لهـــلاك الخلـــق ... ثـــم اســـتعان بـــالنيران

فاســـتحال النجـــاء واســـتحكم اليـــاس ... وخـــارت عـــزائم الـــشجعان[٤]

وشـــفى المـــوت غلـــه مـــن نفـــوس ... لا تباليـــه في مجـــال الطعـــان[٥]

يصور الشاعر في هذه الأبيات ما أصاب مدينة (مسينا) وهي لا تزال في بداية بنائها وعمرانها، حيث أصابها عاملان من الموت، الزلزال والبركان، ومن ثم يتبعها الطوفان، وقد عملت هذه الثلاثة على مسح محاسنها بعد أن بلغت ذروة ازدهارها، فقد خسفها الزلزال

(١) الردى: الهلاك.

(٢) بادت: انتهى وجودها وانقرضت.

(٣) اللدات: الأصحاب والرفاق.

(٤) خارت: ضعفت.

(٥) غله: حقده.

والبركان وتبعها الطوفان فانتهى أمرها كله في ثوان معدودة، فأصبحت أثرا بعد عين، ويتمنى الشاعر لو أجلها القدر لتقوم بواجب الوداع للمدن الإيطالية الأخرى وما يجاورها من بلدان، لقد كان الزلزال قاسيا عليها، وكان البحر ظالما لها ظلما شديدا، وكان الموت مختلفا ألوانه فمنه الأسود الذي تمثل في حرق الأجساد ومنه الأحمر القاني الذي سببته نيران البركان، لقد شكل الموت جنوده من الطوفان، والزلزال، ودعمها بالبركان من أجل الإتيان على أهلها، فأحاطها الموت من كل جانب، وتعذر الإفلات والنجاة منها، فيئست، وضعفت العزائم، فكان الموت ما أراده في شفاء حقده من سكان هذه المدينة.

هكذا صور حافظ إبادة مدينة (مسينا) في جو من الذهول والدهشة، مستخدما الاستفهام، والإخبار، والتمني، والتقرير، ظهر كل ذلك من خلال الألفاظ والعبارات التي تضمنتها الأبيات، ويبدو الوصف المتأثر الحزين في البيت الثالث في قوله: خسفت، ثم أغرقت، ثم بادت، قضي الأمر كله في ثواني، ولا شك أن لحرف العطف هنا دلالته في الترتيب والتتابع والتراخي القريب.

كما يبدو في الأبيات المجاز المتمثل في الاستعارات والتشبيه كقوله، عوجلت في صباها، دعاها من الردى داعيان، وداع اللدات والجيران، بغت الأرض والجبال، طغى البحر، الموت أسود اللون جون، والموت أحمر قاني، جند الماء والثرى، شفى الموت غله من نفوس ...

ويقول فيها:

أيـن (ردجـو) وأيـن مـا كـان فيهـا ... مـن مغـان مأهولـة وغـواني[1]

عوجلت مثلها أختها ودهاها ... مادهاها من ذلك الثوران[2]

رب طفل قد ساخ في باطن الأرض ... ينادي: أمي أبي أدركان

وفتاة هيفاء تشوى على الجمر ... تعاني من حره ما تعاني[3]

وأب ذاهل إلى النار يمشي ... مستميتا تمتد منه اليدان

باحثا عن بناته وبنيه ... مسرع الخطو مستطير الجنان[4]

تأكل النار منه لا هو ناج ... من لظاها ولا اللظى عنه واني

يتساءل الشاعر في هذه الأبيات عن مصير (ردجو) الإيطالية، كيف انتهى؟ وأين ما كانت تحفل به من أحياء آهلة بسكانها وبنسائها الغواني، لقد أصابها ما أصاب مدينة (مسينا) من زلزال مدمر وبركان ثائر هائج، بدت آثارها في أطفال، ذكورا وإناثا، ابتعلتهم الأرض، وحرقت أجسامهم نيران البراكين، كانوا يعانون منها، وينظرون آباءهم وأمهاتهم مستغيثين ليسارعوا في إنقاذهم، كان الأب والأم ذاهلين حائرين يبحثان عن فلذات أكبادهما، بين أنقاض الزلزال ونار البركان، وقد لحق الأب ما لحقه من لظى النيران دونما رحمة أو مهلة للبحث عن أبنائه وبناته.

(١) الغواني: النساء الحسان.

(٢) دهاها: أصابها.

(٣) هيفاء: ضامرة الخصر .

(٤) الجنان: القلب.

حقا إنه مشهد محزن يمزق نياط القلوب، ويدمى النفوس، عبر عنه حافظ إبراهيم بهذه اللغة السلسة الحزينة المؤثرة التي تثير العواطف، وتؤجج المشاعر الإنسانية حيال حدث من أعمال الطبيعة، ردم البنيان وأهلك الإنسان ... وقد توزع أسلوبه بين الإنشاء والإخبار والتقرير، وذلك من خلال الألفاظ والعبارات التي تضمنتها هذه الأبيات.

ويقول فيها:

لهف نفسي وألف لهف عليها ... من أكف كانت صناع الزمان[1]

مولعات بصيد كل جميل ... ناصبات حبائل الألوان

حافرات في الصخر أو ناقشات ... شائدات روائع البنيان

منطقات لسان كل جماد ... مفحمات سواجع الأفنان[2]

ملهمات من دقة الصنع مالا ... يلهم الشعر من دقيق المعاني

من تماثيل كالنجوم الدراري ... يهرم الدهر وهي في عنفوان[3]

عجب صنعها وأعجب منه ... صنعه تلك قدرة الرحمن

يحزن الشاعر في هذه الأبيات على ما أصاب مدينة (مسينا) ويتلهف على تلك الأكف التي قضمها الزلزال والبركان، وهي أكف برعت في التحت والتصوير والنقش وتشييد أروع أنواع البناء، لقد أنطقت الجماد بإبداعها وأسكتت الطيور بألفاظها ، لقد ألهمها الله من الموهبة

---

(١) لهف نفسي: نفس متألمة.

(٢) سواجع الأفنان: كناية عن الطير، الحمام خاصة.

(٣) الدراري: النجوم المشبهة لحبات الدر، العنفوان: أول الشيء.

ودقة البناء، لقد أنطقت الجماد بإبداعها وأسكتت الطيور أنفاسها، لقد ألهمها الله من الموهبة ودقة الصنع، مالا يتهيأ للشعر من معان، ولقد برعت في صنع التماثيل التي تحاكي النجوم جمالا ولمعانا لا يزولان مدى الدهر، ويعجب الشاعر في صنع ولكن أعجب منه صنع الله – سبحانه – الذي أحسن كل شيء خلقه.

بهذه اللغة المتلهفة الحزينة يتأسى الشاعر على ما كانت عليه مدينة (مسينا) من حضارة وصناعة وتصوير، لكنها أصبحت أثرا بعد عين، جاء ذلك من خلال ألفاظ التلهف والتحسر التي تضمنتها هذه الأبيات.

ويقول فيها:

أنت (مسينا) لن تزولي كما زالت ... ولكن أمسيت رهن الأوان
إن إيطاليا بنوها بناة ... فاطمئني ما دام في الحي باني
فسلام عليك يوم توليت ... بما فيك من مغان حسان[1]
وسلام عليك يوم تعودين ... كما كنت جنة الطليان
وسلام كل حي على الأرض ... على كل هالك فيك فاني
وسلام على الألي أكل الذئب ... وناشت جوارح العقبان[2]
وسلام على كل امرئ جاد ... بالدمع وثنى بالأصفر الرنان[3]

---

(١) المغاني: القصور والدور.

(٢) ناشت: نهشت.

(٣) الأصفر الرنان: كناية عن الدنيار.

ذاك حـــق الإنـــسان عنـــد بنـــي الإنـــسان لم أدعكـــم إلى إحـــسان

هــا هنــا مــصرع الــصناعة والتــصوير والحـــذق والحجـــا والأغـــاني[1]

يخاطب الشاعر مدينة (مسينا) نافيا زوالها كما زالت (ردجو)، ويـرى أن مـا أصـابها أمـر طارئ خارج عن إرادتها، ودولة إيطاليا يـسودها رجالهـا، ويطمئنهـا بـأن سـتعود إلى سـابق عهدها طالما بناتها موجودون على ظهر الأرض، وف الوقت نفسه يتأسى عـلى مـا ذهـب مـن مغانها الحسان، ويزجيها تحياته يوم تعود كسابق عهدها جنة وفردوسا للطليان، ويبلغها سلام كل حي على الأرض إلى أولئك الذين قضوا وفنـوا جـراء مـا أصـابها مـن كارثـة، والـسلام موصول إلى أؤلئك الذين أكلـت الحيوانـات المفترسـة لحـومهم، ونهـشت الطيـور الجارحـة أجسامهم، والسلام موصول إلى كل إنسان جادت عيناه بالدمع حزنا عليهم، وأتبعهـا بالمـال للتخفيف من مصابهم، ويشير في نهاية القصيدة إلى أن (مسينا) كانت مكانا لمصرع مـا عـرف عن الطليان من مهارة وإبداع في عالم الصناعة والتصوير والفكر والغناء.

هكذا طال نفس الشاعر في هذه القصيدة لتصل أبياتها إلى ستين بيتا، وما كان ذلـك ليـتم للشاعر لولا تأثره الشديد والصادق لهذا الحدث الإنساني، ولولا أنه يحمل بين حوانجه نفـسا تشارك الإنسانية جمعاء فيما يصيبها من فجائع ومصائب، لقد استخدم الشاعر ألفاظا وتعـابير صورت هول الفجيعة التي ألمت (بمسينا) ومن قبلها أختها (ردجو)، مراوحـا مـا بـين الخـبر والإنشاء، والتقرير وإيراد الصور البيانيـة المتمثلـة في الاسـتعارات والتـشبيهات والكنايـات والرموز، من مثل قوله: مـادهى الكـون، غـضب الله أم تمـردت الأرض، غليـان في الأرض، دعاها من الردى، داعيان، ثوران في البحر والبركان، أين المفر، عوجلت في صباها، خـسفت،

(١) الحجا: العقل.

أغرقت، قضي الأمر كله في ثوان، وداع اللدات والجيران، بغت الأرض والجبال، وطغى البحر أيما طغيان، هنا الموت أسود اللون جون، وهنا الموت أحمر اللون قاني، استعان بالنيران، استحال النجاء، استحكم اليأس، خارت عزائم الشجعان، شفى الموت غله من نفوس، رب طفل ساخ في باطن الأرض، ينادي أمي أبي أدركاني، فتاة هيفاء تشوى على الجمر، تعاني من حره ما تعاني، أب ذاهل، مستميتا، باحثا عن بناته وبنيه، مستطير الجنان، تأكل النار منه، اللظى عنه واني، غصت الأرض، أتخم البحر، طوياه من هذه الأبدان، لهف نفسي، أكل الذئب وناشت جوارح العقبان، هنا مصرع الصناعة والتصوير والحذق والحجا والأغاني ...

ولعل سائلا يسأل: ما الذي هدف إليه حافز إبراهيم من هذا الوصف؟ وهل كان شاهدا له؟ وماذا يعنيه من (مسينا) الإيطالية ومدن إيطاليا الأخرى؟ والجواب على مثل هذه الأسئلة أو التساؤلات هين بسيط، وهو أن حافظ إبراهيم لم يكن ينتظر جائزة، أو ينال نوالا، ولم تربطه (بمسينا) وسكانها رابطة معتقد أو مذهب أو جنس، وإنما الرابطة القوية التي تسلح بها في تصويره هذا هي رابطة إنسان بأخيه الإنسان أينما وجد وفي أي مكان وزمان وحسب.

ويقول في قصيدة يرثي فيها (جورج الخامس) ملك إنجلترا (من البسيط):

إن الذي كانت الدنيا بقبضته ... أمسى من الأرض يحويه ذراعان

وغاب عن ملكه من لم تغب أبدا ... عن ملكه الشمس من عز وسلطان

يتأسى الشاعر في هذين البيتين على (جورج الخامس) ملك بريطانيا الذي اخترمه الموت تاركا ملكه الواسع الممتد، ولم يعد يملك من الدنيا سوى ذراعين من الأرض ضما جثمانه، لقد غاب هذا الملك عن ملك ما غابت الشمس عنه لما كان عليه من عز وسلطان وفي ذلك إشارة إلى بريطانيا العظمى التي كانت لا تغيب الشمس عن ملكها فما أن تغيب عن أرض إلا

وتشرق في أرض أخرى من مملكة بريطانيا. وكأن لسان الشاعر يقول دوام الحال من المحال وكل الأنام حكاما ومحكومين إلى انتهاء وزوال. وذلك واضح في قوله: كانت الدنيا بقبضته... أمسى من الأرض يحويه ذراعان. ورثاء حافظ لهذا الملك لم يكن من أجل رغبة يريدها. أو نوال يطمع فيه، لم يكن ينظر أن يكون وريثا لذلك الملك، وإنما كان الدافع الإنساني وراء هذا الرثاء.

ويقول في قصيدة يرثي بها (فكتوريا) ملكة بريطانيا التي توفيت سنة ١٩١١ (من البحر الوافر) :

أعزي القوم لو سمعوا عزائي — وأعلن في مليكتهم رثائي

وأدعو الإنجليز إلى الرضاء — بحكم الله جبار السماء

فكل العالمين إلى فناء[١]

يعزي الشاعر الإنجليز بوفاة ملكتهم (فكتوريا) داعيا إياهم إلى التحلي بالصبر والرضا بإرادة الله، وفي الوقت نفسه يعلن مشاركته مصابهم.

ويقول فيها:

أشمس الملك أم شمس النهار — هوت أم تلك مالكة البحار[٢]

فطرف الغرب بالعبرات جاري — وعين اليم تنظر للبحار[٣]

---

(١) فناء: زوال.

(٢) شمس الملك: قصد ملكة بريطانيا، هوت: غابت ، اختفت .

(٣) العبرات: جمع عبرة: الدموع، اليم: البحر .

بنظـرة واجـد قلـق الرجـاء[1]

يصور الشاعر في هذه الأبيات جزع البريطانيين وحزنهم لفقد الملكة، وكان هـذا الجـزع موصولا بجزع البحار وغير البحار، وفي هذا المقطع إشارة إلى أسطول بريطانيا العظيم....

ويلاحظ استخدام الشاعر للصور البيانية المتمثلة في الاستعارة في قولـه: أشـمس الملـك ومقابلتها بشمس النهار، وطرف الغرب بـالعبرات جـاري، كـما تظهـر الاسـتعارة المكنيـة في قوله: وعين اليم تنظر للبحار .

ومشاركة حافظ إبراهيم للإنجليز في العزاء بمليكتهم هي مشاركة إنسانية أملتهـا عليـه إيمانه بأن الإنسان أخو الإنسان أينما كان.

وحافظ إبراهيم صاحب عاطفة إنسانية جياشـة، تهزهـا الأحـداث الجاريـة في الكـون، وتحزن على رموز الأمم المشهورين. فها هو يرثي (تولستوي) الأديب الروسي المشهور، يقول (من الطويل):

رثـاك أمـير الـشعر في الـشرق وانـبرى	لمـدحك مـن كتـاب مـصر كبـير[2]
ولـست أبـالي حـين أرثيـك بعـده	إذا قيـل عنـي قـد رثـاه صـغير
فقـد كنـت عونـا للـضعيف وإننـي	ضـعيف ومـالي في الحيـاة نـصير
ولـست أبـالي حـين أبكيـك للـورى	حوتـك جنـان أم حـواك سـعير[3]

---

(١) الواجد: الحزين .

(٢) انبرى: تحرك ، كبير : صفة لرجل أو كاتب .

(٣) الورى: الناس .

فـــإني أحـــب النـــابغين لعلمهـــم ... وأعـشق روض الفكـر وهـو نـضير[1]

لا ضير إذا ما نهض حافظ للمشاركة في رثاء (تولستوي) فهو يدلي بـدلوه فيرثيـه بعـد أن رثاه أمير الشعراء شوقي من قبل، كما رثاه نفر غير يسير من أدباء مصر، ويقول إن كنت أرثيه، فأنا أرثيه؛ لأنه كان عونا للضعيف، وأنا من هؤلاء الـضعفاء ولـيس لي نـصير في هـذه الحيـاة سوى الله، كما أنني أرثيه لنبوغه ومواهبه لا لشيء غير ذلـك، ولا يهمـه إن كـان سـيكون مـن أهل الجنة أو من أهل السعير، بهذا التواضع الجم يشارك حـافظ إبـراهيم في رثـاء تولـستوي، غير مبال إن قيل عنه قد رثاه شاعر صغير بعد أن رثاه شاعر مصر الكبير أحمد شوقي.

وتبدو الصورة البيانية الرائعة في قوله: أعشق روض الفكر وهو نضير .

ويقول فيها:

دعـوت إلى عيـسى فـضجت كنـائس ... وهــز لهــا عــرش ومــاد سريــر[2]

وقـــال أنـــاس إنـــه قـــول ملحـــد ... وقـــال أنـــاس إنـــه لبـــشير[3]

ولـــولا حطـــام رد عنـــك كيـــادهم ... لـضقت بـه ذرعـا وسـاء مـصير

ولكــن حمــاك العلــم والــرأي والحجــا ... ومــال – إذا جــد النــزال – وفــير[4]

(١) نضير: زاهر.

(٢) ماد: تحرك ، والسرير: العرش، كناية عن الحكام .

(٣) الملحد: الناكر للبعث والنشور.

(٤) الحجا: العقل، النزال : العراك والصراع .

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن مبادئ وأفكار تولستوي، حيث قوبلت بالضجة والاستنكار من قبل رجال الكنائس، واهتزت لها عروش، وتحركت سرر، وقد توزع الناس نحو دعوته فمنهم من اتهمه بالكفر، ومنهم من قال إنه بشير من المبشرين الداعين إلى إسعاد البشرية. والحقيقة إنه داعية لما دعا إليه السيد المسيح من قبل، رحمه بالفقراء والمساكين.

تبدو لغة الشاعر الإنسانية في هذه الأبيات وتلقي بظلالها على ما يرمي إليه من معان، ترجمتها ألفاظه وتعابيره المستخدمة في هذه الأبيات المستلة من قصيدته في رثاء (تولستوي) ، كمثل قوله: رثاك أمير الشعر في الشرق، حين أبكيك للورى، ضجت كنائس، هز لها عرش، ماد سرير...

ويقول من قصيدة يعزي فيها بالطيار العثماني (فتحي بك) الذي لقي حتفه في حادثة سقوط طائرته وهو في طريقه إلى مصر (مجزوء الكامل):

أهلا بأول مسلم ... في المشرقين علا وطارْ

النيل والبسفور فيك تجاذبا ذيل الفخار[1]

يوم امتطيت براقك الميمون واجتزت القفار[2]

يحيي الشاعر هذا الطيار العثماني المسلم الذي اعتلى متن الهواء فكان أول مسلم قام بهذا العمل الكبير مجتازا الفيافي والقفار، كما كان فخرا لكل من المصريين والأتراك .

(١) البسفور: مضيق مشهور في الآسنانة.

(٢) البراق: اسم الدابة التي سرى بها النبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج إلى السماء .

ويقول فيها:

(فتحـــي) بربـــك مـــا رأيـــت بـــذلك الفلـــك المـــدار

أبلغـــت تـــسبيح الملائـــك أو دنـــوت مـــن الـــسرار[1]

أرأيـــت ســـكان النجـــوم وأنـــت في ذاك الجـــوار

أهنـــاك في (المـــريخ) مـــا في الأرض مـــن علـــل الـــشجار[2]

أهنـــاك يـــستعدي الـــضعيف عـــلى القـــوي فـــلا يجـــار

يسأل الشاعر في هذه الأبيات الطيار (فتحي بك) عما رآه وهو يحلق في الفضاء، يسأله عن تسبيح الملائكة، وعن مشاهداته التي مر بها.

ويقول فيها:

يـــا أيهـــا الطيـــار طـــر فـــإذا بلغـــت مـــدى المطـــار

فـــزر الـــسها والفرقـــدين إذا أتـــيح لـــك المـــزار[3]

وســـل النجـــوم عـــن الحيـــاة ففـــي الـــسؤال لـــك اعتبـــار

هـــم ينبئونـــك أن كـــل الكائنـــات إلى بـــوار[4]

(١) السرار: المناجاة .

(٢) الشجار: النزاع.

(٣) السها: نجم خافت صغير، والفرقدان: نجمان متقاربان يقعان في السماء الشمالية.

(٤) بوار: هلاك.

والظلـــم مـــن طبـــع النظـــام فـــإن ظلمـــت فـــلا تمـــار[١]

إن الـــذي بـــرأ الـــسديم هـــو الـــذي بـــرأ الغبـــار[٢]

في العـــالم العلـــوي والـــسفلي أحكـــام تـــدار

خلـــق الـــضعيف لخدمـــة القـــوي ولـــيس لـــه خيـــار

يخاطب الشاعر هذا الطيار ويحثه أن يرتفع أكثر في أجواء الفضاء ليزور نجوم السها والفرقدين، ويسائلها عن سر الحياة وعن الظلم، وصراع البشر والخلق، وكيف أن الله – سبحانه – هو الذي خلق الأرض والسماء والنجوم، وفي كل هذا عبرة وعظة للإنسان، فكل ذلك مآله إلى زوال واندثار.

ويقول فيها:

في ذمـــــة الآفـــــاق سر ... وارجـــع إلى تلـــك الـــديار

واجعـــــل تحيتنـــــا إلى ... بلـــد بـــه الملـــك دار

دار عليهـــــا للخلافـــــة ... والهـــدى رفـــع المنـــار

مـــا عـــابهم أن الـــصعود ... يليـــه في الـــدهر انحـــدار

فلكـــل غـــاد روحـــة ... ولكـــل وضـــاء سرار[٣]

ولـــسوف يعلـــو نجمهـــم ... ويـــسود ذيـــاك الـــشعار

---

(١) تمار: تنازع .

(٢) السديم: النجوم المجتمعة تشبه الضباب . ، برأ: خلق .

(٣) الوضاء:البهي الطلعة والوجه، والسرار: الغياب.

يحتسب الشاعر هذا الطيار في ذمة الله بعد أن قضى نحبه وهو محلق في أجواء الفضاء، ويحمله تحياته لينقلهاالى ذلك البلد الذي هو قطب البلاد إلى الأستانة عاصمة خلافة العثمانيين، ومركز الخلافة والإشعاع والهداية، ويرى أنه لا استغراب أن يعقب صعودهم انحدار فهذه هي سنة الحياة، فما من غاد مبكر إلا له روحة وعودة، وكل ما هو مضيء بهي الطلة لا بد أن يفتر ويغيب، ولكن الشاعر لا يزال متفائلا يحدوه الأمل في أن تعود الخلافة العثمانية إلى سابق عهدها فيعلو نجمهم وترتفع راياتهم فوق تلك الديار التي حكموها.

بهذه الروح وبهذه الحماسة يفخر الشاعر بهذا الطيار العثماني المسلم، الذي كان ينوي زيارة مصر وهو يحلق بطائرته في عنان السماء، ولكن شاء الله – سبحانه– وقدر أن لا تتم تلك الزيارة .. ولقد عبر الشاعر عن فخره وحزنه في آن واحد بهذا الطيار الذي كان مثالا للطيار المسلم، وقد سادها لغة الحزن التي برزت من خلال الألفاظ التي استخدمها الشاعر للتعبير عن هذه المعاني، فضلا عن إطرائه للعثمانيين وسلاطينهم، وقد راوح في أسلوبه ما بين الإنشاء والخبر، وإيراد الاستعارات والتشبيهات والكنايات والإشارات التاريخية، وما في عالم الفضاء من أفلاك ونجوم.

ويقول في قصيدة في رثائه لكل من (فتحي وصادق) الطيارين العثمانيين اللذين سقطت طائرتهما في بلاد الشام (مجزوء الكامل):

أخت الكواكب ما رماك ... وأنت رامية النسور[1]

ماذا دهاك وفوق ظهرك مربض ... الأسد الهصور[2]

---

(١) أخت الكواكب: كناية عن الطائرة.

(٢) دهاك: أصابك، الهصور: الشجاع.

خضعت لإمرته الرياح ... من الصبا والدبور[1]

فغدا يصرف من أعنتها ... تصاريف القدير[2]

يتساءل الشاعر في هذه الأبيات عن سر سقوط الطائرة، إنها الريح التي لا ترحم، ويقول كيف سقطت أيتها الطائرة، وقد كنت مربضا لذلك الطيار الشجاع، الذي خضعت ليسطرته الرياح صباها ودبورها، وأخذ يمسك بزمامها إمساك المتمكن القادر على قيادته.

والشاعر في هذه الأبيات يعرب عن دهشته واستغرابه لسقوط الطائرة في الوقت الذي كان يقودها طيار ماهر، بدا ذلك من خلال ألفاظها وعباراتها، والتي تنوعت بين الإنشاء والخبر، وإيراد الكنايات والتشبيهات.

ويقول فيها:

(فتحي) وهل لي إن سألت ... عن المصيبة من مخير؟

ويلاه هل جزت الحدود ... وأنت مخترق الستور؟

فرماك حراس السماء ... وتلك قاصمة الظهور؟[3]

أم غار منك السابحات ... وأنت تسبح في الأثير[4]

فوردت يا (فتحي) الحمام ... وأنت منقطع النظير[5]

---

(١) الدبور: ريح السموم بخلاف الصبا.

(٢) أعنتها: أزمتها.

(٣) حراس السماء: كناية عن الشهب، قاصمة الظهور: قاطعتها.

(٤) السابحات: كناية عن النجوم والكواكب.

(٥) الحمام: الموت.

وهويـــــت مــــن كبـــد الـــسماء	وهكــــذا مهـــوى البــــدور
إن كــــان أعيــــاك الـــصعود	بـــــذلك الجــــسد الطهــــور
فاســــبح بروحـــك وحـــدها	واصـــعد إلى الملـــك الكبـــير[1]

ينادي الشاعر الطيار (فتحي) فيما إذا كان يستطيع إجابته عن المصيبة التي حلت به، ويستفظع الشاعر هوي فتحي الطيار إلى الأرض، ويبحث عن السر أكان غيرة النجوم منه وحسده إياه لمزاحمته إياها؟ ويترحم الشاعر على هذا الطيار المنقطع النظير، وقد عاجله الموت وهو يهوي من عنان السماء كما تتهاوى النجوم والبدور، فكان نعم الطيار الذي صعد بروحه إلى الخالق البارئ الملك المتعالي الكبير، ليلقى أحسن جوار.

بهذا الأسلوب الذي تقطر لغته حزنا وأسى لموت هذا الطيار، عبر الشاعر عن المصيبة التي لحقت بالمسلمين نتيجة سقوط هذه الطائرة التي أودت بحياة ذلك الطيار الماهر القدير، وقد استخدم فيها الشاعر أسلوب النداء والتحسر الذي خدم ما قصد إليه الشاعر من معان، يبرز ذلك من خلال قوله: سألت عن المصيبة من مخبر، ويلاه، رماك حراس السماء، وتلك قاصمة الظهور، فوردت يا (فتحي) الحمام، وهويت من كبد السماء، هكذا مهوى البدور..

وهكذا يبدو حافظ إبراهبم متأثرا حزينا من خلال ما عرضناه من نماذج، يشارك فيها أخاه الإنسان، فتهزه المصائب، وتحركه الأشجان، فيعبر عنها تعبير الواله الحيران، ويستخدم فيها الكنايات والاستعارات والتشبيهات التي تضمنتها الأبيات المختارة.

---

(١) الملك الكبير: الله سبحانه وتعالى.

٦- الخمريات:

الشباب والفراغ مفسدة للمرء أي مفسدة.

عاش حافظ إبراهيم طفولته وشبابه مشردا ضائعا هائما على وجهه، يبحث عن أمل مفقود، وملاذ يزجي فيه فراغه الذي يطول ولا ينتهي، وأنى يتأتى له ذلك وهو الذي لم تبتسم له الحياة كما ابتسمت لغيره، تراه يجوب الشوارع ويتنقل داخل الأزقة، لعله يجد ضالته التي تخفف من وحدته وعزلته، يلج أبواب الحانات، يكرع كؤوس الخمرة يتبادلها مع رواد حاناتها، فقد يكون فيها ما يسرى عما يعانيه من هموم وما ينتابه من مصائب ... فلعل وعسى...

فها هويقول في (الخمرة) (من الكامل):

هـذا الظـلام أثـار كـامن دائـي　　　يـا سـاقيي عـلي بالـصهباء[(١)]

بالكـاس أو بالطـاس أو بـاثنتيهما　　　أو بالـدنان فـإن فيـه شـفائي[(٢)]

جريا على عادة القدامى من الشعراء، يخاطب الشاعر ساقيي الخمرة طالبا إليهما أن يحضرا له الصهباء وهي الخمرة، متعجلا إياهما بأن يسكباها بأي إناء من آنيتها بالكاس أو بالطاس أو بالدنان، فهو متلهف لمعاقرتها.

ويقول فيها:

---

(١) الصهباء: اسم من أسماء الخمرة من الصهبة وهي الحمرة.

(٢) الدنان: جمع دن وهو وعاء الخمرة الكبير.

يا صاحبي كيف النزوع عن الطلا ولقد بليت من الهموم بداء[1]

ألفت بين ابن السحاب وبينها فرأيت صحة ما حكاه الطائي[2]

(صعبت وراض المزج سيء خلقها فتعلمت من حسن خلق الماء)

حقا:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

بهذه اللغة يصف حافظ إبراهيم الخمرة، فهي تعبر عن واقع كان يعيشه، شباب وفراغ وتسكع وتشرد وضياع، ظلام يهز كامن دائه، يرتاد الحانة وينادي بالساقيين لتقديم الصهباء بأي من آنيتها فهو هائم بها هيام العاشق بمعشوقته، ويؤاخي بينها وبين ماء السحاب مستشهدا ببيت أبي تمام المضمن بين قوسين والذي يفصح عن صفة الخمرة .. وفي الوقت نفسه يبين شدة تعلقه بالخمرة، واستحالة الانقطاع عن شربها، وكيف يتأتى له ذلك وهو المهموم المغموم، لا يزيل همه سوى الخمرة.

ويقول في قصيدة بعثها إلى (محمود المويلحي) الكاتب والأديب (من الخفيف):

أوشك الديك أن يصيح ونفسي بين هم وبين ظن وحدس[3]

يا غلام، المدام والكاس والطاس وهيئ لنا مكانا كأمس[4]

(١) الطلا: الخمرة، النزوع: الكف والانقطاع.

(٢) الطائي: المراد به أبو تمام الشاعر العباسي المشهور من قبيلة طيء.

(٣) الحدس: الظن.

(٤) المدام: الخمرة، الطاس: الكاس.

أطلــق الــشمس مــن غياهــب هــذا   الـدن وامـلأ مـن ذلـك النـور كـأسي[1]

وأذن الـــصبح أن يلـــوح لعينـــي   مـن سـناها فـذاك وقـت التحـسي[2]

يطلب الشاعر من النادل (الغلام) أن يهيء آنية الخمرة ويعد مكانا كالمكان الذي كان فيه أمس، ويطلب منه أن يسارع بملئها فقد شارف الليل على انتهائه، ويرى أن للخمرة وقت لاحتسائها.

بهذه اللغة يخاطب الشاعر نادل الخمرة، وهو الذي اعتاد ارتياد حاناتها في أوقاتها المحددة والتي يطيب فيها معاقرتها، إنه يتفنن في نعتها؛ لأنه الخبير بأسرارها ... وقد استخدم الصور البيانية من تشابيه واستعارات تضمنتها الأبيات.

ثم يقول:

يـــا نـــديمي بـــالله قـــل لمـــاذا   هـــذا الخنـــدريس تـــدعى بـــرجس[3]

هـــي نفـــس ذكيـــة وأبوهـــا   غرســـه في الجنـــان أكـــرم غـــرس[4]

هــي نفــس تعلمــت حــسن أخــلاق   (المـــوحي) في صـــفاء وأنـــس

خصه الله حيث يـصبح بالإقبـال، والعـز   والعـــلا، حيـــث يمـــسي

(١) الشمس: كناية عن الخمرة، غياهب: ظلمات، الدن: وعاء الخمر.

(٢) السنى: الضياء والنور، التحسي: الشرب من الكأس.

(٣) الرجس: الإثم، الخندريس: صفة للخمرة التي تذهب العقل

(٤) الجنان: البساتين.

يخاطب الشاعر نديمه متعجبا عن سبب اعتبار الخمرة رجسا، وهي الزكية الطعم، العريقة النسب، وزكاتها كزكاوة صديقه المويلحي.

بهذا الأسلوب الصريح يتحدث حافظ عن الخمرة حديث الهائم بها، العالم بأسرارها وطعمها ونسبها، مستخدما ألفاظا تحكي صفاتها، وتثني على فوائدها ... فها هو مرة ينادي نديمه، وأخرى يخبر بزكاوتها وطيبها.

وكما أومأت آنفا، كان حافظ إبراهيم سيء الطالع، عاثر الحظ، قلقا، تلازمه الهموم والأحزان، يبحث عن السعادة فلا يظفر بها، وينشد الراحة فلا يجدها، ولعل ذلك كان من الأسباب التي دفعته إلى ارتياد دور الخمرة للتنفيس عما يعانيه من هم وغم، وألفاظه التي يستخدمها تفصح عن ذلك من مثل قوله: نفسي بين هم وبين ظن وحدس ...

ويقول في قصيدة وكان يومها في السودان متذكرا مجلسا للخمرة مع مجموعة من صحبه (من الرمل):

فتية الصهباء خير الشاربين   جددوا بالله عهد الغائبين

واذكروني عند كاسات الطلا   إنني كنت إمام المدمنين[1]

وإذا ما استنهضتكم ليلة   دعوة الخمر فثوروا أجمعين

يخاطب الشاعر في هذه الأبيات الفتية الذين اتخذوا من الخمرة صحبة لهم، مثنيا عليهم بأنهم خير من تعاطى الخمرة، وطالبا منهم أن يجددوا عهده بهم وهو بعيد غائب عنهم، وأن يتذكروه كلما جمعتهم مجالس الخمرة، مذكرا إياهم بأنه أستاذ المدمنين عليها، بهذه الدعوة

(١) المدمن: المواظب على تعاطيها.

الصريحة والمكشوفة يصور حافظ مجالس شرب الخمرة وشاربيها مستخدما اللغة التي تنم عن خبرة وطول عهد بها، فأصحابه فتية الصهباء، وهم خيرة الشاربين، وهو إمام المدمنين، وصخب وثورة من الأجمعين.

ويقول:

رب ليل قد تعاهدنا على ... ما تعاهدنا وكنا فاعلين

فقضيناه ولم نحفل بما ... سطرت أيدي الكرام الكاتبين[1]

بين أقداح وراح عتقت ... ورياحين وولدان وعين[2]

وسقاة صففت أكوابها ... بعضها البلوروالبعض لجين[3]

آنست منا عطاشا كالقطا ... صادفت وردا به ماء معين[4]

فمشت بالكاس والطاس لنا ... مشية الأفراح للقلب الحزينْ

وتواثبنا إلى مشمولة ... ذات ألوان تسر الناظرين[5]

عمد الساقي لأن يقتلها ... وهي بكر أحصنت منذ سنين[6]

ثم لما أن رأى عفتها ... خاف فيها الله رب العالمين

(١) الكرام الكاتبين: كناية عن الملكين اللذين يسجلان على المرء حسناته وسيئاته.

(٢) الولدان: الخدام، كناية عن السقاة، العين: هي الحور في الجنة، كناية عن الساقيات.

(٣) اللجين: الفضة.

(٤) القطا: الحمام البري، معين: ماء نمير سلسل.

(٥) المشمولة: صفة للخمرة.

(٦) قوله ليقتلها: إشارة الى مزجها بالماء، وأحصنت: صارت محصنا ذات بعل أي غير بكر.

يتذكر الشاعر في هذه الأبيات ليلا من ليالي مجالس الخمرة ضمته مع صحبه، وقد تعاهدوا فيه على مقارعة كؤوسها غير آبهين بما يرتكبونه من آثام يسجله، الملكان الموكلان بمراقبة الإنسان، ويذكر أن تلك المجالس كانت حافلة باللذة والمتعة حيث أقداح الخمرة المتنوعة والسقاة والساقيات، والندمان، والورد والريحان.

هكذا يصور الشاعر ليلة أنس جمعت الأصحاب على كؤوس الخمرة، رامين بعرض الحائط ما يقترفونه من آثام، واصفا سقاتها وأقداحها، وإحساسها بعطشهم حيث كانوا كطيور القطا وقد وردت ماء فراتا يلذ للشاربين، تزيل همهم وتطرد غمهم وتغمر قلوبهم الحزينة بالأفراح والمسرات، ويذكر كيف كان السقاة يكسرون حدتها بالماء، فصارت محصنا ذات بعل أي غير بكر، وعندما أيقن عفتها، تذكر مخافة رب العالمين.

تكثر في هذه الأبيات الإشارات الدينية والاجتماعية، كما يظهر فيها الصور البيانية التي تمثلت بالكنايات والاستعارات والتشبيهات، وهي واضحة جلية لا تدق عن ذي فكر قويم وذوق سليم.

ويقول فيها:

هكـــــذا كنـــــا بأيـــــام الـــــصفا ... ننهـــب اللـــذات في الوقـــت الثمـــين

ليــت شــعري هــل لنــا بعــد النــوى ... مـــن ســـبيل للقـــا أم لات حـــين

في هذين البيتين يتلهف الشاعر حسرة لذهاب هاتيك الأيام والليالي العامرة التي لن تعود بفعل تقدم العقل والسنين، وهكذا كان الشاعر مع صحبه في أيام الصفا يسارعون إلى اهتبال الفرص لاحتساء الخمرة، ولكن عقارب الزمان لن تعود إلى الوراء، وإن ما اجتزأناه

من أبيات هذه القصيدة ليدل دلالة واضحة على ما تضمنته من الحزن والأسى والحسرة التي لازمت الشاعر ماضيا وحاضرا حتى وهو في أيام صفائه، ولن يكون المستقبل أحسن حالا.

٧- الغزليات:

لم يكن حافظ إبراهيم بدعا في الناس، فهو إنسان له قلبه وله عواطفه تجاه الجنس الآخر، ولنا أن نتساءل في هذا الصدد، هل طرق الحب قلب حافظ؟ وهل كان الحب منبعثا عن لوعة مشبوبة، أو حرقة حب مكبوتة، أو تباريح صبابة؟ وللإجابة عن هذا لتساؤل نعرض نماذج من قصائده في الغزل، ومن ثم نحكم على صدق هذا الحب أو زيفه.

يقول في قصيدة بعنوان (أنا العاشق العاني) (من الطويل):

أنا العاشق العاني وإن كنت لا تدري ... أعيذك من وجد تغلغل في صدري[1]

خليلي هذا الليل في زيه أتى ... فقم نلتمس للسهد درعا من الصبر[2]

وهذاالسرى نحو الحمى يستفزنا ... فهيا وإن كنا على مركب وعر[3]

خليلي هذا الليل قد طال عمره ... وليس له غير الأحاديث والذكر

فهات لنا أذكى حديث وعيته ... ألذ به إن الأحاديث كالخمر

يفصح حافظ ابراهيم وبضمير المتكلم في هذه الأبيات بأنه عاشق معنى وإن كان لا يدري بذلك من يخاطبه، فهو يشكو ثقل وطأة الحب والعشق، كما يشكو ما يعانيه في الليل من

(١) العاني: المتعب، الوجد: حرقة الحب، تغلغل: نفذ وتمكن.

(٢) السهد: الأرق.

(٣) يستفزنا: يستحثنا، السرى: السير ليلا.

حرقة الحب وطول السهر، ويطلب ممن يخاطبه أن يدير أطراف أذكى الأحاديث، فذكرها تكون بمثابة البلسم الشافي والخمر الصافي، حيث يشعر فيها بلذة ما بعدها لذة.

بهذه اللغة، لغة الحب والهوى يتحدث حافظ عن معاناته منه، وتلقي بظلالها الثقيلة على قلبه المتعب من شدة الوجد، يبدو ذلك من خلال ألفاظه: أنا العاشق العاني، من وجد تغلغل في صدري، نلتمس للسهد درعا، هذا الليل قد طال عمره، هات لنا أذكى حديث وعيته.

وقال متغزلا:

قالت الجوزاء حين رأت ... جفنه قد واصل السهرا[1]

ما لهذا الصب في وله ... أتراه يعشق القمرا

فنجوم المجموعة الشمسية المسماة بالجوزاء تسأل حافظ إبراهيم حين رأته يعاني من السهد والسهر الدائمين، يا ترى ما سبب حيرة هذا المحب العاشق، أيكون ذلك نتيجة عشقه للقمر الذي رمز به إلى معشوقته الجميلة الطلعة البهية المنظر؟

تبدو في هذين البيتين اللغة التي تومئ بالألم واللوعة وما كان يعانيه الشاعر من وجد، وذلك من خلال ألفاظ: جفنه قد واصل السهرا، ما لهذا الصب في وله، أتراه يعشق القمرا.

ويقول في قصيدة أخرى متغزلا (وهي من الرمل):

سور عندي له مكتوبة ... ودلو يسري بها الروح الأمين[2]

إنني لا آمن الرسل ولا ... آمن الكتب على ما تحتوين

(١) الجوزاء: اسم يطلق على مجموعة من النجوم وتحمل اسم برج من بروج السماء الاثني عشر.

(٢) الروح الأمين: جبرائيل عليه السلام.

مـــــستهين بالـــــــذي كابدتـــــــه　　　وهـــو لا يـــدري بـــماذا يـــستهين[1]

أنـــــا في هـــــم ويـــــأس وأســـــى　　　حـــاضر اللوعـــة موصـــول الأنـــين[2]

يتحدث الشاعر عما يكنه للحبيب من شوق وحنين، ورسائله إليه كسور الكتاب وآياته، ويتمنى الروح الأمين (أي جبرائيل) أن ينزل بها على قلـب الحبيـب، وهـو لا يـؤمن بالرسـل حملة الكتب أو يأمنهم على رسائله للحبيب، وذلك لنفيس ما تتضمنه كتبه للحبيـب، رسـائل الشاعر إلى حبيبته ثمينة وغالية على قلبه، لا يـأمن أحـدا عليهـا ولـو كـان مـن الرسـل حملـة الكتب، وهذه الرسائل فيها ما يعانيه من هم ويأس وأسى، واللوعـة تلازمـه لبعـد الحبيـب، وأنينه موصول لا ينقطع.

لا شك أن المبالغة واضحة في حديث الشاعر عن حبيبـه، وتـصل إلى حـد غـير مقبـول، حين يتمنى أن يكون جبريل عليه السلام هو الأمين على نقل رسائله، ثم تبلغ مبالغتـه درجـة من عدم الإيمان بالرسل حملة الكتب، على إيصال رسائله لمن يحب.

بعد عرض هذه النماذج من قصائد الغزل، يغلب على ظننا أن حافظ إبراهيم لم يكن متـيما كعمر بن أبي ربيعة وأضرابه من شعراء الغزل المشهورين، فهو غير منبعث عن لوعـة مـشبوبة حقيقية، أو حرقة حب مكبوتة صادقة، أو تباريح صبابة خالصة، فهو في جملته غزل مـصنوع، مبالغ فيه، لكنه بارع التصوير، كما أنه لم يكن مكثرا في قصائد الغزل.

---

(١) كابدته: عانيته.

(٢) موصول الأنين: أي ذو أنات متتابعة لا تنقطع.

٨- الهجائيات:

لم يحفل حافظ إبراهيم كثيرا بغرض الهجاء، ولعل ذلك يعود إلى أنه كان قريبا جدا من أبناءشعبه، عامتهم وخاصتهم، ولم يكن له أعداء أو خصوم، أو منافسون على شيء من متاع الدنيا التي لم تضحك له إلا قليلا، ولعل بعض شعر الهجاء في ديوانه، كان من قبيل التسلية والتسرية عن نفسه الحزينة المعذبة، أو هو عبارة عن مناكفات محببة كانت تحصل بينه وبين من كان يخالطهم أو يداعبهم.

فها هو يهجو أحد باعة الكتب، ولعله لم يكن لديه من النقود ما يشتري به من الكتب (من البسيط)، يقول فيها:

أديم وجهك يا زنديق لو جعلت ... منه الوقاية والتجليد للكتب[1]

لم يعلها عنكبوت أينما تركت ... ولا تخاف عليها سطوة اللهب

يهجو بائع الكتب لدمامة وجهه وتجهمه وعبوسه، فجلد وجهه لجفافه وقسوته يصلح لأن يكون وقاية وتجليدا للكتب، فلا تستطيع أسرع الحشرات التسلق إليها أو التواجد فوقها، ولا يخاف عليها من أن تطولها ألسنة النار ولهبها.

لا شك أنه هجاء لاذع، مؤلم وموجع، فقد كان الشاعر مصورا بارعا في وصف وجه بائع الكتب، الذي لم يكن على علاقة حسنة مع حافظ إبراهيم، وتبدو في هذا الهجاء السخرية والعبثية، وهذا أمر واضح في الألفاظ التي استخدمها الشاعر.

---

(١) أديم الوجه: ظاهره وبشرته، والزنديق: المنافق المجانب للحق .

ويقول في قصيدة يسخر فيها من أولئك الذين يجودون بالمال على أضرحة الأولياء (من الكامل):

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم	وبألف ألف ترزق الأموات
من لي بحظ النائمين بحفرة	قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها، ويجري حولها	بحر النذور، وتقرأ الأيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى	ووسيلة تقضى بها الحاجات[1]

يبدو حافظ إبراهيم متأثرا وساخرا بهذه السلوكيات التي يرى فيها إساءة إلى الدين القويم وما أنزل الله بها من سلطان، فهو يقول: هؤلاء الأولياء الأموات يجود الناس عليهم بالمال الوفير الذي يبلغ آلاف الدراهم، بينما كثير من الأحياء لا يرزقون شيئا منها، ويؤكد على هذه الممارسات المشينة مستنكرا لها من خلال الإشارة إلى النذور الكثيرة التي تدفع إلى هؤلاء الأولياء الأموات بحجة أنهم مقربون من الله- سبحانه - يشفعون لذوي الحاجات ويعطون سؤلهم.

بهذه اللغة يسخر حافظ ابراهيم من أولئك الذين يتباركون بقبور الأولياء، ويقيمون على أحجارها الصلوات، ويتنافس الناس في الوصول إليها، وإغداقها بالنذور وقراءة الآيات القرآنية، ويجدون حول هذه القبور من يوهم الزائرين بأن هذا الولي، هو باب المصطفى أي - الرسول عليه الصلاة والسلام - وهو الشفيع والوسيلة لقضاء حاجات الزائرين المغدقين بأموالهم على قبور هؤلاء الأولياء الأموات.

(١) القطب: السيد والعماد.

وقال هاجيا ومنتقدا الجرائد المصرية (من السريع):

جرائـــد مـــا خـــط حـــرف بهـــا لغـــير تفريـــق وتـــضليل

يحلـــو بهـــا الكـــذب لأربابهـــا كأنهـــا أول إبريـــل[1]

يهجو حافظ إبراهيم في هذين البيتين محرري الصحف المصرية لكذبها، ويصفها بأنها عامل هدم لا عامل بناء، فهي تنتهج أسلوبا يدعو إلى الفرقة والتضليل بدل الوحدة والهداية، وأصحاب هذا الجرائد لا يطيب لهم إلا الكذب، وكأنها كذبة أول (إبريل) أو نيسان وهي معروفة، ويمارسها الكثير من الناس.

من الملاحظ أن حافظ إبراهيم استخدم لغة هجومية، طالت بقنابلها أصحاب الصحف، ونعتهم بأقبح الصفات ألا وهي صفة الكذب، يظهر ذلك من خلال الألفاظ التي عبر بها عن هذا الخلق السيء المشين.

ويقول في هجاء ملك لا حول له ولا تأثير (من الكامل):

لا تعجبـــوا فملـــيكم لعبـــت بـــه أيـــدي البطانـــة وهـــو في تـــضليل

إني أراه كأنـــه في رقعـــة الـــشطرنج أو في قاعـــــة التمثيــــــل

يقول لمن يخاطبهم لا تعجبوا ولا تستغربوا إن قلت لكم إن مليككم ضعيف وعاجز عن إدارة الملك تاركا الأمر لأعوانه وبطانته وحاشيته المضلة.

(١) أول إبريل: أول نيسان إشارة الى كذبة أول نيسان المعروفة.

والشاعر يحزن لوضع هذا الملك الذي هو ألعوبة بأيدي بطانته، وكأنه حجر شطرنج ينقله اللاعب من مكان إلى مكان آخر، أو كأنه ممثل على خشبة المسرح، جاء ذلك من خلال اللغة التي عبر بها عن شخصية هذا الملك.

ويقول في هجاء أحد الثقلاء الذين يرمون غيرهم بالعيوب (من مجزوء الكامل):

يـــا ســـاكن البيـــت الزجـــاج هبلـــت لا تـــرم الحـــصونا[1]

أرأيــــت قبلـــك عاريــــا يبغـــى نـــزال الـــدارعينا[2]

يهجو حافظ إبراهيم أحد ثقلاء الدم ويعيب عليه رمي الغير بالعيب الذي هو فيه، قائلا له: إذا كان بيتك من زجاج فلا ترم حصون الآخرين بالحجارة، ويتهكم منه سائلا له، هل رأيت قبلك عاريا خالي الوفاض يريد منا زلة من أدرعوا السلاح.

بهذه اللغة التهكمية الساخرة يهجو حافظ إبراهيم ذلك الشخص مستخدما ألفاظا قاسية فيها رصاص البنادق، التي تنفذ في الأجسام فتمزقها إربا إربا.

هكذا كان هجاء حافظ إبراهيم، لم يكن فاحشا كما عهدناه لدى شعراء الهجاء في الشعر العربي، ولم يكن فيه طويل النفس، فهجاؤه لم يتجاوز البيتين، وهذا واضح في المقطوعات التي عرضناها، وهذا ما يؤيد ويؤكد بأن حافظ إبراهيم لم يكن ذا خصوم وأعداء حتى يسهب في هجائهم، ومع ذلك فقد كثر فيه التصوير الهزلي البارع، والتهكم الموجع، والسخرية اللاذعة.

(١) هبلت: ثكلت.

(٢) الدارعون: اللابسون الدروع.

٩ - الإخوانيات:

كانت علاقة حافظ إبراهيم بغيره من أبناء شعبه وشعراء عصره علاقة أخوية حميمة، فهو على العموم أخ للجميع، محب للجميع، لا يضمر لهم إلا المحبة والمودة، قريب منهم عامتهم وخاصتهم، يشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، يشتاق لهم في قربهم وبعدهم، ويهتبل الفرص للقائهم والحديث إليهم، وإن تعذر عليه ذلك، يبادر إلى التعبير عما يعانيه من حزن ووحدة ووحشة جراء ذلك.

كانت تربطه بأمير الشعراء علاقة خاصة، فها هو يقول مهنئا إياه بمناسبة الإنعام عليه بالمرتبة الأولى في العلم (من الكامل):

إن هنأوك بها فلست مهنئا … إني عهدتك قبلها محسودا

قد كان قدرك لا يحد نباهة … وسعادة فغدا بها محدودا[1]

بهذه الكلمات يهنئ صديقه الشاعر بهذه المناسبة، ويعتبر أن الوسام الذي أنعم به عليه لا يرقى إلى ما هو عليه شوقي من رفعة شأن وسمو مقام، بل إن هذا الوسام كان محدا لقدره ومكانته، ومثل هذا الكلام يدل دلالة واضحة على تواضعه ومحبته لشوقي.

لم يكن حافظ إبراهيم يملك من حطام الدنيا ما يحسد أو يغبط عليه، ومع ذلك فقد أحب الناس فأحبوه، حتى أنهم أخذوا يسمون أبناءهم باسمه حبا واحتراما وتيمنا.

يقول في قصيدة مداعبا (أمين تقي الدين) الأديب اللبناني المشهور لما أقدم على تسمية مولود له (حافظا) تيمنا بحافظ إبراهيم (من السريع):

---

(١) النباهة: الألمعية والذكاء، أي أن المهنأ أرفع من هذا الوسام.

كحافظ إبراهيم لكنه ... أجمل خلقا منه في الظاهر
فلعنة الله على (حافظ) ... إن لم يكن بالشاعر الماهر
لعل أرض الشام تزهى به ... على بلاد الأدب الزاهر[1]
على بلاد النيل تلك التي ... تاهت بأصحاب الذكا النادر
(شوقي) و (مطران) و (صبري) ومن ... سميته في مطلعي الباهر
فيا وليدي كن غدا شاعرا ... وابدأ بهجو الوالد الآمر
فالذنب ذنبي وأنا المعتدي ... هل يسلم الشاعر من شاعر

بهذه الكلمات يداعب حافظ إبراهيم الأديب اللبناني (أمين تقي الدين) والتي تبدو فيها روح الفكاهة واضحة جلية، وإن شابها شيء من التهجم والتطاول المحببين بين الأصدقاء ومع ذلك يأمل أن يكون للمولود المسمى (حافظا) شأن وشهرة في عالم الشعر، كما هي شهرة شوقي ومطران واسماعيل صبري ومن سماه في مطلعه الباهر ويقصد نفسه، كما يأمل من المولود أن يبدأ بهجا أبيه إيماءة منه إلى أن الهجاء غالبا ما ينتهي إلى المحبة والوئام.

ويقول في قصيدة بعث بها إلى صديقه الشاعر (داود عمون) وتغنى بها بجمال بلاد الشام ومفاتنها (من المتقارب):

شجتنا مطالع أقمارها ... فسالت نفوس لتذكارها[2]
وبتنا نحن لتلك القصور ... وأهل القصور وزوارها

(١) تزهى به: تفخر به وتختال.

(٢) شجتنا: أحزنتنا.

يعرب الشاعر عن شوقه وتذكره للديار التي يقيم فيها الشاعر (فؤاد عمون)، كما يعـرب عن حنينه لتلك الديار وأهلها وزوارها.

ويقول فيها:

إذا نقطتهـــا أكـــف الغـــمام ... أرتـــك الـــدراري بأزهارهـــا[1]

وإن طالعتهـــا ذكـــاء الـــصباح ... أرتـــك اللجـــين بأنهـــا رهـــا[2]

وإن هـــب فيهـــا نـــسيم الأصـيل ... أتـــاك النـــسيم بأخبارهـــا

بهذا التصوير الرائع يعرب الشاعر عن مشاهدته لتلك البلاد التـي يتـذكرها إذا أشرقـت الشمس عليها، أو حنى الليل عليها.

لقد أجاد الشاعر الوصف لهاتيك القصور والمغاني، وقـد ظهـر ذلـك مـن خـلال إيـراد الصور البيانية المتمثلة في قوله: أكف الغمام، أرتك الدراري بأزهارها، طالعتها ذكاء الـصباح، أرتك اللجين بأنهارها، أتاك النسيم بأخبارها، وكلها صور تجسد مـا قـصد إليـه الـشاعر مـن معان.

ويقول فيها:

(أداود) حـــسبك أن المعـــالي ... تحـــسب دارك في دارهـــا

وأن ضـــمائر هـــذا الوجـــود ... تبـــوح إليـــك بأسرارهـــا

---

(١) الدراري: الدر من الأحجار الكريمة.

(٢) ذكاء: اسم يطلق على الشمس، اللجين: الفضة.

وأنـــك إمـــا حللـــت الـــشام　　　رأينـــاك جـــذوة أفكارهـــا[1]

وإن كنـــت في مـــصر نعـــم النـــصير　　　إذا مـــا أهابـــت بأنـــصارها[2]

يخاطب حافظ إبراهيم صديقه (داود عمون) قائلا له: يكفيـك فخـرا أن تحـسب المعـالي دارك في دارها، وإن ضمائر الوجود تفشي إليه أسرارها، كما أن الشاعر ينوه بدور صديقه سواء اكان في مصر أم في بلاد الشام.

لقد عمد حافظ في هذه الأبيات والأبيات السابقة إلى تجسيد وتـشخيص المعـاني، يبـدو ذلك في الصور البيانية التـي أوردهـا، فالمعـاني تحـسب وتفكـر، والوجـود لـه ضـمائر تبـوح بأسرارها، والأفكار لها جذوة ... وفي الوقت نفسه سادت فيها الألفاظ الشجية الحزينة كمثل قوله: شجتنا، تبوح بأسرارها ، جذوة أفكارها.

وفي أبيات قالها مجيبا (محمد الهراوي) وكان صديقا له، جاء الشاعر يوما في زيارة، فكتب له أبياتا من الشعر، فكان رد حافظ عليه (من مجزوء الرمل):

أنـــا في الجيـــزة ثـــاو　　　لـــيس لي فيهـــا أنـــيس[3]

أنكـــر الإنـــس مكـــاني　　　ونـــأى عنـــي الجلـــيس

لـــيس يـــدري مـــن رآني　　　أطليـــق أم حبـــيس

(١) الجذوة: القبس من النار.

(٢) أهابت: دعت.

(٣) ثاو: مقيم.

كان حافظ إبراهيم في محلة الجيزة بالقرب من الأهرام في مدينة القاهرة، وفي هذه الأبيات يتحدث عن وحدته وعزلته، فلا أنيس ولا جليس، وكأنه ليس من جنس البشر، ولا يدري أهو طليق حر أم رهين حبيس.

وقد جاءت هذه الأبيات حافلة بمعاني الحزن والوحشة، وذلك من خلال ألفاظها وتراكيبها كقوله: ليس لي فيها أنيس، أنكر الإنس مكاني، نأى عني الجليس، أطليق أم حبيس.

ويقول في قصيدة أنشدها في الحفل الذي أقيم سنة ١٩٢٧ تكريما لأمير الشعراء (من الطويل): وهي تربو على ثمانية وتسعين بيتا، يجتزئ منها الأبيات التالية:

نفاخر من (شوقيتنا) بيراعة ... ونزداد فخرا من (علي) بمبضع[١]

فذاك شفاء الجسم تدمى جراحه ... وتلك شفاء الواله المتوجع[٢]

ومن كان في بيت الملوك ثواؤه ... ينشأ على النعمى ويمرح ويرتع[٣]

لئن عجبوا أن شاب (شوقي) ولم يزل ... فتي الهوى والقلب جم التمتع[٤]

لقد شاب من هول القوافي ووقعها ... وإتيانه بالمعجز المتمنع

ينوه حافظ إبرايم في هذه الإبيات بنبوغ شوفي وشاعريته وبراعته، كما ينوه بالطبيب الجراح (على إبراهيم باشا) ومهارته في الجراحة، فهذا يداوي الجروح وذاك يداوي العاشق المتيم.

---

(١) اليراعة: القلم، المبضع: المقص في يد الجراح.

(٢) الواله: العاشق.

(٣) النعمى: النعمة والنعيم.

(٤) جم: كثير.

يبدو التصوير الرائع في هذه الأبيات من خلال الألفاظ والتراكيب التي استخدمها وذلك في قوله : فذاك شفاء الجسم تدمى جراحه وتلك شفاء الواله المتوجع، شاب من هول القوا في ووقعها، إتيانه بالمعجز المتمنع، وفي ذلك إشارة إلى ما كان يبذله شوقي من جهد في سبيل تهذيب شعره والإبداع فيه .

ويقول فيها:

نفيت فلم تجزع ولم تك ضارعا ... ومن ترمه الأيام يجزع ويضرع

وأخصبت في المنفي وما كنت مجدبا ... وفي النفي خصب العبقري السميدع[1]

أبى الله إلا أن يردك سالما ... ومن يرعه يسلم ويغنم ويرجع

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن نفي شوقي إلى بلاد الأندلس، ويرى أن هذا النفي لم يكن ليفت في عزيمة شوقي أو يحد من عبقريته وقريحته، فقد كان هذا النفي حافزا لشوقي بأن ينظم الكثير المبدع من الشعر، وقد شاءت حكمة الله أن يرده سالما إلى وطنه فقد كان جلت قدرته، راعيا وحافظا له، فعاد سالما غانما بعد هذا النفي.

استخدم الشاعر في هذه الأبيات الألفاظ الجزلة الدالة على أهمية شوقي وعظمته وتحمله لتبعات النفي، كما أورد فيها الصور البيانية كلاستعارة في فوله: ترمه الأيام، وأورد من فتون البديع الطباق في قوله أخصبت ومجديا ....

ويقول فيها:

أمير القوافي قد أتيت مبايعا ... وهذي وفود الشعر بايعت معي

---

(١) السميدع: الشجاع الكريم.

يعلن الشاعر في هذا البيت طاعته ومبايعته لأحمد شوقي بإمارة الشعر، وليس هـذا رأيـه وحده، بل رأي جميع الشعراء الذين شاركوا في هذا الحفل فبايعوا شوقي بالإمارة.

وفي بيتين من الشعر قالهما في (محمد عبده البابلي) : (من الوافر)

يـــا بـــابلي إليـــك شـــوقي　　　وعينـــي لازمـــت ســـكب الـــدموع[1]

ولـــو أني تركـــت سراح قلبـــي　　　لطـــار إليـــك مـــن قفـــص الـــضلوع[2]

فحافظ إبراهيم في غاية الشوق لصديقه البابلي وشوقه إليه في تزايد مستمر، وعينه لا تفتأ تذرف الدموع لبعده عنه، ولو ترك لقلبه حرية الانطلاق والانفلات لانخلع من بين ضـلوعه وطار إليه.

وألفاظ الشاعر هنا تحمل بين طياتها معاني اللوعة والحزن لبعد صديقه عنه، مثـل قولـه: عيني لازمت سكب الدموع، طار إليك من قفص الضلوع، ولا يخفى ما جاء فيها من عنـصر المبالغة في التعبير عن الشوق لهذا الصديق .

ويقول بمناسبة سفر (أحمد شوقي) إلى مؤتمر المستشرقين (من مجزوء الكامل)

يـــا شـــاعر الـــشرق أتئـــد　　　مـــاذا تحـــاول بعـــد ذاك[3]

هـــذي النجـــوم نظمتنهـــا　　　درر القـــريض ومـــا كفـــاك[4]

---

(١) نمى: ارتفع وزاد.

(٢) سراح القلب: انفلاته وانطلاقه.

(٣) أتئد: تمهل.

(٤) القريض: الشعر.

والبـــــدر قـــــد علمتـــــه أدب المثـــــــــــــول إذا رآك
وســـموت في أفـــق الـــسعود فكـــــدت تعثـــــر بالـــسماك[1]
وحبـــاك عبـــاس المحامـــد بالمواهـــــب واصـــــطفاك[2]
ودعتـــك مـــصر رســـولها للغـــرب مـــذ عرفـــت عـــلاك
فارحـــل وعـــد بوديعـــة الـــرحمن أنـــت وصـــاحباك

يثني حافظ إبراهيم على شوقي، أدبه، وشعره، وتفوقه، كما يهنئه بالمهمة التي كلفه بها الخديوي عباس، متمنيا له اليمن والخير والتوفيق، والعودة سالما غانما هو وصاحباه.

يلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر استخدم الصور البيانية الرائعة في مثل قوله: هذي النجوم نظمتها درر القريض، والبدر قد علمته أدب المثول إذا رآك، حباك عباس المحامد. كما راوح الشاعر بين الإنشاء والخبر كمثل قوله: أتئد، فارحل وعد. هذي النجوم نظمتها، والبدر قد علمته، وسموت في الأفق، وحباك عباس، ودعتك مصر رسولها.

ويقول في قصدية يداعب بها صديقه (محمد عبده البابلي):

أدلال ذاك أم كـــــــــسل أم تنـــاس منـــك أم ملـــل
أم غريـــق أنـــت في جـــذل أم بكاســـات الهنـــا ثمـــل[3]

---

(١) السماك: اسم نجم.

(٢) حباك: أعطاك.

(٣) اصطفاك: اختارك.

أم وقـــــاك الله – في كـــــــدر ... أم عــــلى الأعـــذار متكـــــل[1]

أم مـــــشوق مغـــــرم ولـــــه ... شـــــفه التـــشبيب والغـــزل[2]

أم عنـــــي بـــــات يـــشغله ... مالـــــه والكـــسب والأمـــل

أو وشـــــى واش إليــــك بنـــا ... فـــاحتواك الـــشك (يـــا بطـــل)

بهذه الكلمات الرقيقة العاتبة يداعب الشاعر صديقه (البابلي)، متسائلا عن سبب تناسيه أيام الصداقة والأخوة، فهل هو النسيان، أو الدلال، أو هـو الغـرق في الجـذل، أو الانـشغال بشرب كاسات الخمـر، أو المعانـاة مـن كـدر العـيش وضـيقه، أو الـشوق والغـرام والعـشق والتشبيب والغزل، أو الغنى والكسب والأمل، أو وشاية واش، فساورته الشكوك.

ويقول فيها:

قـــد مـــضى شـــهر وأعقبـــه ... ضـــعفه والفكـــر مـــشتغل

لا كتـــاب منــــك يطفـــئ مـــا ... في فـــؤادي بـــات يـــشتعل

لا ولا رد يعللنـــــــــــــــــي ... أو عـــلى التـــسليم يـــشتمل[3]

يـــا صـــديقي لا مؤاخـــذة ... أنـــت يـــابن البـــابلي .....

(١) الكدر: الحزن.

(٢) الوله: العاشق، شفه: أضناه وأسقمه، التشبيب: ضرب من الغزل المادي.

(٣) يعللني: يشغلني ويسليني.

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن طول انقطاع صديقه عنه، فهو مشغول الفكـر، إذ لم تصله من صديقه رسالة تطفئ ما في قلبه من نار الفراق، ولم يكن منه مجرد رد يبين فيـه سـبب هذا الانقطاع، أو يبعث له سلاما يشتمله هذا الرد.

إن لغة الأسى والحزن لا تفارق حافظ إبراهيم حتى وهو يداعب أصـدقاءه، وهـذا يبـدو واضحا جليا في الألفاظ التي اشتملتها الأبيات، في مثل قوله: يطفئ مـا فـؤادي، يـشتعل، رد يعللني....

ويقول في قصدية يودع فيها صديقيه (محمد بدر) و (أحمد بدر) عندما سافرا إلى بريطانيـا طلبا للعلم (من السريع):

سـيرا أيـا بـدري سـماء العـلا … واسـتقبلا الـتم ولا تـأفلا[1]

سـيرا إلى مهـد العلـوم التـي … كانـت لنـا ثـم ازدهاهـا الـبلى

سـيرا إلى الأرض التـي أنبتـت … عـزا وأضـحت للمـلا مـوئلا[2]

شـعار أهلهـا وأبنائهـا … أن يعلـم المـرء وأن يعمـلا

يحث الشاعر في هذه الأبيات صـديقيه المـسافرين إلى بريطانيـا عـلى الاجتهـاد في طلـب العلم، وعلى تذكير الغرب بأن في مصر رجالا جديرين بتحصيل العلـم، ويعـرض في الوقـت نفسه بالغرب الذي تشد إليه الرحال طلبا للعلم الذي كان يوما ما في بلاد العرب.

---

(١) التم: أي تمام البدر واكتماله.

(٢) الملا: الناس .

يلاحظ تكرار الشاعر لفعل الأمر (سيرا) وذلك للتأكيد على أهمية العلم، والأمل المعقود على مثل هذين الصديقين الطالبين للعلم، ويبدو الشاعر في هذه الأبيات متأثرا ومتأسيا على ما كان عليه الشرق من تقدم في ميدان العلوم والفنون، وذلك، يظهر في مثل قوله: كانت لنا ثم ازداهاها البلى.

ويقول في قصيدة بعثها إلى صديقه (أحمد بدر) الطالب في كلية (أدنبره) بأسكتلندا (من مجزوء الكامل):

ملكـــــت عـــــلي مــــــذاهبي	وعــــصاني الطبـــع الـــسليم
وجفـــا يراعـــي الـــصاحبان	فـــلا النثـــير ولا النظـــيم
أشـــقى وأكـــتم شـــقوتي	والله بي وبهـــــا علـــــيم
لا مـــــصر تنــــصفني ولا	أنـــا عـــن مودتهـــا أريـــم
وإذا تحـــــول بـــــائس	عـــن ربعهـــا فأنـــا المقـــيم
فيهـــا صـــحبتك واصـــطفيتك	أيهـــا الخـــل الحمـــيم

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن وحشته ووحدته وشقائه لابتعاد الإخوان عنه وتفرقهم في البلاد وهو مقيم أبدا في مصر لا يفارقها.

يبين حافظ إبراهيم في هذه الأبيات بأن ما لديه من مذاهب وسبل لم يعد يملكها، كما أن ما اعتاد عليه من طبع سليم لم يعد يطاوعه. كما أن قلمه قد جفاه صاحباه – النثر والشعر – وهو يعاني من الشقاء ما يعاني، ولكنه يكتمه والله وحده العليم بذلك، وهو يشكو من مصر التي لم تنصفه ومع هذا لا يستطيع التحول عن مودتها ومحبتها، وهو مقيم بها أبدا وإن تحول

غيره من البائسين عن حبها، ويذكر صديقه (أحمد بدر) بصحبته واختياره خلا حميما، وأنه باق على مودته له التي عرفها وخبرها عنه هذا الصديق.

لقد جاءت ألفاظ الشاعر في هذه الأبيات حافلة بمعاني الوحشة والوحدة والشقاء، يظهر هذا في قوله: ملكت علي مواهبي، عصاني الطبع السلم، جفا يراعي الصاحبان، أشقى وأكتم شقوتي.

ويقول فيها:

لله ذيـــاك الجـــوار وذلـــك العـــيش الـــرخيم[1]

بالجانـــب الغـــربي فـــوق النيـــل والـــدنيا نعـــيم

أيـــام يعرفنـــا الـــسرور بهـــا وتنكرنـــا الهمـــوم

أيـــام نلهـــو بالظبـــاء وفي مـــسارحها نهـــيم[2]

لا أنـــت تـــصغو للعـــذول ولا أبـــالي مـــن يلـــوم[3]

يستعرض الشاعر في هذه الأبيات أيامه الغابرة مع صديقه لما كانا معا في الجانب الغربي من القاهرة، حيث نعيم العيش والبهجة والسرور.

بهذه اللغة يتحدث الشاعر عن أيام الصفاء التي عاشها مع صديقه، كانت أيام سرور، لا تعرف الهموم، وكانت أيام لهو مع الحسان الفاتنات، لا يصغو فيها صديقه لعاذل ولا هو

---

(١) الرخيم: العذب اللين.

(٢) الظباء: كناية عن الحسان الفاتنات.

(٣) العذول: اللائم.

مكترث بلائم، وقد استخدم الشاعر أسلوب التعجب، والحنين إلى الأيام الخوالي التي تنم عن الأسى والحزن.

ويقول في قصيدة بعثها من السودان إلى صديقه الحميم (محمد بيرم) سنة ١٩٠٠ (من الوافر):

أثرت بنا من الشوق القديم   وذكرى ذلك العيش الرخيم

وأيام كسوناها جمالاً   وأرقصنا لها فلك النعيم

ملأناها بنا حسنا فكانت   بجيد الدهر كالعقد النظيم[1]

وفتيان مساميح عليهم   جلابيب من الذوق السليم[2]

دعوتهم إلى أنس فوافوا   موافاة الكريم إلى الكريم

وجاؤوا كالقطا وردت نميرا   على ظمأ وهبوا كالنسيم[3]

وكان الليل يمرح في شباب   ويلهو (بالمجرة) والنجوم[4]

فواصلنا كؤوس الراح حتى   بدت للعين أنوار الصريم[5]

(١) جيد الدهر: عنقه، النظيم: المنظوم المزين باللآلئ.

(٢) مساميح: أجواد، جلابيب: أثواب.

(٣) نميرا: صفة لموصوف محذوف أي: ماء نميرا، القطا: ضرب من الحمام.

(٤) المجرة: البياض الذي يرى ليلا في السماء، ويضم ملايين النجوم.

(٥) الراح: الخمرة، والصريم: الفجر والصبح.

وأعملنـــا بهـــا رأي (ابـــن هـــاني) فألحقنـــا بأصـــحاب الـــرقيم[١]

وظبـــي مـــن بنـــي مـــصر غريـــر شـــهي اللفـــظ ذي خـــد مـــشيم[٢]

ســـقانا في منادمـــة حـــديثا نـــسينا عنـــده بنـــت الكـــروم[٣]

يتذكر الشاعر في هذه الأبيات أيامه الخوالي مع تلك الثلة من الأصحاب والأصدقاء، وفي مقدمتهم صديقه (محمد بيرم)، ويالها من أيام: لهو، جمال، طرب، خمرة، غزل ....

بهذه اللغة يعرب الشاعر عما أثارته أيامه الغابرة مع صحبته من كوامن الذكرى والشوق إليها والحنين إلى عيشها الهانئ، لقد كانت أيام لهو ورقص وغناء وجمال واحتساء للخمرة، ألحقتهم بأصحاب الكهف الذين لبثوا نائمين فيه بضع مئات السنين، وقد نهجوا فيها نهج أبي نواس شاعر الخمريات المعروف في العصر العباسي، وقد حفلت هذه الأبيات بالصور البيانية من استعارات وتشبيهات وإشارات تاريخية، ولا تخلو هذه الأبيات من الألفاظ التي تنم عما كان يعانيه الشاعر من فراغ وتأس على الأيام الغابرة مثل قوله: أثرت بنا الشوق، فواصلنا كؤوس الراح، فألحقنا بأصحاب الرقيم، نسينا عنده بنت الكروم...

ويقول في قصيدة بعثها أيضا من السودان إلى بعض إخوانه (من مشطور الرجز):

---

(١) ابن هاني: أبو نواس: الشاعر الخمري العباسي المشهور، أصحاب الرقيم: أهل الكهف الذين ضرب الله عليهم النعاس ثلاث مئة سنة وتسع.

(٢) الظبي: ولد الغزال، غرير: صغير السن.

(٣) بنت الكروم: كناية عن الخمرة التي تعصر من عناقيد الكرمة.

مـــن واجـــد منفـــر المنـــام[1]

طريـــد دهـــر جـــائر الأحكـــام

مـــشتت الـــشمل عـــلى الـــدوام

مـــلازم للهـــم والـــسقام

مـــا بـــين بنـــت الحـــان والأنغـــام[2]

ومطـــرب مـــن خـــيرة الأقـــوام

أرق مـــن شـــعر (أبي تمـــام)

ياليـــت شـــعري بعـــد هـــذا العـــام

إلـــيكم ترمـــي بي المرامـــي

أم ينتـــويني رائـــد الحـــمام[3]

فـــأنطوي في هـــذه الأكـــام[4]

---

(١) الواجد: ذو الحب والحزن.

(٢) بنت الحان: كناية عن الخمرة.

(٣) الحمام: الموت.

(٤) الأكام: الهضاب والروابي.

وتـــــولم الـــــــضبع عـــــلى عظـــــامي [1]

فـــــإن أتــــى يـــــومي وأودى لامــــــي [2]

بـــــــالله أدعـــــــوكم وبالإســـــــلام

أن تــــــذكروا نــــــاظم ذا الكـــــلام

إذا جلـــــــستم مجلـــــسا للجـــــام

وكـــــــان ســــــاقيكم مـــــن الأرام [3]

في ليلــــــــة والبــــــــدر في تمـــــام

في هذا الشعر يبعث الشاعر بتحياته وأشواقه إلى صحبه، وهو بعيد عنهم يقاسي الوحشة والوحدة في الغربة، مذكرا إياهم يالأيام الغابرة ومجالس الأنـس الماضـية ومتلهفـا لـرؤيتهم، ومتمنيا الاجتماع بهم مرة أخرى، وطالبا إليهم أن يذكروه إذا ما جمعتهم مجالس الأنس وكـان الساقي من الحسناوات الجميلات والبدر في ليلة تمامه واكتماله ...

بهذه اللغة يتشوق حافظ إلى مجالسة صحبه حين كانت تجمعهم أيام الأنـس ولياليـه، مـا بين الرقص والغناء ومقارعة كؤوس الخمر، وتبدو في ألفاظه وعباراته معـاني الحـزن في مثـل قوله: من واجد منفر المنام، طريد دهر، ملازم للهم والسقام، مـشتت الـشمل، ينـويني رائـد

(١) تولم الضبع على عظامي: كناية عن موته وحيدا في البرية فتأتي الضبع فتنهش لحمه.

(٢) لامه: شخصيته.

(٣) الأرام: الظباء.

الحمام، فأنطوي وتولم الضبع على عظامي، وأودى لامي، كما أن هذه الأبيات اشتملت على كثير من الصور اليانية من استعارات وتشبيهات وإشارات تاريخية، ونحن إذ نعذر الشاعر على هذا التعبير عن مشاعره تجاه صحبه والأيام الغابرة إلا أننا نشتم فيها رائحة المبالغة والتهويل.

ويقول في قصيدة يعتذر فيها إلى أمير الشعراء (أحمد شوقي) عن عدم حضوره حفل زفاف ابنته بسبب مرضه الطارئ:

يا سيدي وإمامي	**ويا أديب الزمان**
قد عاقني سوء حظي	**عن حفلة المهرجان**[1]
وكنت أول ساع	**إلى رحاب (ابن هاني)**[2]
لكن مرضت لنحسي	**في يوم ذاك القران**[3]
وقد كفاني عقابا	**ما كان من حرماني**
حرمت رؤية (شوقي)	**ولثم تلك البنان**[4]

يعتذر الشاعر في هذه الأبيات إلى أحمد شوقي عن عدم حضور حفل زفاف ابنته، بسبب المرض الطارئ ما أفقده نعمة رؤية شوقي وتقبيل يديه.

---

(١) عاقني: منعني، المهرجان: الحفل.

(٢) ابن هاني: اسم دار أمير الشعراء أسماها كرمة ابن هاني تيمنا بأبي نواس الشاعر العباسي.

(٣) القران: الزواج.

(٤) البنان: طرف الأصبع.

بهذا التواضع الجم يخاطب حافظ (شوقي) معتبرا إياه سيده وإمامه وأديب زمانه، وقد عاقه سوء حظه عن حضور ذلك الحفل، ولكن مرضه لسوء حظه كان سببا عن عدم حضوره، وإلا كان أول من يتشرف برؤية شوقي في هذا الحفل، وكان حرمانه عقابا كافيا له.

ولغة الشاعر في هذه الأبيات حفلت بألفاظ وعبارات الاحترام والتعظيم لأمير الشعراء كما اتسمت بالأسى والحزن والأسف، يظهر هذا في قوله: يا سيدي وإمامي، حرمت رؤية شوقي، ولثم تلك البنان، وقد عاقني سوء حظي، مرضت لنحسي، كفاني عقابا ما كان من حرماني .... وقد تنوعت لغة الأبيات ما بين الإنشاء والخبر .....

ويقول فيها:

فاصفح فأنت خليق ... بالصفح عن كل جاني[1]

وعش لعرش المعاني ... ودم لتاج البيان

إن فاتني أن أوفي ... بالأمس حق التهاني

فاقبله مني قضاء ... وكن كريم الجنان[2]

والله يقبل منا الصلاة ... بعد الأوان[3]

يطلب الشاعر من شوقي الصفح واعدا إياه بتقديم واجب التهاني في وقت لاحق، ويأمل أن يقبل عذره، داعيا له بأن يبقى متربعا على عرش المعاني، ومتوجا بالبلاغة والبيان.

---

(١) خليق: جدير.

(٢) الجنان: القلب.

(٣) الأوان: الزمان.

تضمنت الأبيات السابقة لغة الالتماس والاعتذار، والدعاء للشاعر أحمد شوقي بدوام الإبداع في عالم المعاني والبيان، وقد راوح فيها بين الإنشاء والخبر ....

ويقول في قصيدة في الدكتور (محجوب ثابت) عندما كانا ضيفين على (سعد زغلول) (من البسيط):

يرغي ويزبد بالقافات تحسبها ... قصف المدافع في أفق البساتين

من كل قاف كأن الله صورها ... من مارج النار تصوير الشياطين[1]

قد خصه الله بالقافات يعلكها ... واختص سبحانه بالكاف والنون[2]

يغيب عنه الحجا حينا ويحضره ... حينا فيخلط مختلا بموزون

لا يأمن السامع المسكين وثبته ... من (كردفان) إلى أعلى فلسطين

بينا تراه ينادي الناس في (حلب) ... إذا به يتحدى القوم في (الصين)

ولم يكن ذاك عن طيش ولا خبل ... لكنها عبقريات الأساطين[3]

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى كثرة استخدام (محجوب) حرف القاف، مما يسبب ازعاجا تمجه الأذن، وهو كثيرا ما يخلط في كلامه وليس ذلك بسبب طيش ولا خبل، ولكن هذا هو شأن عبقريات الأساطين فمرة يثور وأخرى يهدأ.

---

(١) الذي خلق من مارج من نار: هو الشيطان الرجيم. المارج: النار.

(٢) قوله بالكاف والنون إشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى للشيء (كن) فيكون، الحجا: العقل، كردفان: اسم بلدة بالسوادان.

(٣) الخبل: الجنون، الأساطين: المشهورون من الأعلام ذوي الذكر والشهرة.

بهذا التصوير الرائع يصف حافظ (محجوب ثابت) حين ينطق بالقاف مستخدما إياهـا في كلامـه، وقـد أكثـر الـشاعر في هـذه الأبيـات مـن الـصور البيانيـة المتمثلـة في الاسـتعارات والتشبيهات والاقتباس غير المباشر من القرآن الكريم، في مثل قولـه: يرغـى ويزيـد، تحـسبها قصف المدافع، كأن الله صورها من مارج النار، خصة الله بالقافات يعلكها، واختص سبحانه وتعالى بالكاف والنون.

ويقول فيها:

يبيـــت ينـــسج أحلامـــا مذهبـــة ... تغني تفاسـيرها عـن (ابـن سـيرين)[1]

طـــورا وزيـــرا مـــشاعا في وزارتـــه ... يـــصرف الأمـــر في كـــل الـــدواوين

وتـــارة زوج عطبـــول خدلجـــة ... حـــسناء تملـــك آلاف الفـــدادين[2]

يعفـــى مـــن المهـــر إكرامـــا للحيتـــه ... ومـــا أظلتـــه مـــن دنيـــا ومـــن ديـــن[3]

يحدثنا الشاعر في هذه الأبيـات عـن أمنيـات (محجـوب) فتـارة يحلـم أن يكـون وزيـرا، وأخرى أن يتزوج من فتاة حسناء غنية كثيرة المال والأملاك، وهـذه أحـلام مـستحيلة بعيـدة المنال، وأحلامه وأمانيه التـي لا تنتهـي تفـسيرها يغنـي عـن الحاجـة لتفاسـير (ابـن سريـن) المشهورة في المنامات.

(١) ابن سرين: هو محمد بن سرين، اشتهر بتفسير المنامات، وله كتاب في هذا العلم يعزى إليه.

(٢) العطبول الخدلجة من النساء: من كانت طويلة العنق بضة اللحم، ناعمة.

(٣) المهر: صداق الزوجة.

استخدم الشاعر في هذه الأبيات لغة ساخرة عابثة، تخللتها الصور البيانية والإشارات التاريخية والدينية كما ظهر فيها التعريض (بمحجوب) يظهر هذا في قوله: يبيت ينسج أحلاما مذهبة، تغنى عنها تفاسير (ابن سرين)، يعفى من المهر إكراما للحيته، ما أطلته من دنيا ودين....

وقد أورد الشاعر ذلك باستخدام الجمل الخبرية، كما تبدو في أسلوب الشاعر المعاني التي يكتنفها الحزن لهذا الصديق الذي يبدو لأول وهلة أنه غير سوي ولكن هذا هو شأن العباقرة حسب رأي الشاعر.

ويقول في قصيدة بعث بها إلى (أحمد شوقي) وهو في منفاه في بلاد الأندلس (من البسيط):

عجبت للنيل يدري أن بلبله ... صاد ويسقي ربا مصر ويسقينا[1]

والله ما طاب للأصحاب مورده ... ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا

لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه ... وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

يعجب الشاعر أن بلبل وادي النيل المغرد (أي أحمد شوقي) يعاني من العطش الشديد في الوقت الذي يسقي فيه ربا مصر والمصريين، ولكن رغم ذلك فإن من يرده من الأصحاب لا يطيب له ماؤه، ولا يرتضي من العيش لينا في غياب شوقي عنه، وينفى الشاعر بعد شوقي عن النيل رغم مفارقته لشاطئه، ويقول فكثيرا ما بعدنا ولكن كنا مقيمين.

---

(١) البلبل: المقصود أحمد شوقي، صاد: عطشان.

تظهر في هذه الأبيات لغة الوجد والحزن على بعد شوقي عن وادي النيل، فالأصحاب لا يهنأ لهم عيش ولا يطيب لهم ماء وشوقي بعيد عنه، وهذا يظهر في استخدام الألفاظ: عجبنا للنيل أن بلبله صاد، ما طاب للأصحاب مورده، وإن فارقت شاطئه، وقد نأينا وإن كنا مقيمينا.

وقد عبر الشاعر عن هذه المعاني باستخدام الجمل الخبرية التي تخللها القسم.

١٠- الشاكيات والعاتبات:

كان حافظ سيء الطابع، عاثر الحظ، ضاربا في الآفاق، باحثا عن خل يصافيه، وصديق يواسيه، متألما من دنياه، حطت رحال الحزن والأسى والشكوى في أشعاره، فعبر عما يعانيه أصدق تعبير وأروع تصوير، فها هو يقول شاكيا (من البحر البسيط):

ماذا أصبت من الأسفار والنصب — وطيك العمر بين الوخد والخبب[١]

نراك تطلب لاهونا ولا كثبا — ولا نرى لك من مال ولا نشب[٢]

يجرد الشاعر من نفسه شخصا يخاطبه متسائلا بحسرة عما توصل إليه، وعما حققه بعد طول أسفار وتعب وترحال، وإضاعة العمر في التجوال في البلاد، فهو لا ينفك طالبا حياة كريمة ولكن لا يملك مالا ولا نشبا.

جاءت لغة هذين البيتين حافلة بالأسى والحسرة، تمثلت في تساؤله: ماذا أصبت من الأسفار والنصب، طيك العمر بين الوخد والخبب، ولا نرى من مال ولا نشب.

---

(١) النصب: التعب، الوخد والخبب: ضربان من سير الخيل.

(٢) كثبا: قربا، النشب: المال وغيره.

ويقول فيها:

لا تطعـمـاني أنيـاب المـلام عـلى ... هـذا العثـار فـإني مهـبط العجـب

وددت لـو طرحـوا بي يـوم جئـتهم ... في مسبح الحوت أو في مسرح العطب[1]

لعـل (مـاني) لاقـى مـا أكابـده ... فـود تعجيلنـا مـن عـالم الـشجب

إني احتـسبت شـبابا بـت أنفقـه ... وعزمـة شـابت الـدنيا ولم تـشب[2]

يخاطب الشاعر شخصين متخيلين جريا على عادة القدماء طالبا إليهما أن يخففا في لومه على فشله في تحقيق المال والمجد، لأنه يعد نفسه مهبطا للعجائب المتمثلة في سوء الطالع، ويتمنى لو أنهم يوم ولادته ألقوه في بحر الأسماك والحيتان أو في مواطن الهلاك للتعجيل في موته، ويعد ما كابده في حياته يعادل ما لاقاه (ماني) القائل بمبدأي الخير والشر - من تعب ومشقة.

تنم لغة الشاعر في هذه الأبيات عما يعانيه الشاعر من الحسرة واللوعة وتبدو فيها الصور البيانية من استعارات وتشبيهات وكنايات وإشارات تاريخية تمثلت في قوله: أنياب الملام، فإني مهبط العجب، في مسبح الحوت أو في مسرح العطب، لعل (ماني) لاقى ما أكابده، شبابا بت أنفقه، وعزمة شابت الدنيا ولم تشب، وقد تنوع أسلوبه ما بين الإنشاء والخبر والرجاء...

ويقول فيها:

---

(١) مسبح الحوت: كناية عن البحر.

(٢) ماني: مؤسس مذهب المانوية، قال بمبدأي الخير والشر، والنور والظلام، أكابده: أعانيه، أقاسيه، عالم الشجب: كناية عن الدنيا.

كـــم همـــت في البيـــد والآرام قائلـــة ... والشمس ترمي أديم الأرض باللهب[1]

وكـم لبـست الـدجى والـترب ناعـسة ... والليل أهدأ من جأشي لـدى النـوب[2]

والـنجم يعجـب مـن أمـري ويحـسبني ... لدى الـسرى ثامنـا للـسبعة الـشهب[3]

لكننـــي غـــير مجـــدود ومـــا فتئـــت ... يـــد المقـــادير تقـــصيني عـــن الأرب[4]

يتحدث حافظ إبراهيم عن حياته التي قضاها ضاربا في البلاد، وسراه في الليل وسيره في البوادي والفلوات، سعيا وراء المجد لكن للأسف، ولحظة التعس لم يحقق ما كان يصبو إليه.

كلمات هذه الأبيات تعبر عما كان يقاسيه الشاعر من تطواف وتجوال والليل يلفه بظلامـه وسكونه، ونجومه تعجب من أمره وتحسبه أصبح ثامنا للشهب السبعة، ومع كل هذا الـسعي كان تعيس الحظ، بددت المقادير آمالـه وأقـصت مـا كـان يطمـح للوصـول إليـه، وفـد جـاء التصوير لهذه المعاني من خلال إيراد الصور البيانية من استعارات وتـشبيهات تمثلـت في مثـل قوله: كم لبست الدجى والترب ناعسة، النجم يعجب من أمري،يحسبني لدى الـسرى ثامنـا للسبعة الشهب، ما فتئت يد المقادير تقصيني عن الأرب، والكناية في قوله: السبعة الشهب.

ويقول فيها:

وقـــد غـــدوت وآمـــالي مطرحـــة ... وفي أمـــوري مـــا للـــضب في الـــذنب

---

(١) البيد: جمع بيداء، الصحارى والفلوات، الآرام: الظباء، وقائلة: مستسلمة للقيلولة وهي النوم ظهرا.

(٢) الدجى: الليل، الجأش: القلب، النوب: المصائب.

(٣) السبعة الشهب: كناية عن الكواكب السبعة: عطارد فالزهرة ....

(٤) مجدود: محظوظ، ذو جد أي حظ.

فإن تكن نسبتي للشرق مانعتي ... حظا فواها لمجد الترك والعرب

وقاضبات لهم كانت إذا اخترطت ... تدثر الغرب في ثوب من الرهب[1]

وجمرة لهم في الشرق ما همدت ... ولا علاها رماد الختل والكذب[2]

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن فشله في تحقيق ما يصبو إليه، لا لشي، إلا لأنه شرقي، والشرق يعاني من تخلف ونكوص، لكنه في الوقت نفسه ينوه بها كان الشرق عليه من عز وتقدم وفخار، زمن حكم الأتراك والعرب الذي بسطوا نفوذهم على بلاد الغرب في زمن من الأزمان.

بهذه اللغة يصف الشاعر حياته، فآماله تبددت وأموره تعقدت كتعقد ذنب الضب الذي يضرب به المثل فقيل: أعقد من ذنب ضب، جاء ذلك من خلال الألفاظ التي استخدمها كقوله: وآمالي مطرحة، وفي أموري ما للضب في الذنب، تدثر الغرب في ثوب من الرهب، وجمرة لهم في الشرق ما همدت، ولا علاها الختل والكذب.... إضافة إلى الصور البيانية التي وردت في الأبيات كالاستعار في قوله: تدثر الغرب في ثوب من الرهب ولا علاها رماد الختل والكذب.

ويقول فيها:

متى أرى (النيل) لا تحلو موارده ... لغير مرتهب لله مرتقب

فقد غدت (مصر) في حال إذا ذكرت ... جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب[3]

(١) القاضبات: السيوف، اخترطت: سلت.

(٢) الختل: الخداع.

(٣) اللؤلؤ الرطب: كناية عن ذرف الدموع السخية.

إذا نطقت فقاع السجن متكأ	وإن سكت فإن النفس لم تطب
أيشتكي الفقر غادينا ورائحنا	ونحن نمشي على أرض من الذهب
والقوم في (مصر) كالإسفنج قد ظفرت	بالماء لم يتركوا ضرعا لمحتلب[1]
(يا آل عثمان) ما هذا الجفاء لنا	ونحن في الله إخوان وفي الكتب
تركتمونا لأقوام تخالفنا	في الدين والفضل والأخلاق والأدب

يتألم الشاعر ويتحسر على مصر وما آلت إليه حالها من سوء وتقدير، إنه يتلهف لعودة النيل ال صفائه، والى أجواء الحرية التي عرف بها وادي النيل، إنه يتألم إن سكت عن الحق وقول الحقيقة، كما يتألم إذا نطق بالحق، فالسجن عقابه، كما يتألم لفقر المصريين ومعاناتهم الشديدة، ثم نراه يلوم العثمانيين على تركهم المصريين ليكونوا لقمة سائغة في فم المستعمر الغاصب الجشع، ويذكر أن المصريين تجمعهم بآل عثمان روابط الأخوة في الله والقرآن الكريم، في حين يرى المستعمر المحتل يخالف المصريين دينا وفضلا وأخلاقا وأدبا.

وقد جاءت لغة الشاعر حافلة بالألفاظ التي تعبر عن معاني الحزن والآسى والألم والقهر كقوله: جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب، أيشتكي الفقر غادينا ورائحنا، لم يتركوا ضرعا لمحتلب، يا آل عثمان، ما هذا الجفاء، تركتمونا لأقوام تخالفنا.. إضافة إلى ما جاء في هذه الأبيات من الصور البيانية المتمثلة في الاستعارات والتشبيهات كقوله: جادت جفوني لها يالؤلؤ الرطب، القوم في مصر كالإسفنج ظفرت بالماء، لم يتركوا ضرعا لمحتلب، السجن

(١) الضرع: الثدي.

متكأ، وقد راوح الشاعر في تعبيراته ما بين الإنشاء والخبر فمن استفهام إلى تقرير ومن ثـم إلى استفهام ومن ثم إلى نداء فتقرير، وكذلك الكناية في قوله: جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب.

ويقول في قصيدة قالها في السوادن شاكيا ألم الفراق واللوعة (من الوافر):

رميـــت بهـــا عـــلى هـــذا التبـــاب ... ومـــا أوردتهـــا غـــير الـــسراب[1]

ومـــــا حملتهـــــا إلا شـــــقاء ... تقاضـــيني بـــه يـــوم الحـــساب

جنيـــت عليـــك يـــا نفـــسي وقـــبلي ... عليـــك جنـــى أبي فـــدعي عتـــابي

فلـــــولا أنهـــــم وأدوا بيـــــاني ... بلغــت بــك المنــى وشــفيت مــا بي[2]

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عما يعانيه من مشاعر المرارة والوجدان، ويقر برمي نفسه في الهلاك، وتمنيتها بالأماني السرابية، وتحميلها الشقاء، وستقاضيه على عمله هذا يوم الحساب والعقاب، ويعترف بأنه جنى على نفسه، كما جنى عليـه أبـوه قبـل ذلـك عنـدما مـات وتركـه يواجه قدره، ويعود ليذكر أنه كان يالإمكان أن يحقق ما يصبو إليه لو وجد من يقدر أشعاره.

لقد جاءت لغة الشاعر في هذه الأبيات طافحة بمشاعر المرارة واللوعة، فألفاظها تفـصح عن ذلك كقوله: رميت بها على هذا التباب، ما أوردتها غـير الـسراب، مـا حملتهـا إلا شـقاء، تقاضيني يوم الحساب، جنيت عليك يا نفسي، جنـى عـلي أبي، وأدوا بيـاني، كـما تظهـر فيهـا الصور البيانية كقوله: تقاضيني يوم الحساب، فلولا وأدوا بيـاني، وفي البيـت الثالـث إشـارة

(١) التباب: الهلاك والأذى.

(٢) الإملاق: الفقر.

خفية وذكية، إلى أبي العلاء المعري الشاعر الضرير، الذي أوصى أن يكتب على قبره عبارة: ((هذا جناه علي أبي وما جنيت على أحد)).

ويقول فيها:

سعيت وكم سعى قبلي أديب ... فآب بخيبة بعد اغتراب

وما أعذرت حتى كان نعلي ... دما ووسادتي وجه التراب[1]

وحتى صيرتني الشمس عبدا ... صبيغا بعدما دبغت إهابي[2]

وحتى قلم الإملاق ظفري ... وحتى حطم المقدار نابي[3]

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن خيبته وفشله في الوصول إلى ما يريد، شاكيا الفقر والخذلان، فقد جد واجتهد في سعيه كما سعى كثير من الأدباء قبله، إلا أنه عاد بعد طول اغتراب يجر أذيال الخيبة والفشل، بعدما اتخذ دمه نعلا وتوسد وجه التراب، وبعدما تغيرت سحنته وصبغت الشمس بالسواد جلده، وبعدما قلم الفقر أظفاره وحطم القدر أنيابه.

بهذه اللغة الحزينة الشاكية يعرب الشاعر عن نفسيته المحطمة وخاطره المكسور يظهر ذلك من خلال ألفاظها كقوله: سعيت وكم سعى قبلي أديب، آب بخيبة، كان نعلي دما، وسادتي وجه التراب، صيرتني الشمس عبدا، دبغت إهابي، قلم الإملاق ظفري، حطم المقدار نابي، وهذه الألفاظ والعبارات حافلة بالصور البيانية ولا سيما الاستعارات، وتجسيد

(١) أعذر: لم يدرك مأربه.

(٢) صبيغا مصبوغا، الإهاب: الجلد.

(٣) الإملاق: الفقر.

المعنوي وإظهاره في صورة المادي المحسوس كقوله: قلم الإملاق ظفري، حطم المقدار نـابي، وفي البيت الأول من هذه الأبيات كأني بالشاعر وهو يشير إلى مقوله ((إن الإنـسان إن أصـبح أديبا فقد أدركته مهنة الفقر)) وكأنه ينظر إلى قول الشاعر:

خلـــق الـــشاعر والبـــؤس معـــا فهـــما خـــلان لم يفترقـــا

ولا يفوتنا أن نذكر أن هذه الأبيات شـابها عنـصر المبالغـة التـي تبـدو بالنـسبة للـشاعر طبيعية، بينما يحسبها عليه الآخرون نوعا من التـصوير غـير الـصادق، ولكـن نقـول للـشاعر عذره، فلا يعرف البؤس إلا من يكابده.

ويقول في بيتين قالهما في (محمد الشيمي) المحامي الذي عمل عنده الشاعر في بداية حياتـه (من البسيط):

جـراب حظـي قـد أفرغتـه طمعـا ببـاب أسـتاذنا (الـشيمي) ولا عجبـا[1]

فعـادلي وهـو مملـوء فقلـت لـه: ممـا؟ فقـال مـن الحـسرات واحربـا[2]

يشكو الشاعر في هذين البيتين حظه العاثر، ويبث فيهما همومه وأحزانه، ويغمز فيهما مـن قناة الشيمي، ويعاتبه على ما كان عنده من الوعود الكاذبة، والآمال الضائعة.

فها هو قد أفرغ جراب حظه طمعا بباب أستاذه (الشيمي)، ولا غرابة في ذلك، لكن هذا الجراب عاد خالي الوفاض مملوءا بالحسرات والوبال...

---

(١) الجراب: الوعاء.

(٢) واحربا: واهلاكا ووبالا، كلمة تأوه.

ولقد استخدام الشاعر فيهما لغة حملت معاني الخيبة واللوعة، وأبدع في تصوير حالـه مـع المحامي (الـشيمي) يبـدو ذلـك في جعلـه للحـظ جرابـا ووعـاء، وعودتـه إليـه وهـو مملـوء بالحسرات والتأوهات.

ويقول في قصيدة يخاطب فيها (آدم) عليه السلام (من الوافر):

سـليل الطـين كـم نلنـا شـقاء ... وكـم خطـت أناملنـا ضريحـا[1]

وكـم أزرت بنـا الأيـام حتـى ... فـدت بـالكبش (إسـحاق) الـذبيحا[2]

وباعـت (يوسـفا) بيـع المـوالي ... وألقـت في يـد القـوم (المـسيحا)[3]

ويـا (نوحـا) جنيـت عـلى البرايـا ... ولم تمـنحهم الـسود الـصحيحا[4]

عـلام حملـتهم في الفلـك هـلا ... تـركتهم فكنـت لـهم مريحـا[5]

أصـاب رفـاقي القـدح المعـلى ... وصـادف سـهمي القـدح المنيحـا[6]

فلـو سـاق القـضاء إلي نفعـا ... لقـام أخـوه معترضـا شـحيحا

---

(١) الضريح: القبر.

(٢) إسحق: هو ابن إبراهيم الخليل الذي أمره الله سبحانه أن يذبحه تحقيقا للرؤيا، وقيل هو إسماعيل لا إسحق، وكلاهما من أم.

(٣) يوسف: هو يوسف بن يعقوب، وكان إخوته قد كادوا له وباعوه بدراهم معدودة.

(٤) إشارة إلى نوح النبي وحمله معه الأصفياء وإلى إغراق الآخرين بالطوفان.

(٥) الفلك: السفينة.

(٦) القدح المعلى: الفائز من السهام بخلاف المنيح .

يخاطب الشاعر آدم (أبا البشر) عليه السلام شاكيا له شقاءه وعذابه، وعذاب بني جنسه من البشر، فكم من قبور حفرتها أصابعهم لمواراة رفات موتاهم، وكم استهانت بهم الأيام فافتدوها، بالغالي والنفيس، وباعوا يوسف بثمن بخس دراهم معدودة، ثم يخاطب نوحا عليه السلام منحيا عليه باللائمة وبجنايته على الخلق حين حمل معه الأصفياء والى ترك الأخرين يغرقون بالطوفان، متمنيا عليه لو ترك الجميع يغرقون لتنتهي الحياة.

ثم نراه يندب حظه، عندما يرى رفاقه يفوزون (بالقدح المعلى) أي بالسهم الفائز. ويكون نصيبه السهم الخاسر (المنيح)، ثم نراه يندب حظه، فلو صادف أن حالفه القضاء والقدر بنفع لسارع الشر والضرر على الاعتراض عليه بخلا وشحا.

بهذه اللغة يشكو آدم، ويعرب عن شقائه وعذابه مستخدما الألفاظ التي تتسرب منها معاني الحزن واللوعة والحسرة كقوله: كم نلنا شقاء، وكم خطت أناملنا ضريحا، وكم أزرت بنا الأيام، فدت بالكبش (إسحق)الذبيحا، وباعت يوسف بيع الموالي، هلا تركتهم فكنت لهم مريحا، صادف سهمي القدح المنيحا.. كما حفلت لغته بالكنايات كقوله: سليل الطين كناية عن آدم الذي خلقه الله سبحانه – من طين، وكما تضمنت الإشارات التاريخية والدينية كقوله: فدت بالكبش (إسحق) الذبيحا، وباعت يوسف بيع الموالي، فضلا عن إيراده عادة العرب في رمي القداح (القدح المعلى الفائز، والقدح المنيح الخاسر).

ويقول في بيتين من الشعر (من البسيط):

يا ساهد النجم هل للصبح من خبر　　　إني أراك على شيء من الضجر

أظـــن ليلـــك مـــذ طـــال المقـــام بـــه　　　كالقوم في مصر، لا ينـوي عـلى سـفر[1]

يعرب الشاعر في هذهين البيتين عن همومه وطول ليله الذي أثقل عليه وطأته، ولا ينوي الرحيل ليبزغ الفجر ويشع النور، وكأنه الإنجليز الذين أطـالوا الإقامـة في مـصر ولا ينـوون الرحيل عنها.

فحافظ إبراهيم مهموم مغموم يساهر النجوم، وقد هرب النوم من عينيه، وطال ليله ولا يلوح في الأفق ما يومئ إلى زواله وانتهائه، وقد استخدم لغـة غلفـت ألفاظهـا بمعـاني الحـزن والشكوى، كقوله: يا ساهر النجم، أراك على شيء من الضجر، مذ طال المقام، مكنيـا بـذلك عن الإنجليز، الذين طالت إقامتهم في مصر.

ويقول في قصيدة يشكو فيها الوحشة والوحدة والأسى وهجر الحبيب:

مـــا لهــــذا الــــنجم في الــــسحر　　　قـــد ســـها مـــن شـــدة الـــسهر

خلتـــــه يـــــا قـــــوم يؤنـــــسني　　　إن جفـــــاني مـــــؤنس الـــــسحر

يـــــالقومي إننـــــــي رجـــــــل　　　أفنـــــت الأيـــــام مـــــصطبري[2]

أســـــهرتني الحادثـــــات وقـــــد　　　نـــام حتـــى هـــاتف الـــشجر[3]

والـــدجى يخطـــو عـــلى مهـــل　　　خطـــو ذي عـــز وذي خفـــر[4]

---

(١) المقصود بالقوم الإنجليز.

(٢) المصطبر: الصبر، مصدر ميمي.

(٣) هاتف الشجر: كناية عن الطير.

(٤) الخفر: الحياء، سها: غاب وغفل، جفاني: هجرني.

فيـــه شـــخص اليـــأس عـــانقني كحبيـــــب آب مـــــن ســـــفر[1]

وأثـــــــارت بي فوادحـــــــــه كامنـــــات الهـــم والكـــــدر[2]

وكـــــأن الليـــــل أقـــسم لا ينقـــضي أو ينقـــضي عمـــري

أيهـــا الزنجـــي مـــا لـــك لمْ تخـــش فينـــا خـــالق البـــشر[3]

لي حبيـــــب هـــــاجر ولـــــه صـــورة مـــن أبـــدع الـــصور

أتلاشـــــــى في محبتـــــــه كـــتلاشي الظـــل في القمـــر[4]

يشكو الشاعر في هذه الأبيات طول ليله الذي أثقل عليه بكلا كله، وجعله يعيش ساهرا يعاني من الوحشة والوحدة،في الوقت الذي كان يأمل فيه أن يؤنسه هذا الليل إذا ما افتقد جليسه، وقد ضاق الشاعر ذرعا من حياته التعسة، فصبر حتى أفنت الأيام صبره، وأقضت المصائب والهموم مضجعه، فجفاه النوم بعد أن خلد الكل إلى الراحة وحتى طيور الشجر انقطعت عن تغريدها وقد غالبها النعاس فنامت هي أيضا، ويضيف والحال أن هذا الليل البهيم لا يشعر بما يعانيه فها هو يسير بطيئا يمشي الهويني وكأنه فتاة تسير مختالة بعزها وحيائها ... وفي هذا الليل احتضنه اليأس بحرارة وكأنه يلتقي حبيبا عاد من سفره بعد غياب واغتراب، ولقد آلمته مصائب هذا الليل فأثارت فيه كوامن الهم والكدر، وكأنه أقسم ألا ينتهي إلا بانتهاء أجله (أي أجل الشاعر)، ثم يخاطب الليل بسواده مستهجنا عدم خشيته من

(١) آب: عاد.

(٢) الفوادح: الخطوب والأرزاء.

(٣) الزنجي: الأسود كناية عن الليل.

(٤) أتلاشى: أذوب.

خالق البشر، ثم يذكر حبيبا هاجرا ذا إطلالة بديعة جميلة يكاد يتلاشى في محبته كتلاشي الظل في القمر.

بهذه اللغة عبر الشاعر عن همومه شاكيا الوحدة والأسى، وقد ظهرت في ألفاظها كقوله: جفاني مؤنس السحر، أفنت الأيام مصطبري، أسهرتني الحادثات، الدجى يخطو على مهل، شخص اليأس عانقني، أثارت بي فوادحه كامنات الهم والكدر، ينقضي عمري، لي حبيب هاجر، أتلاشى في محبته، هذا بالإضافة إلى استخدام الصور البيانية، وتجسيده للمعاني التي أظهرها في صورة المادي، والكناية في قوله: أيها الزنجي، مكنيا عن سواد الليل وظلمته.

ويقول في قصيدة يشكو فيها من شدة المرض وجفاء الإخوان والأصدقاء:

مرضنا فما عادنا عائد	ولا قيل: أين الفتى الألمعي[1]
لا حسن طرس إلى كاتب	ولا خف لفظ على مسمع[2]
سكتنا فعز علينا السكوت	وهان الكلام على المدعي
فيا دولة آذنت بالزوال	رجعنا لعهد الهوى فارجعي
ولا تحسبينا سلونا النسيب	وبين الضلوع فؤاد يعي[3]

يتألم الشاعر مما يعانيه من أمراض، فلا يزوره زائر، ولم يسأل أحد عن هذا الفتى الذكي، ولم يستلم رسالة تواسيه أو يسمع لفظا رقيقا يخف على سمعه، فآثر السكوت فعز عليه، وهان

(١) العائد: زائر المريض في مرضه، الألمعي: الذكي.

(٢) الطرس: الورق.

(٣) أجدبت: أقفرت، الحجا والنهى: العقل.

الكلام على المدعي، ثم نراه يتذكر أيام الصبا واللهو، معلنا الرجوع إليها، طالبا إليها ألا تظن بأنه قد سلا الغزل الرقيق طالما بين ضلوعه قلب يحس ويدرك.

لغة الحزن ظاهرة في هذه الأبيات كقوله: مرضنا، ما عادنا عائد، سكتنا، فيا دولة آذنت بالزوال.

ويقول في بيتين يحتج فيهما على فصل (طه حسين) عن منصب عمادة الآداب في الجامعة المصرية سنة، ١٩٣، ومادحا له (من السريع):

قد أجدبت دار الحجا والنهى بعدك من آرائك النافعه[1]

وأخصبت أرجاء مصر بمن صير مصرا كلها جامعه

فأرض مصر لم تجدب وحسب، بل أجدب معها الحجا والعقول، بعد فصل طه حسين صاحب الآراء والأفكار النافعة، والذي كان سببا في خصوبة أرض مصر حين عمم التعليم فوصلت مصر إلى ما وصلت إليه من تقدم وتطور حتى أصبحت مصر كلها جامعة.

والتصوير والتجسيد باد في قوله أجدبت دار الحجا والنهى، والمطابقة بين أجدبت وأخصبت ظاهرة في البيت الثاني.

ويقول في أبيات يعبر فيها عن معاناته في الليل وما ينزل في ساحته من هموم وأحزان (من الطويل):

أقضيه في الأشواق إلا أقله بطيء سرى أبدى إلى اللبث ميله[2]

(١) الحجا والنهى: العقل.

(٢) السرى: سير الليل، اللبث: المكث.

وليس اشتياقي عن غرام بشادن ... ولكنه شوق امرئ فات أهله[1]

فيا لك من ليل أعرت نجومه ... توقد أنفاسي وعانيت مثله

ومل كلانا من أخيه وهكذا ... إذا طال عهد المرء بالشيء مله

هكذا يمضي الشاعر ليله مشتاقا مهموما محزونا، فهذا الليل بطيء السير يميل إلى الثبات لا يتحرك، واشتياقه ليس ناتجا عن غرامه بظبي غرير، ولكنه شوق امرئ فات أهله، وقد أعار أنفاسه المتوقدة إلى هذا الليل، فعاني ما عاناه، ولكن صحبتها طالت، فاعتراها الملل؛ لأن ملازمة الإنسان لشيء ما ينتهي به إلى الملل منه.

وتبدو في الأبيات الألفاظ الحاملة للهموم وذلك في مثل قوله: بطيء سرى، أقضيه في الأشواق، شوق امرئ فات أهله، فيا لك من ليل أعرت نجومه، توقد أنفاسي، مل كلانا من أخيه، إذا طال عهد المرء بالشيء مله، كما تبدو فيها الصور البيانية في مثل قوله: أعرت نجومه توقد أنفاسي.

ومن باكورة شعره يقول شاكيا (من الطويل):

سعيت إلى أن كدت انتعل الدما ... وعدت وما أعقبت إلا التندما

لحى الله عهد القاسطين الذي به ... تهدم من بنياننا ما تهدما[2]

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم ... فلا تك مصريا ولا تك مسلما

سلام على الدنيا سلام مودع ... راى في ظلام القبر أنسا ومغنما

(١) الشادن: الظبي الغرير.

(٢) لحى: لعن وقبح، القاسطون: الظالمون.

أضرت بـــه الأولى فهـــام بأختهـــا فإن ساءت الأخرى فـويلاه منهما[1]

فهبـي ريـاح المـوت نكبـا وأطفئـي سراج حيـاتي قبـل أن يـتحطما[2]

فـما عـصمتني مـن زمـاني فـضائلي ولكـن رأيـت المـوت للحـر أعـصما[3]

يشكو الشاعر في هذه الأبيات العسف والظلم، وعدم محالفته التوفيق في مسعاه رغم جده وعمله، ويشعر الشاعر باليأس والإحباط، فهو يتمنى الموت، لأن فيه الراحة والكرامة، وقد عبر الشاعر عن هذا الإحساس في لغة حملت ألفاظها معاني الحزن والأسى، كمثل قوله: كدت انتعل الدما، ما أعقبت إلا التندما، سلام مودع، رأى في ظلام القبر أنسا ومغنما، أضرت به الأولى، إن ساءت الأخرى فويلاه منهما، فهبي رياح الموت، وأطفئي سراج حياتي، رأيت الموت للحر أعصما، ناهيك عن الصور البيانية والفنون البديعية التي احتوتها هذه الأبيات.

ويقول فيها:

فيـا قلـب لا تجـزع إذا عـضك الأسـى فإنـك بعـد اليـوم لـن تتألمـا[4]

ويـا عـين قـد آن الجمـود لمـدمعي فـلا سـيل دمـع تـسكبين ولا دمـا

ويـا يـد مـا كلفتـك البـسط مـرة لـذي منـة أولى الجميـل وأنعـما[5]

---

(١) هام: أولع.

(٢) نكبا: هوجا.

(٣) أعصما: أكثر عصمة وحفظا .

(٤) تجزع: تخف، تيأس، عضك الأسى، ساءك الحزن.

(٥) ذو المنة: من يعطي متشوفا.

فللــه مــا أحــلاك في أنمــل الــبلى وإن كنت أحلى في الطـروس وأكرمـا[1]

ويــا قــدمي مــا سرت بي لمذلــة ولم ترتقـــي إلا إلى العـــز ســـلما

فـلا تبطئـي سـيرا إلى المـوت وأعلمـي بـأن كـريم القـوم مـن مـات مكرمـا

يخاطب الشاعر في هذه الأبيات جوارحه متألما فيطلب من قلبـه الأ يأسـى وأن يتـصف بالصبر والثبات على الشدائد، ويطلب من عينه الكف عن البكاء، ومن يـده التحـلي بالعفـة والعزة وعدم الاستعطاء، ومن قدمه الاتصاف بالأنفة وعدم السعي به في مذلة أو هوان.

هكذا صاغ الشاعر هذه المعاني في لغة ترتفع عن السطحية، وتدنو من العمـق والتـصوير المبدع، جاء ذلك من خلال ألفاظها الموحية بتموجات الحزن والحسرة، وفي الوقت نفسه تنأى عن مهاوي السقوط، والوقوع في أحضان المنَة والتفضل والتعالي.

ويقول فيها:

ويا نفس كـم جـشمتك الـصبر والرضـا وجــشمتني أن ألــبس المجــد معلــما[2]

ويـــا قـــبر لا تبخـــل بـــرد تحيـــة عـــلى صـــاحب أوفى علينـــا وســـلما

وهيهـات يـأتي الحـي للمـيت زائـرا فــإني رأيــت الــود في الحــي أســقما

ويأيهـا الـنجم الـذي طـال سـهده قـد أخـذت منـه الـسرى أيـن يممـا[3]

(١) البلى: الفناء، الطروس: الورق والصحف.

(٢) جشمتك: حملتك، معلما: فيه علامات.

(٣) يمما : قصد، سهده: عدم نومه، السرى: السير ليلا، الأين: التعب.

لعلك لا تنسى عهود منادم　　　　تعلم منك السهد والأين كلما[1]

يخاطب الشاعر نفسه في هذه الأبيات طالبا إليها التحلي بالصبر، كما يطلب من القبر ألا يبخل برد التحية على صاحب مر به وألقى عليه السلام، ولكن الشاعر يستبعد أن يزور الحي الميت، فقد علمته الحياة أن الود لدى الحي للميت من سهده أينما سار واتجه، ويطلب من هذا النجم الحفاظ على ما بينهما من عهود السهد، فقد تعلم منه الكثير في هذا المنحى..

حديث الشاعر لنفسه وطلبه إليها بالتجمل والصبر، ولقبره بالتكرم بتحية زائره، وللنجم بحفظ وداد الصحبة والسهد، جاء مصوغا بألفاظ وعبارات تفتقت عنها هذه المعاني، التي يدركها المتأمل والمتذوق لجمالها والمتفهم لمراميها.

ويقول قي بيتين:

يامن خلقت الدمع لطفا　　　　منك بالباكي الحزين

بارك لعبدك في الدموع　　　　فإنها نعم المعين

يتضرع الشاعر إلى خالق الدمع بأن يلطف بالباكي الحزين وأن يبارك له في الدموع التي يذرفها فهي خير معين، وبلسم شاف للحزانى والبائيسن أمثاله...

تجتمع في هذين البيتين ضروب الهموم من بكاء ودموع وحزن ترافق الذين عبست لهم الحياة، وبخلت عليهم بابتسامتها.

ويقول في قصيدة شاكيا واجدا (من المتقارب):

(١) وكلما: يتبعها كلام لم يقله الشاعر لكنه يفهم معناه من الكلام الذي قبله.

نعمـــــن بنفـــــسي وأشـــــقينني فيـــا ليـــتهن ويـــا ليتنـــي

خـــلال نـــزلن بخـــصب النفـــوس فـــرو يـــنهن وأظمـــأنني[1]

تعـــودن منـــي إبـــاء الكـــريم وصـــبر الحلـــيم وتيـــه الغنـــي[2]

وعـــودتهن نـــزال الخطـــوب فـــما ينثنـــين ومـــا أنثنـــي[3]

يشكو الشاعر في هذه الأبيات تحمله الفضيلة، وتعوده الصبر على البلاء، فهو دوما في صراع مع أهواء النفس.

ويقول فيها:

فـــما زلـــت أمـــرح في قـــدهن ويمـــرحن منـــي بـــروض جنـــي[4]

إلى أن تـــولى زمـــان الـــشباب وأوشـــك عـــودي أن ينحنـــي

يصور الشاعر في هذين البيتين صراع الفضيلة وهوى النفس، فالحرب بينهما سجال، ولا تزال مستمرة، والحال أن زمان الشباب انتهى وولى واقترب عوده من الانحناء والانفصام.

ويقول فيها:

فيـــا نفـــس إن كنـــت لا تـــوقنين بمعقـــود أمـــرك فاســـتيقني

فهـــذي الفـــضيلة ســـجن النفـــوس وأنـــت الجـــديرة أن تـــسجني

---

(١) الخلال: الصفات الحسنة.

(٢) التيه: الكبر.

(٣) نزال: عراك.

(٤) أمرح: ألهو وألعب، وجني: غني بالثمار والغلال.

فــــلا تــــسأليني متــــى تنقــــضي ... ليــــالي الإســــار؟ ولا تحــــزني[1]

يبين الشاعر أن الفضيلة سجن لمن يتمسك بها، ولا يدري متى يكون إطلاق سراحه من هذا السجن، طالبا إليها ألا تحزن عليه عندما يفك أسره.

لقد جاءت أبيات هذه القصيدة مجسدة لشكوى الشاعر ووجدانه، وقد نطقت ألفاظها بما يقاسيه من هم وغم كقوله: استيقني، نزال الخطوب، تولى زمان الشباب، أوشك عودي أن ينحني، الفضيلة سجن النفوس، ليالي الإسار، لا تحزني، وكان الشاعر بارعا في تصويرها باستخدامه الصور البيانية من استعارات وتشابيه.

ويقول في أبيات من بواكير شعره شاكيا الدهر وتقلب الزمان (من البسيط):

لم يبــق شيء مــن الــدنيا بأيــدينا ... إلا بقيــــة دمــــع في مآقينــــا[2]

كنــا قــلادة جيــد الــدهر فانفرطــت ... وفي يمــين العــلا كنــا رياحينــا[3]

كانــت منازلنــا في العــز شــامخة ... لا تــشرق الــشمس إلا في مغانينــا[4]

وكــان أقــصى منــى نهــر (المجــرة) لــو ... مــن مائــه مزجــت أقــداح ســاقينا[5]

والــشهب لــو أنهــا كانــت مــسخرة ... لــرجم مــن كــان يبــدو مــن أعادينــا[6]

(١) الإسار: الحبس والسجن.

(٢) مآقينا: عيوننا.

(٣) القلادة: العقد.

(٤) مغانينا: منازلنا.

(٥) المجرة: البياض المعترض في السماء ليلا وهو يضم ملايين النجوم.

(٦) الرجم: الضرب.

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات متحسرا على ذهاب العز الذي كانوا فيه، وتنكر الزمان لهم بعد عز وفخار. فلم يبق شيء في أيديهم غير بقية دموع في العيون، بعد أن كانوا قلادة تزين عنق الزمان، ورياحين في سماء العلا، وبعد أن كانت منازلهم تشع بالعز، ولا تشرق الشمس إلا في مغانيهم.

لقد أورد الشاعر هذه المعاني في لغة اتسمت ألفاظها وعباراتها بالتحسر والحزن على عز ذاهب، وفخار آفل. وظهر فيها التصوير المتمثل في إيراد الظواهر الطبيعية التي تبين ما قصد إليه من معان كذكره لنهر المجرة والشهب المسخرة لرجم الأعداء، وكأنه يشير إلى قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾

ويقول فيها:

فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا ... شزرا وتخدعنا الدنيا وتلهينا[1]

حتى غدونا ولا جاه ولا نشب ... ولا صديق ولا خل يواسينا[2]

لا يزال الشاعر يتحدث عن تقلب الدهر وغدره، فيؤكد في هذين البيتين ما ذهب إليه من معان في الأبيات السابقة، فصروف الزمان ونوائبه لا تنفك تنظر إليهم شزرا، والدنيا تخدعهم بحطامها وتلهيهم بعرضها، ولا حظ أو نصيب لهم منها، إلى أن أصبحوا لا جاه ولا مال ولا صديق يعزيهم في مصابهم.

---

(١) شزرا: بغضب.

(٢) يواسينا: يعزينا.

ويقول في قصيدة عندما مر بالبلد الذي أقام فيه حينا من الدهر ثم تركه ثم عاد إليه (من البسيط):

كم مر بي فيك عيش لست أذكره ... ومر بي فيك عيش لست أنساه

ودعت فيك بقايا ما علقت به ... من الشباب وما ودعت ذكراه

أهفوإليه على ما أقرحت كبدي ... من التباريح أولاه وأخراه[1]

لبسته ودموع العين طيعة ... والنفس جياشة والقلب أواه[2]

فكان عوني على وجد أكابده ... ومر عيش على العلات ألقاه[3]

إن خان ودي صديق كنت أصحبه ... أو خان عهدي حبيب كنت أهواه

يذكر الشاعر في هذه الأبيات أياما غابرة عاشها في تلك الديار حيث كان الشباب والمرح، وحيث حلاوة العيش ومرارته، ويحن إليها، على ما فيها من جروح وقروح أصابت كبده وآلام عاناها، وعيش كابده، ودموع طيعة ذرفها، ونفس جياشة حملها، وقلب مكلوم مغموم حواه.

بهذه اللغة يعرب الشاعر عن أيامه الغابرة في تلك المرابع، مستخدما الألفاظ والتراكيب التي تحمل الحنين والحزن، فتمثلت في قوله: فيك عيش لست أذكره، فيك عيش لست أنساه، ودعت فيك بقية ما علقت به من الشباب، أهفو إليه على ما أقرحت كبدي من التباريح،

(١) أهفو: أميل، أقرحت: أصابت بالقروح والجروح، التباريح: الآلام.

(٢) أواه: متألم مغموم، جياشة: مضطربة.

(٣) أكابده: أعانيه.

لبسته ودموع العين طيعة، النفس جياشة، القلب أواه ... وجد أكابده، ومر عيش على العلات ألقاها.. إضافة إلى ما ورد فيها من الصور البيانية التي تبرز في الاستعارات.

ويقول فيها:

قد أرخص الدمع ينبوع الغناء به ... والهفتي ونضوب الشيب أغلاه[1]

كم روح الدمع عن قلبي وكم غسلت ... منه السوابق حزنا في حناياه

لم أدر ما يده حتى ترشفه ... فم المشيب على رغمي فأفناه

يذكر الشاعر في هذه الأبيات مواقف عاشها في تلك المرابع، حيث كان الدمع ممتزجا بالشباب فكيف الآن وهو في مرحلة المشيب، ويتحسر على أن الشيب قد جعل دمعه غاليا عزيزا، ولا يدري كيف تم للمشيب هذه الهيمنة حتى أتى على كل ما لديه من دموع.

تفيض لغة الشاعر في هذه الأبيات بالحزن واللوعة والحسرة التي جسدتها الصور البيانية والفنون البديعية تمثلت فيما أورده فيها من استعارات ومطابقة وتجسيد للمعاني وإظهارها في صورة المادي.

ويقول فيها:

قالواتحررت من قيد الملاح فعش ... حرا ففي الأسرذل كنت تأباه

فقلت ياليته دامت صرامته ... ما كان أرفقه عندي وأحناه

بدلت منه بقيد لست أفلته ... وكيف أفلت قيدا صاغه الله

(١) الغناء: الإقامة.

أسرى الصبابة أحياء وإن جهدوا أما المشيب ففي الأموات أسراه[1]

يرد الشاعر في هذه الأبيات على أؤلئك الذين يغبطوته على العزوبية والتحرر من أسر الحسناوات، لأن في أسرهن ذلا يأباه ويرفضه، ويتمنى لو دامت صرامة ذلك الأسر وقسوته، فقد كان أكثر رفقا وحنانا به من العبودية الحقة التي هو فيها حاليا، فقد تبدل القيد بالنساء الذي شرعه الله، بقيد لا يستطيع الإفلات والانعتاق منه، حيث الوحدة والوحشة والعزلة.... ويقول إن أسرى الحب أحياء وإن شقوا وتعبوا، أما مرحلة المشيب ففي الأموات أسراه.

بهذه اللغة الحوارية يعرب الشاعر عن موقفه من الزواج والعزوبية، ويرى فيه تفضيله قيد الزواج وأسره على ما هو عليه الآن من حال لا يحسد عليها.

ويقول في قصيدة معاتبا ثلة من أصحابه (من المتقارب):

تناءيت عنكم فحلت عرا وضاعت عهود على ما أرى[2]

وأصبح حبل اتصالي بكم كخيط الغزالة بعد النوى[3]

وقد زال ما كان من ألفة وود زوال شهاب الدجى[4]

كأن بقاء الوفا بينكم وبيني بقاء حباب الحيا[5]

---

(١) الصبابة: شدة الشوق والعشق.

(٢) العرا: الرابطة بين طرفين.

(٣) الغزالة: الشمس، النوى: البعد.

(٤) شهاب الدجى: كناية عن النجم.

(٥) الحيا: المطر، وحياه ما يرى فيه أو عليه من فقاعات.

يشكو الشاعر في هذه الأبيات انفراط عقد الصحبة والصداقة والوفاء، لما ابتعد عن أصحابه. وقد عبر عن هذه المعاني بتجسيدها في صور بيانية، حين جعل للصداقة عرا تحل، والعهود تضيع، وحبل الوصال كشعاع الشمس عند المغيب، والألفة والود يزولان كزوال نجوم الليل، وبقاء الوفاء بينه وبين أصحابه كبقاء فقاعات المطر لا نفع فيها.

ويقول فيها:

سكنت إليكم ولم تسكنوا … إلي وقد كنت نعم الفتى[1]

ونفسي فريقان: هذا به … مزجت الوفاء، وذاك الندى[2]

أصبتم تراثا وألهاكم التكاثر … عنا فسر العدا[3]

ومن كان ينسيه إثراؤه … صديق الخصاصة لا يصطفى[4]

في هذه الأبيات ينحي الشاعر باللائمة على أصحابه الذين تفرقوا عنه، لقد أخلص لهم في صداقته وكان نعم الصديق الذي يحمل بين جنبه نفسا عرفت بالوفاء والجود ويرى أن هؤلاء الأصحاب أصابوا مالا ألهاهم الاتجار فيه، مما جعل الأعداء يشمتون بهذه الصداقة التي كانت رياء وكذبا؛ لأن الصديق الذي ينسيه ثراؤه فقر وحاجة أصدقائه لا يستحق اتخاذه صفيا وصديقا، وقد جاءت لغة الشاعر في هذه الأبيات شاكية ولائمة، صاغها بألفاظ تنطق بالألم والأسف على مثل تلك الصداقة التي لم يكتب لها البقاء والاستمرار؛ لأنها كانت قائمة

---

(١) سكنت إليكم: أخلصت إليكم في مودتي.

(٢) الندى: الجود والكرم.

(٣) التراث: المال.

(٤) الخصاصة: الفقر والحاجة.

على الكذب والرياء.. وقد بدا ذلك في قوله: سكنت إليكم ولم تسكنوا إلي، أصبتم تراثا، ألهاكم التكاثر، فسر العدا، من ينسيه إثراؤه، صديق الخصاصة لا يصطفى.. إضافة إلى وجود الصور البيانية كقوله: مزجت الوفاء وذاك الندى، من كان ينسيه إثراؤه....

١١- المترجمات:

كان حافظ إبراهيم عصاميا لا عظاميا، لم ينل حظه الطبيعي من الدراسة المنتظمة، لكنه درس على نفسه واستطاع بجهوده الخاصة واعتماده على ذاته أن يتثقف بثقافة أخرى غير لغته الأم، فقد تعلم اللغة الفرنسية وأجادها، وترجم عنها، ومعروف عنه أنه ترجم (كتاب البؤساء) لفكتوريا هيجو الأديب الفرنسي إلى اللغة العربية، كما ورد في ديوانه أبيات شعرية مترجمة عن الفرنسية.

يقول في بيتين مترجمين (لجان جاك رسو) الشاعر والأديب الفرنسي المشهور (من السريع):

يا أيها الحب امتزج بالحشا فإن في الحب حياة النفوس [1]

واسلل حياة من يمين الردى أوشك يدعوها ظلام الرموس [2]

هذان البيتان المترجمان يعكسان ما كان يعانيه الشاعر من تباريح الحب وهو في شرخ الشباب وميعة الصبا، يطلب الشاعر الفرنسي من الحب أن يغزو أحشاءه لأن النفوس تحيا بالحب، ويطلب منه أن يستل الحياة من يمين الموت الذي أوشك أن يودعها ظلام القبور.

---

(١) الحشا: الأحشاء، الجوف.

(٢) الردى: الموت، الرموس: القبور، جمع رمس.

ويقول في بيت مترجم من شعر (فولتير) الأديب الشاعر الفرنسي الشهير (من الخفيف):

لا أبـــالي أذى العـــدو فحطنـــي   أنـــت يـــارب مـــن ولاء الـــصديق

لا يكترث الشاعر بأذى العدو؛ لأنه يعرف حقيقته في إعلان عداوته له، فيأخذ حذره منه، ولكنه يضرع إلى الرب سبحانه – بأن يحفظه من ولاء الصديق الذي قد يظهر خلاف ما يخفي، وكأنه ينظر في هذا البيت إلى قول القائل ((اللهم احفظني من أصدقائي، أما أعدائي فأنا كفيل بهم)).

ويقول في بيتين من الشعر مترجمين عن (جان جاك رسو) وهما من شعر الغزل (من السريع):

تمـــثلي إن شـــئت في منظـــر   (يـا جوليـا) أنكـر فيـه الغـرام

أوفـــا بعثـــي قلبـــا إلى أضـــلع   راح بـــه الوجـــد وأودى الـــسقام[1]

في هذين البيتين يناشد الشاعر (جوليا) أن لا تظهر بصورتها المشهورة الجميلة المنظر لئلا تثير فيه كوامن الوجد واللوعة والهيام.

ويبدو الشاعر هنا ملتاعا واجدا من شدة الحب ومعاناته، وتظهر فيها براعة التصوير حين يطلب من (جوليا) أن تعيد قلبه الذي أسرته إلى أضلعه فقد براه وأهلكه السقام.

ويقول في أبيات ثلاثة ترجمها عن (جان جاك روسو) وهي من شعر الغزل (من السريع):

---

(١) الوجد: لوعة الحب.

غضي جفون السحر أو فارحمي — متيما يخشى نزال الجفون[1]

ولا تصولي بالقوام الذي — تميس فيه يا مناي المنون[2]

إني لأدري منك معنى الهوى — (يا جوليا) والناس لا يعرفون[3]

في هذه الأبيات يطلب الشاعر من حبيبته (جوليا) أن تغض من سحر جفونها، وترحم عاشقا ولهانا معنى يخاف من سهام الجفون وعراكها، كما يطلب منها ألا تستخدم قوامها الممشوق تتهادى وتتجامل به خوفا عليها من ريب المنون، والأبيات تفيض بالعاطفة الجياشة والإحساس المرهف للحبيبة (جوليا) وتنطق بما يعانيه من وطأة الحب وشدته على قلبه.

ويجدر بالذكر هنا أن ما حواه ديوان حافظ من القصائد المترجمة يكاد ينحصر في غرض الغزل .. ولعل السر في ذلك أن هؤلاء الشعراء الفرنسيين غزا الحب قلوبهم فكان بوحهم به في مجتمعهم المتحرر من القيود الاجتماعية.

١٢ – المرثيات: (محصورة في رثاء زعماء مصر ورجالها من الأحرار والوطنيين وقادتها الإصلاحيين وعلمائها المشهورين وأبنائها المخلصين):

قيل: الوفاء في الرثاء، فكان حافظ إبراهيم حاملا لواء هذا الشعار، فقد رثى فوفى، واجترع كأس الحزن وارتوى ممن رثاهم بعاطفته الصادقة وإحساسه المخلص ... وهو القائل:

---

(١) غضي: كفي عن النظر، المتيم: العاشق الولهان، نزال الجفون: حربها وعراكها.

(٢) لا تصولي: لا تبرزي. تميس: تميل.

(٣) جوليا: حبيبة الشاعر.

إذا تــــصفحت ديـــواني لتقـــرأني   وجـدت شـعر المراثـي نـصف ديـواني

فالشجا يبعث على الشجا والآسى يثير الأسـى، هكـذا كـان حـافظ مـع إنـسان مـصر، ونستعرض في هذا السياق طائفة من قصائده في الرثاء مكتفين باجتزاء أبيات منها تفي بمـراد هذه الدراسة.

يقول في رثاء (سليمان أباظة باشا) ناظر المعارف المتوفي سنة ١٨٩٧ (من الكامل):

لا، والأســـى وتلهـــب الأحـــشاء   مـــا بـــات بعـــدك معجـــب بوفـــاء

أنـــى حللـــت أرى عليـــك مأتمـــا   فلمـــن أوجـــه فيـــك حـــسن عزائـــي؟

لبنيـــك أم لـــذويك أم للكـــون أم   للـــدهر أم لجماعـــة الجـــوزاء[1]

أودى (ســـليمان) فـــأودى بعـــده   حـــسن الوفـــاء وبهجـــة العليـــاء[2]

في هذه الأبيات يعبر الشاعر عن أساه وحزنه لفقـد هـذا الـزعيم الـوطني الكبـير، وهـو حائر في عزائه، ومن يعزي بنيه، أم ذويه أم الدهر كله، أم الجوزاء بعشرات نجومهـا؟ فالمـآتم تقام أينما حل الشاعر، فبموته، أودى الوفاء الحسن، وذهبت بهجة السماء.

بهذه اللغة الحزينة الأليمة يعرب الشاعر عن حزنه لفقد هذا الرجـل العظـيم، فـألفاظها تفيض بهذا المعنى، فالأحشاء متلهبة، والمـآتم منتـشرة في كـل مكـان تبكيـه بحـسرة ولوعـة، وبرحيله رحل معه حسن الوفاء وبهجـة الـسماء... ولعـل الـشاعر يبـدو مبالغـا عـلى طريقـة الأقدمين في تصوير الفجيعة والأسى، فكأن الوفاء والسرور ما كانا إلا لما كان المرثي، ونحـن

---

(١) الجوزاء: اسم كوكبة في السماء عدتها بضع عشرات من النجوم.

(٢) أودى: قضى نحبه.

نقول بدورنا هذا خيال شاعر له عواطفه ومشاعره الخاصة، فالذي يعاني من ألسنة النيران ليس كمن ينظر إليها عن بعد !!

ويقول فيها:

لا تحملوه على الرقاب فقد كفى ... ما حملت من منة وعطاء

وذروا على نهر المدامع نعشه ... يسري به للروضة الفيحاء[1]

تالله لو علمت به أعواده ... مذ لامسته لأورقت للرائي[2]

خلق كضوء البدر، أو كالروض أو ... كالزهر، أو كالخمر أو كالماء

ومحامد نسجت له أكفانه ... من عفة، وسماحة، وإباء

ومناقب لولا المهابة والتقى ... قلنا مناقب صاحب الإسراء[3]

في هذه الأبيات يخاطب الشاعر المشيعين للراحل طالبا إليهم ألا يحملوه على رقابهم؛ لأن هذه الرقاب مثقلة بما تحمله من عطاياه ونواله، ومتمنيا عليهم لو يحمل نعشه على نهر المدامع أسى وحزنا عليه، ليسرى به إلى جنان الخلد، ويقسم الشاعر أن أعواد هذا النعش لو كانت تملك الإحساس به لبدت لناظرها مورقة خضراء، ومن ثم يعدد الشاعر مناقب الفقيد، فخلقه كالبدر في ضيائه، أو كالروض في اخضراره، أو كالزهر في إيناعه، أو كالخمر في نشوته، أو كالماء في صفائه.

(١) الفيحاء: الواسعة، الروضة : الجنة، ذروا: اتركوا ودعوا.

(٢) الأعواد: المقصود بها عيدان النعش وخشبه .

(٣) صاحب الإسراء: هو النبي صلى الله عليه وسلم الذي أسرى به الله سبحانه من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى.

بهذه اللغة التي بالغ وأفرط فيها في التعبير عن الفجيعة... يبدو ذلك واضحا كل الوضوح، وبخاصة حين جعل محامد الفقيد تنسج أكفانه، وخيوطها عفة وسماحة وإباء، وحين جعل مناقب الفقيد لولا مهابته وتقواه، هي مناقب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ونقول هنا لعل للشاعر عذره وحجته في مبالغته هذه.

ويقول فيها:

عطلت فن الشعر بعدك وانطوى	**أجل القريض وموسم الشعراء**[1]
واللؤلؤ استعصى علينا نظمه	**بسموط مدح أو سموط هناء**[2]
إلا على طرف بكاك وشاعر	**أحيا عليك مراثي الخنساء**[3]
شوقتنا للترب بعدك واشتهى	**فيه الإقامة واحد العذراء**[4]
ثبت فؤادك ياقليل تصبري	**واشرح (لال أباظة) برحائي**[5]
في جنة الفردوس بات عزيزهم	**ضيفا بساحة أكرم الكرماء**

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الفراغ الذي تركه الفقيد وراءه فالشعراء بعد وفاته لن تجد من تمدحه وتقرضه وتثني عليه، وكلمات الشعر استعصت على ناظميها، ولم يقدروا على نظمها مدحا وهناء، لكنه يستثنى من ذلك ما يبقى للشعر مجده وخلوده، وهو فن الرثاء،

(١) القريض: الشعر.

(٢) سموط الشعر: قصائده، جمع سمط وهو السلك الذي ينظم فيه اللؤلؤ.

(٣) الخنساء: هي تماضر بنت عمرو الشاعرة الجاهلية المشهورة برثاء أخويها.

(٤) واحد العذراء: هو عيسى المسيح عليه السلام ابن مريم العذراء.

(٥) البرحاء: الحزن.

رثاء هذا الرجل العظيم، والبكاء عليه، وهذا ما فعله الشاعر، ويذكر ببكاء الخنساء الشاعرة الجاهلية على أخويها، ورثائها إياهما وهو من أجمل الرثاء وأصدقه عاطفة وأغزره شعرا. ويسترسل الشاعر في حديثه، فيتذكر أنه غدا مشتاقا لتراب القبر بعد هذا الفقيد، كما أن السيد المسيح ابن مرم العذراء الحي فينا ليتشوق إلى أن يموت فيدفن في التراب الذي احتضن جثمان الراحل..

بهذه اللغة المبالغ فيها يتحدث الشاعر عن هول الفجيعة بالمصاب الجلل، بالراحل الكبير (سليمان أباظة باشا)، وألفاظها تطفح بمعاني الحزن والأسى، والحسرة، كمثل قوله: عطلت فن الشعر، انطوى أجل القريض، اللؤلؤ استعصى علينا نظمه، طرف بكاك، وشاعر أحيا عليك مراثي الخنساء، شوقتنا للترب، اشتهى فيه الإقامة واحد العذراء، واشرح لآل أباظة برحائي، كما استخدم الشاعر بعضا من الصور البيانية، كالاستعارة والكناية، فضلا عن إيراد الإشارات التاريخية والدينية .

وفي قصيدة قالها واقفا على ضريح (سعيد) ابن أخت سعد زغلول، يقول (من مجزء الكامل):

مــــا أنـــــت أول كوكـــــب	في الغـــرب أدركـــه المغيـــب
فهنـــاك أقــــمار المـــشارق	قـــد أتـــيح لهـــا الغـــروب
داس الحـــمام عـــرين خالـــك	وهومرهــــــوب مهيـــــب
يــا (ســعد) كيــف قــضى (ســعيد)	وهـــو مـــن (ســعد) قريـــب؟
عجبـــا أتحمــــي أمــــة	وتخـــاف جانبـــك الخطـــوب
ويغـــال ضـــيفك وابـــن أختـــك	وهـــو عـــن (مـــصر) غريـــب؟

وإذا بكـــى (ســـعد) بكـــت	لبكائـــــه منــــا القلــــوب
يـــــا (آل زغلـــــول) ذوى	مـــن روضـــكم غـــصن رطيـــب
إني لأخجــــــل أن أعــــزيكم	وكلكـــــــــم أريــــــــب
خطـــب الكنانـــة في فقيـــدكم	لخطــــــبكم يـــــــشيب
لم يبــــق منـــــا واحـــــد	إلا لــــــه منـــــه نـــــصيب

يذكر الشاعر وفاة (سعيد) غريبا بعيدا عن وطنه، فهو ليس أول كوكب أدركه المـوت في بلاد الغرب، ثم يخاطب (سعد زغلول) – خال المتوفى – وهو في منفـاه، متعجبـا مـن اخـترام الموت ل (سعيد) وهو قريب منه وفي ضيافته، وهو من هو، رهبة ورفعـة ولقـد بكـت قلـوب المصريين لبكاء سعد وحزنه على ابن أخته (سعيد)، ثم يخاطب (آل زغلول) معزيا بوفاة ابنهم (سعيد) وهو لا يزال غض الإهاب وفي عز الشباب والشاعر يـشعر بالخجـل مـن تعزيتهم، وهم من هم من المهارة والحذق والخبرة، وإن مـصابهم هـو مـصاب المـصريين، أبنـاء أرض الكنانة، شابت منه رؤوسهم وكان لكل واحد منهم نصيب في الحزن على الفقيد.

بهذه اللغة الحزينة الباكية يعرب الـشاعر عـن أسـاه وأسـى المـصريين في مـصابهم بوفـاة (سعيد) ابن أخت (سعد زغلـول) الـزعيم الـوطني المـصري، وقـد اسـتخدم فيهـا أسـلوب التعجب والدهشة والانفعال يبـدو ذلـك في قولـه: مـا أنـت أول كوكـب في الغـرب أدركـه المغيب، يا (سعد) كيف قضى سعيد؟ عجبا أتحمى أمة، ويغال ضيفك وهو عن مصر غريـب، إذا بكى (سعد)، بكت لبكائه القلوب، ذوى من روضكم غصن رطيـب، خطـب الكنانـة، لم يبق منا واحد إلا له منه نصيب، إضافة إلى ما تضمنها من صور بيانية تمثلـت في الاسـتعارات

والتشبيهات والكناية، ولا يغيب عنا مبالغة الشاعر في التعبير عن حزنه، فهذا شأن يخصه، ولنا تعليق عليه وعلى غيره فيما بعد.

وقال في قصيدة يرثي (علي يوسف) صاحب جريدة المؤيد سنة ١٩١٣ (من البسيط):

صونوا يراع (علي) في متاحفكم   وشاوروه لدى الأرزاء والنوب(١)

واستلهموه إذا ما الرأي أخطأكم   يوم النضال عن الأوطان والنشب(٢)

قد كان سلوة (مصر) في مكارهها   وكان جمرة (مصر) ساعة الغضب

أودى فتى الشرق، بل شيخ الصحافة، بل   شيخ الوفائية الوضاحة الحسب(٣)

يخاطب الشاعر المصريين مستحثا إياهم على صون ما كتبه(علي) في حياته، وعلى الأخذ بآرائه، واستلهام أفكاره الوطنية، وأن يودعوها في متاحفهم للعودة إليها كلما استدعتها المناسبة. ويذكر أن الفقيد كان ملاذ مصر إذا ما ألم بها مكروه، أودهاها داه في ساعة غضب، أو حل بها خطب.

ولقد عبر الشاعر عن هذه المعاني بلغة سادها الحزن والأسى على فقيد فتى الشرق وشيخ الصحافة وشيخ الطريقة الوفائية الوضاحة الحسب.

ويقول فيها:

لولا (المؤيد) ظل المسلمون على   تناكر بينهم في ظلمة الحجب

(١) اليراع: القلم، الأرزاء والنوب: المصائب.

(٢) النشب: الأموال.

(٣) أودى: هلك.

تعارفوا فيه أرواحا وضمهم ... رغم التنائي زمام غير منقضب

في مصر في تونس في الهند في عدن ... في الروس في الفرس في البحرين في حلب

هذا يحن إلى هذا وقد عقدت ... مودة بينهم موصولة النسب

ينوه الشاعر (بجريدة المؤيد) صحيفة الفقيد، ويثني على دورها ونهجها فقد كانت منبرا للكلمة الحرة المسؤولة، وملتقى الأفكار العربية المتحررة، وسفيرة المسلمين في شتى بقاع الأرض وقد جمعتهم وعملت على توحيد كلمتهم.

ويقول فيها:

(أبا بثينة) نم يكفيك ما تركت ... فينا يداك وما عانيت من تعب

جاهدت في الله والأوطان محتسبا ... فارجع إلى الله مأجورا وطب

واحمل بيمناك يوم النشر ما نشرت ... تلك الصحيفة في دنياك وانتسب

يحيي الشعر في هذه الأبيات (أبا بثينة) وهي كنية الفقيد، مثنيا على جهوده وعمله، ويقول يكفيك ذكرا وفخرا ما تركته يداك من المآثر وما عانيت من التعب في سبيل إعلاء كلمة الله ورفعة شأن الأوطان، وقد احتسب ذلك عند الله، فعد إليه مأجورا، طيب النفس، حاملا يوم البعث ما نشرته صحيفتك في حياتك من أفكار نيرة وآراء سديدة.

لقد عبر الشاعر عن هذه المعاني بلغة تحمل ألفاظها علامات الحزن والأسف على رحيل الفقيد .

ويقول في قصيدة يرثي فيها (شبلي الشميل) الأديب والفيلسوف (من الخفيف):

سكن الفيلسوف بعد اضطراب ... إن ذاك السكون فصل الخطاب

لقي الله ربه فاتركوا المرء ... لديانه فسيح الرحاب[1]

حزن العلم يوم مت ولكن ... أمن الدين صيحة المرتاب[2]

كنت تبغي برد اليقين على الأرض ... وتسعى وراء لب اللباب

فاسترح أيها المجاهد واهدأ ... قد بلغت المراد تحت التراب

هل أتاك اليقين من طرق الشك ... فشك الحكيم بدء الصواب

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن موت (شبلي الشميل) مبينا ما أثاره هذا الموت، وما خلفه من لوعة وأسى على فقيد العلم والأدب والفلسفة، وفي الوقت نفسه يشير إلى ما كان عليه الفقيد في حياته حيال الشك في البعث والحساب، فيسأله الشاعر عما، إذا عرف بموته برد اليقين الذي كان يبحث عنه وهو حي على وجه الأرض، ويسعى للوصول إلى أعماق أسراره، وهل وقف على الحقيقة التي كان شكك فيها في حياته؟ ويقول له، بإمكانك الآن أن تشعر بالراحة وتهدأ بعد أن حققت مرادك وأنت تحت التراب، ويسأله مرة أخرى هل توصل إلى اليقين عن طريق الشك؟ فغالبا ما يكون شك الحكيم بداية للصواب.

---

(١) الديان: من أسماء الله الحسنى وهو القاضي والمحاسب والحاكم والمجازي.

(٢) المرتاب: المتشكك.

ويقول فيها:

لم يكـن ملحـدا ولكـن تـصدى ... لـشؤون المهـيمن الوهـاب[1]

رام إدراك كنـه مـا أعجـز النـاس ... قـديما فلـم يفـز بـالطلاب[2]

في هذين البيتين ينفي الشاعر من أن يكون شبلي ملحدا وإنما هـو أحـد الفلاسـفة الـذين حاروا في إدراكهم قدرة الله – سبحانه – وعجزت عقولهم عن معرفة الحقيقة فهؤلاء في نظـره لم يكونوا ملاحدة – بل كانوا يبحثون عن الحقيقة.

ويرى الشاعر أن بموت هذا الفيلسوف وما أثاره في حياته من جدل ونقاش واتهام فقـد هدأت الأمور بعد اضطرابها فكان موته واضعا حـدا لمـا أثـير حولـه مـن شـكوك، وقطعـت جهيزة قول خطيب.

ويقول فيها:

إيـه (شـبلى) قـد أكثـر النـاس فيـك ... القـول حتـى تفننـوا في عتـابي

قيـل: ترثـي ذلـك الـذي ينكـر النـور ... ولا يهتـدي بهـدي الكتـاب

قلـت: كفـوا فـإنما قمـت أرثـي ... منـه خـلا أمـسى طويـل الغيـاب[3]

أنـا والله لا أحابيـه في القـول ... فقـد كـان صـاحبي لا يحـابي[4]

---

(١) المهيمن: القادر المسيطر.

(٢) كنه الشيء: حقيقته.

(٣) الخل: الصديق.

(٤) أحابيه: أصانعه وأداجيه.

أنا أرثي شمائلا منه عندي كن أحلى من الشهاد المذاب[١]

كان حر الأراء لا يعرف الختل ولا يستبيح عيب الصحاب[٢]

مفضلا محسنا على العسر واليسر جميع الفؤاد رحب الجناب[٣]

كان في الود موضع الثقة الكبرى وفي العلم موضع الإعجاب

يرد الشاعر في هذه الأبيات على الذين لاموه وتفننوا في عتابه لرثائه (الشبلى) بحجة أنه كان ملحدا، لكن الشاعر يفند أراءهم وأقوالهم مبينا لهم أن هذا الفقيد كان مثالا للأخلاق الحميدة، والاستقامة والطيبة والإحسان في حالتي يسره وعسره، ونموذجا للمودة والثقة، وموضعا للإعجاب بعلمه الغزير.

ويقول فيها:

نكب فيه الطب يوم تولى وأصيبت روائع الآداب

وخلا ذلك الندي من الأنس وقد كان مرتع الكتاب[٤]

وبكت فقده الشآم وناءت فوق ما نابها بهذا المصاب[٥]

كل يوم يهد ركن من الشام لقد آذنت إذا بالخراب

فهي (باليازجي) و (جرجي) و (شبلي) فجعت بالثلاثة الأطناب

(١) الشهاد والشهد: العسل.

(٢) الختل: الكذب والنفاق.

(٣) جميع الفؤاد: قوي صلب.

(٤) الندي: النادي والمحفل.

(٥) ناءت: عجزت وثقل حملها.

فعلى الراحل الكريم سلام كلما غيب الثرى ليث غاب

يشتد تأثر الشاعر لموت هذا الطبيب الفيلسوف، فبرحيله نكبة للطب والعلم والأدب، وبكته بلاد الشام التي أصبحت تنوء بهذا المصاب، وهي كل يوم تفقد ركنا من علمائها وأطبائها وفلاسفتها، وقد بكت قبل هذاالفقيد كلا من إبراهيم اليازجي وجورجي زيدان، ومن ثم يبعث بسلامه الموصول إلى الراحل الكريم كلما أخفى تراب القبور أسدا من أسود العلم والمعرفة.

لغة أبيات هذه القصيدة حافلة بألفاظ الحزن والأسى كقوله: سكن الفيلسوف، فاتركوا المرء لديانه، كفوا فإنما قمت أرثي، أنا أرثي شمائلا، بكت فقده الشام، فوق ما نابها بهذا المصاب، كل يوم يهد ركن من الشام، فجعت بالثلاثة الأطناب، كلما غيب الثري ليث غاب كما استخدم الشاعر الصور البيانية كالاستعارات والتشبيهات والكنايات والإشارات العلمية والأدبية التي تضمنها أبيات القصيدة.

ويقول في قصيدة يرثى فيها الشيخ (سليم البشري) شيخ الأزهر (من الوافر):

أيدري المسلمون بمن أصيبوا وقد واروا (سليما) في التراب

هوى ركن الحديث فأي قطب لطلاب الحقيقة والصواب

(موطأ مالك) عز (البخاري) ودع لله تعزية (الكتاب)

فما في الناطقين فم يوفي عزاء الدين في هذا المصاب

قضى الشيخ المحدث وهو يملي على طلابه فصل الخطاب

أشيخ المسلمين نأيت عنا عظيم الأجر موفور الثواب

قد سبقت لك الحسنى فطوبى | لموقف شيخنا يوم الحساب
إذا ألقى السؤال عليك ملق | تصدى عنك برك للجواب

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حزنه وفجيعة المسلمين لوفاة هذا المحدث والعالم الديني الشهير حين واروا جثمانه التراب، وبوفاته انهد ركن الحديث، يصعب وجود من يقوم مقامه، ويطلب من موطأ مالك أن يقوم بواجب العزاء للبخاري (صاحب الصحيح الجامع لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم) بوفاة هذا الشيخ الذي قضى نحبه وهو يملي على طلابه فصل القول، لقد رحل هذا الشيخ عنها مثوبا بعظيم الأجر ووافر الثواب، فهنيئا له بحسناه في الدنيا ولآخرته يوم القيامة.

لقد اتسمت لغة الشاعر بألفاظها الحزينة الملتاعة لرحيل الفقيد، وهذا ظاهر في قوله: أيدري المسلمون بمن أصيبوا، وارووا (سليما) في التراب، هوى ركون الحديث، (موطأ مالك) (عز البخاري)ودع لله تعزية (الكتاب) عزاء الدين في هذا المصاب، قضى الشيخ المحدث... كما اتسمت بتجسيد المعاني وإبرازها في صورة المادي المحسوس كمثل قوله: هوى ركن الحديث، موطأ ملك عز البخاري...

ويقول في قصيدة بعنوان: (ولدي قد طال سهدي ونحيبي) (من الرمل):

ولدي قد طال سهدي ونحيبي | جئت أدعوك فهل أنت مجيبي؟[1]
جئت أروي بدموعي مضجعا | فيه أودعت من الدنيا نصيبي[2]

(١) السهد: الأرق وعدم النوم.

(٢) المضجع: مكان الاضطجاع والنوم.

لم يـــدع آســـيك جهـــدا إنــــما غــاب علــم الله عــن علــم الطبيــب[1]

إيــة يــا (عبــد الحميــد) انظــر إلى والــد جــم الأســى بــادي الــشحوب[2]

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات باسم (رمزي بك) في رثاء ولده (عبد الحميـد)، حيـث ينادي الوالد الثاكل ولده الميت داعيا إياه بأن يجيبه، ولكن هيهات الجـواب، كـما يعـرب عـن حزنه وأساه وفجيعته بولده، وعن قلقه وحيرته أمام الموت الذي تخطف الولد من بـين يديـه، ولم يأل الطبيب جهدا في علاجه، ووقف علم الطبيب عاجزا أمام علم الله، ومن هول فجيعـة الوالد الثاكل يتمنى على ولده المتوفى أن ينظر إليه ليرى ما يعانيه مـن أسـى عميـق فهـو دائـم الحسرة.

ويقول فيها:

طــالعي يــا شــمس قــبرا ضـــمه بالتحايـــا في شروق وغـــروب

واســـكني يـــا رحمـــة الله بـــه واجعــلي فيـضك منهـل الـسكوب

يخاطب الوالد الثاكـل الـشمس طالبـا منهـا أن تحيـي القـبر الـذي احتـضنه في شروقهـا وغروبها، ويضرع إلى الله أن يمطره بشابيب رحمته التي لا تنقطع.

بهذه اللغة الآسية ينوب الشاعر عن الوالد المفجوع في التعبير عما أصابه من حزن عميـق وألم أليم، بدا ذلك من خلال ألفاظها التي نطقت بهذه المعاني، كقولـه: ولـدي طـال سـهدي، جئت أروي بدموعي مضجعا، انظر إلى والد جم الأسى بادي الشحوب، طـالعي يـا شـمس

(١) الآسي: الطبيب.

(٢) جم: كثير، الأسى: الحزن.

قبرا ضمه. اسكني يا رحمة الله به ... هذا فضلا عن استخدامه للصور البيانية التي وشح فيها ما رمى إليه من معان ومقاصد.

ويقول في قصيدة يرثي فيها (حفني ناصف بك) (من الرمل):

آذنـــت شـــمس حيـــاتي بمغيـــب ... ودنـــا المنهـــل يـــا نفـــس فطيبـــي[1]

إن مـــــن ســـــار إليـــــه ســـيرنا ... ورد الراحـــة مـــن بعـــد اللغـــوب[2]

قـــد مـــضى (حفنـــي)وهـــذا يومنـــا ... يتـــدانى فاســـتثيبي وأنيبـــي[3]

اذكـــري المـــوت لـــدى النـــوم ولا ... تغفـــلي ذكرتـــه عنـــد الهبـــوب

قـــد وقفنـــا ســـتة نبكـــي عـــلى ... عـــالم المـــشرق في يـــوم عـــصيب[4]

وقـــف الخمـــسة قـــبلي فمـــضوا ... هكـــذا قـــبلي وإني عـــن قريـــب[5]

وفجعنـــــا بعـــــالم مـــــصلح ... عـــامر القلـــب وأواب منيـــب

عرفـــوا مـــن غيبـــوه وكـــذا ... تعـــرف الأقـــمار مـــن بعـــد المغيـــب[6]

(١)آذنت: اقتربت.

(٢) اللغوب: التعب.

(٣) يتدانى: يقترب رويدا رويدا.

(٤) اليوم العصيب: الشديد الوقع: والشعراء الستة وفيهم حفني ناصف والشعراء الذين رثوا عالم المشرق (محمد عبده).

(٥) إشارة الى الشعراء الخمسة الذين كانت وفياتهم قبل أن تحل الوفاة بالشاعر.

(٦) الأواب: التائب من ذنبه.

دوي الـــــجرح ولم يقـــــدر لــــه بعد ثاوي (عين شمس) من طبيب[1]

أجـــدب العلـــم وأمـــسى بعـــده رائـــد العرفـــان في واد جـــديب

لـــيس في ميـــدان (مـــصر) فـــارس يركـــب الأخطـــار في يـــوم الركـــوب

كلـــما شـــارفه منـــا فتـــى غالــه المقــدار مــن قبــل الوثــوب[2]

يستشعر الشاعر في مستهل قصيدته دنو أجله حيث السكينة والراحة من بعد التعب، ويؤكد استشعاره هذا بعد موت(حفني ناصف بك) ويشير إلى الشعراء الخمسة الذين كانت وفياتهم قبل أن تحل به الوفاة، ثم ينتقل للتنويه بالفقيد الراحل فقد عرفوه حين غيبه التراب، لأن الأقمار تعرف قيمتها ويحتاج إلى ضوئها بعد مغيبها، ثم يعرب عن فجيعته بهذا الإمام المصلح صاحب القلب الطيب الأواب المنيب ... ويقول لقد وقف الطب عاجزا عن علاجه وشفائه فقضى نحبه، وقد أصبح العلم بعده مجدبا، ولم يعد في (ميدان مصر) فارس يقوى على ركوب الأخطار عندما يدعو لها الداعي، فهكذا تسير الأمور، كلما حاول فتى الوصول على مواجهتها سارع القدر إلى اختطافه قبل أن يتمكن من الوثوب ليركب هذه الأخطار.

وقد جاءت لغة الشاعر تفيض بالألم والحزن على رحيل الفقيد (حفني ناصف بك) فشمس حياة الشاعر اقترتب من الأفول حزنا على الفقيد، ومنهل الموت دنا منه، وحفني مضى وقضى نحبه، ويوم الشاعر يدنو منه شيئا فشيئا ويطلب من نفسه أن تتذكر الموت في نومه وفي يقظته، ثم يقف باكيا هو وخمسة من الشعراء على عالم المشرق في يوم شديد الوقع

---

(١) دوي الجرح: أصيب بالداء.

(٢) غاله: أصابه وفجعه.

على النفوس، وقد عرف الجميع قدر هذا الفقيد ومكانته؛ فالأقمار تعرف قيمتها والحاجة إلى ضوئها بعد مغيبها، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر، ناهيك عن استخدام الشاعر للصور البيانية التي جسدت هذه المعاني والتي برزت في الاستعارات والتشبيهات ... والقصيدة طويلة تقع في ثلاثة وأربعين بيتا اكتفينا منها بما اجتزأناه من أبياتها التي تفي بما تقتضيه هذه الدراسة.

ويقول في قصيدة يرثي فيها (عبد الخالق ثروت) رجل الإدارة والقضاء، ورئيس الوزارء المصري المعروف (من الكامل):

لعب البلى بملاعب الألباب ... ومحا بشاشة فمك الخلاب[1]

وطوى الردى (عمرو) الكنانة غافلا ... ورمى شهاب دهائه بشهاب[2]

من كان يدري يوم سافر أنه ... سفر من الدنيا بغير إياب[3]

حزنت عليه عقولنا وقلوبنا ... وبكت، وحزن العقل شر مصاب

القلب ينسيه الغياب أليفه ... والعقل لا ينسيه طول الغياب[4]

بالأمس مات أجلنا وأعزنا ... جاها وأبقانا على الأحقاب

واليوم قد غال الحمام أسدنا ... رأيا فطاح بحكمة وصواب[5]

(١) الألباب: العقول.

(٢) الردى: الموت.

(٣) الإياب: الرجوع.

(٤) الأليف: المعاشر والصاحب.

(٥) غال: فتك، الحمام: الموت، طاح: ذهب.

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن تفجعه، لـما أصاب الفقيد لما طـواه المـوت، وسـافر إلى غير رجعة، وهو الذي عرف بفكره النيرورأيه السديد وقدرته على مغالبـة ذوي الألبـاب، فكان الشهاب الثاقب، وهو (عمرو) كنانة مصر في دهائه وذكائه، وهذا مما يذكر (بعمـرو بـن العاص) المشهور بدهائه أثناء توليه مصر زمن عمرو بن الخطاب، كما يعرب الشاعر عن حزنه وحسرته لرحيل الفقيد الذي أحبه بعقله قبل قلبه، لأن القلب قد ينسى أليفـه، لكـن هيهـات للعقل أن ينسى من أحبه ونأى عنه.

هكذا عبر الشاعر عن حزنه لرحيل (عبد الخالق ثـروت)، فقـد ذهـب البـلى بملاعـب الألباب، وطوى الردى (عمرو) الكنانة، ورمى شهاب دهائه بشهاب، سفر مـن الـدنيا بغـير إياب، حزنت عليه عقولنا وقلوبنا، وبكت، القلب ينسيه الغياب أليفه، والعقل لا ينسيه طول غياب، وقد جاءت هذه التعابير في صور بيانية زادتها ألما وتأثيرا في نفس الشاعر.

ويقول فيها:

مبتـــسم وعـــلى معـــارف وجهـــه	آيـات مـا يلقـى مـن الأوصـاب[1]
هـو مـا تـراه مفاوضـا كيـف انـبرى	لكبـــيرهم بذكائــــه الوثـــاب
لم يـأت مـن بـاب لـصيد دهائـه	إلا نجـا بدهائـــه مـــن بـــاب
ويظـــل يرقبـــه ويغـــزو كـــبره	بليونـــة ولباقـــة وخـــلاب

(١) الأوصاب: الأتعاب، جمع وصب.

الفقيد دائم الابتسام، وتعلو تقاسيم وجهه علامات ما كان يواجهه من الأتعاب، بارع في قدرته على التفاوض مع أعدائه، ذكي ألمعي إلى حد لا يستطيع كبير الإنجليز أن يجاريه في قدرته على النقاش والحوار، مندوبا من قبل حكومة مصر..

الشاعر محزون ومعجب في آن واحد بمناقب الفقيد الخلقية والفكرية، جاء ذلك من خلال لغة اتسمت بالأسى والإكبار لرحيل الفقيد.

ويقول فيها:

وأتى (لمصر) وأهلها بسيادة   مرفوعة الأعلام والأطناب[1]

غفرا فلست ببالغ فيك المدى   إني غذذت إلى مداك ركابي

خالفت فيك الجازعين فلم أنح   حزنا عليك وأنت من أترابي[2]

النوح في الجلى اجتهاد مقصر   ألفى دعاء الصبر غير مجاب[3]

يواصل الشاعر التحدث عن الفقيد فيذكر بأنه حقق للمصريين كثيرا من الإنجازات وفي مقدمتها، سيادة مصر واستقلالها، رافعة أعلامها فوق أرضها ثابتة البنيان.

ثم يعرب الشاعر عن عدم قدرته إيفاء الفقيد ما يستحقه من ثناء ومدح على جهوده التي أولاها المصريين، طالبا منه أن يغفر له هذا التقصير إلا أنه يستدرك قائلا إنه خالف المحزونين

---

(١) الأطناب: الأوتاد.

(٢) أترابي: من هم في عمري، جمع ترب.

(٣) الجلى: الأحداث والمصائب الكبرى العظيمة.

عليه فم ينح كما ناحوا، لأنه يرى أن النواح والبكاء في عظائم الأمور إنما تكون من صفات المقصرين حين ألفوا أن دعاء الصبر غير مستجاب.

يذكر الشاعر في البيت الأخير من هذه الأبيات بأنه لم يكن من الجازعين على الفقيد وأنه اتصف بالجلد والصبر، مع أنه ورد في الأبيات التي اخترناها من هذه القصيدة الكثير من ألفاظ الجزع والإشفاق على المرثي الراحل في مثل قوله: حزنت عليه عقولنا وقلوبنا، وبكت، وحزن العقل شر مصاب ؟؟ وقد يوقعه هذا في مظنة التناقض، اللهم أن يكون قد ذهب في تعبيره مذهبا غير ما فهمناه.

ويقول في قصيدة تنوف أبياتها على الأربعين بيتا يرثي فيها (محمد إبراهيم المويلحي) الصحفي والكاتب المشهور (من الخفيف):

دمعة من دموع عهد الشباب	كنت خبأتها ليوم المصاب
لبت اليوم (يا محمد) لما	راعني نعي أكتب الكتاب
هدأت لوعتي وسرت قليلا	عن فؤادي ولطفت بعض ما بي
موكب الدفن خلف نعشك يمشي	في احتساب وحسرة وانتحاب
رب نعش قد شيعته ألوف	من سواد تعلوه سود الثياب
ليس فيهم من جازع أو حزين	صادق السعي أو أليف مصاب

يبكي الشاعر الفقيد بدمعة من دموع الشباب كان خبأها لهذا اليوم الذي أصيب به برحيل الفقيد، فجاءت هذه الدمعة عليه وسرت عن فؤاه ولطفت بعض ما يعانيه من ألم على هذا الفقيد، ثم يصف موكب تشييعه، فهو مسجى فوق نعش تشيعه الألوف من ذوي

الأخلاق والأحساب المعبرين عن صادق حزنهم وأساهم، وكم من موكب تشييع آخر ضم آلاف المشيعين لكن ليس فيه من هو صادق الحسرة واللوعة.

تفيض لغة الشاعر في هذه الأبيات بمعاني الحزن والحسرة على الفقيد، وبدا فيها مستعظما ومبالغا للخسارة التي حلت بالصحافة والكتابة بموت هذا الصحفي الكبير.

ويقول فيها:

جـــزت ســـبعين حجـــة لا تبـــالي ... بــــشهاد تعاقبـــت أم بـــصاب[1]

وســـواء لـــديك والـــرأي حـــر ... روح (نيـــسان) أو لـــواقح (آب)[2]

عــشت مــا عــشت كالجبـال الـرواسي ... فــوق نــار تــذيب صــم الــصلاب[3]

مــؤثر البــؤس والــشقاء عــلى الــشكوى ... وإن عـــضك الزمـــان بنـــاب

كنــت تخلــو بــالنفس والــنفس تــسوى ... مــن كــؤوس الهمــوم والأوصــاب[4]

فتـــسري بالـــذكر عنهـــا وتنفـــي ... مـــا عراهـــا مـــن غـــصة واكتئـــاب

بنــت عنهــا ومــا جنيــت وقــد كابــدت ... بأســـــاءها عـــــلى الأحقـــــاب[5]

---

(١) الحجة: السنة، الشهاد والشهد: خالص العسل، والصاب: نبت شديد المرورة.

(٢) روح نيسان: هو شهر نيسان الموصوف بنسمات هوائه العليل الخفيف، لوافح (آب): هو شهر آب الموصوف بهوائه الشديد الحرارة.

(٣) صم الصلاب: كناية عن الجبال والحجارة.

(٤) الأوصاب: الأتعاب.

(٥) الأحقاب: الأزمنة.

ونبـــــذت الثـــــراء تبـــــذل فيـــــه   مـــــن إبـــــاء في بذلـــــه شر عـــــاب[1]

ينوه الشاعر في هذه الأبيات ببعض مناقب الفقيد، فهو (أي الفقيد) غير عابئ بمر الحياة ونصبها، أبدا هو صاحب رأي صريح، سواء عليه نسمات شهر نيسان، ولفحات شهر آب، ثابت في مبادئه لاتهزه الصعاب ولا تلين من قناته صروف الدهر، يؤثر البؤس والشقاء على الشكوى وإن قسا واشتد به الزمان، ينفرد بنفسه التي تجرع كؤوس الهموم والأتعاب، تسري بها بالذكر وينفي عنها ما أصابها من غصة واكتئاب، فأكسبها العفة رغم مكابدتها للشدائد على مر الزمان، وكان زاهدا في الدنيا راضيا بالقليل من الكثير.

هكذا يذكر الشاعر بعضا من مناقب الفقيد، فعبر عنها بلغته القوية وألفاظه الرزينة التي لا تنبو عن الفهم وضمنها من الصور البيانية بما يظهرها في روعة التعبير وجمال التصوير يبدو ذلك من خلال قوله، وسواء لديك والرأي حر روح (نيسان) أو لوافح (آب)، عشت ما عشت كالجبال الرواسي، فوق نار تذيب صم الصلاب وإن عضك الزمان بناب، النفس تسوى من كؤوس الهموم والأوصاب، ما عراها من غصة واكتئاب، من إباء في بذله شر عاب ... ولا يخفى ما تحمله هذه الألفاظ من معاني الحزن واللوعة على الفقيد.

ويقول فيها:

بلـــــغ (البـــــابلي) عنـــــي ســـــلاما   كعبـــــير الريـــــاض أو كـــــالملاب[2]

قـــــد أثـــــار ر(المحمـــــدان) دفينـــــا   في فـــــؤادي وقـــــد أطـــــارا صـــــوابي

(١) نبذت: طرحت وتجنبت.

(٢) الملاب: نوع من العطور.

خلفـــاني بـــين الرفـــاق وحيـــدا ... مـــستكينا وأمعنـــا في الغيـــاب

يطلب الشاعر إلى المرثي أن يزجي سلامه إلى البابلي (وهو محمد البابلي، الأديب والتاجر الظريف، وكان هذا قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، عرف بخفة دمه وروحه الذكية ودعابته وفكاهته ومزاجه الظريف) إنه يبكي الفقيدين (المحمدين) محمد المويلحي ومحمد البابلي، وكلاهما ترب للشاعر وصديق ورفيق، وقد غادراه وتركاه وحيدا يعاني ما يعاني لطول غيابهما عنه.

بهذه اللغة يخاطب الشاعر صديقه المرثي (محمد المويلحي) وقد جاءت ألفاظها موشحة بالأسى والحزن، مثيرة ما يختزنه فؤاده من دفين اللوعة والحسرة على رفيقيه الراحلين اللذين أفقداه صوابه وعقله بغيابهما عنه وأعقباه حسرة لا تنقضي ولا تزول يبدو هذا في قوله: أثار (المحمدان) دفينا في فؤادي، وقد أطارا صوابي، خلفاني بين الرفاق وحيدا مستكينا ....

ويقول في أبيات يرثى بها (أحمد البابلي) وكان صديقا له وتربا (من الكامل):

بـــدأ المـــمات يـــدب في أتـــرابي ... وبـدأت أعـرف وحـشة الأحبـاب[1]

يـــا بـــابلي فـــداك إلفـــك في الـــصبا ... وفـــدا شـــبابك في الـــتراب شـــبابي[2]

قـــد كنـــت خلـــصاني وموضـــع حـــاجتي ... ومقـــر آمـــالي وخـــير صـــحابي[3]

فاذهـــب كـــما ذهـــب الكـــرام مـــشيعا ... بالمجـــد مبكيـــا مـــن الأحبـــاب

---

(١) الأتراب: جمع ترب، وهو الصديق في سن واحدة.

(٢) الإلف: الصديق.

(٣) الخلصان: موضع الإخلاص من الأصدقاء.

يتحسر الشاعر على صديقه الفقيد، ويذكر أن الموت بدأ يخترم أترابه واحدا واحدا، وهذا ما جعله يشعر بالوحشة بعد رحيلهم، ثم هو يعزي صديقه بنفسه، وهيهات ذلك، وينوه بمنزلة الفقيد لديه فقد كان موضع الإخلاص من الأصدقاء ـ ومحط الآمال ومن خيرة الأصحاب، وأخيرا يودعه كريما مشيعا بالعظمة والإجلال ومبكيا عليه من الأحباب.

لغة الحزن واللوعة بارزة في هذه الأبيات، وألفاظها تحكي هذه المعاني وذلك في مثل قوله: بدأ المهات يدب في أترابي، وحشة الأحباب، فدا شبابك في التراب شبابي، مشيعا بالمجد مبكيا من الأحباب.

ويقول في قصيدة مؤبنا (سعد زغلول) في حفل أقيم بهذه المناسبة، وتقع في حوالي تسعين بيتا (من الخفيف) اجتزئ منها الأبيات التالية:

إيه يا ليل هل شهدت المصابا	كيف ينصب في النفوس انصبابا
بلغ المشرقين قبل انبلاج الصبح	أن الرئيس ولى وغابا[1]
وانع للنيرات (سعدا) فـ (سعد)	كان أمضى في الأرض منها شهابا[2]
قل لها: غاب كوكب الأرض في الأرض	فغيبي عن السماء احتجابا
والبسيني عليه ثوب حداد	واجلسي للعزاء فالحزن طابا
أين (سعد) فذاك أول حفل	غاب عن صدره وعاف الخطابا

ويقول فيها:

---

(١) انبلاج: اندلاع وظهور.

(٢) النيرات: النجوم والكواكب.

حملـــــوه عـــــلى المـــــدافع لمـــــا ... أعجـــز الهـــام حملـــه والرقابـــا[1]

حـــال لـــون الأصـــيل والـــدمع يجـــري ... شـــفقا ســـائلا وصـــبحا مـــذابا[2]

وســـها النيـــل عـــن سراه ذهـــولاً ... حـــين ألفـــى الجمـــوع تبكـــي انتحابـــا

ظـــن يـــا (ســـعد) أن يـــرى مهرجانـــا ... فـــرأى مأتمـــا وحـــشدا عجابـــا

لم تـــسق مثلـــه فـــراعين (مـــصر) ... يـــوم كـــانوا لأهلهـــا أربابـــا

خـــضب الـــشيب شـــيبهم بـــسواد ... ومحـــا البـــيض يـــوم مـــت الخـــضابا[3]

واســـتهلت ســـحب البكـــاء عـــلى الـــوادي ... فغطـــت خـــضراءه واليبابـــا[4]

ويقول فيها:

يـــا كبـــير الفـــؤاد والـــنفس والآمـــال ... أيـــن اعتزمـــت الـــذهابا

كيـــف ننـــسى مواقفـــا لـــك فينـــا ... كنـــت فيهـــا المهيـــب لا الهيابـــا

كنـــت في ميعـــة الـــشباب حـــساما ... زاد صـــقلا فرنـــده حـــين شـــابا[5]

لم ينهنـــه مـــن عزمـــك الـــسجن والنفـــي ... وســـاجلتها (بمـــصر) الـــضرابا[6]

(١) الهام: الرؤوس.

(٢) الأصيل: ما قبل غروب الشمس.

(٣) الخضاب: الصبغ.

(٤) اليباب: القاحلة.

(٥) الحسام: السيف، ومثله الفرند: ماء السيف، وميعة الشباب: عنفوانه.

(٦) ينهنه: يضعف.

سـائلوا (سيـشلا) أأوجـس خوفـا وسـلوا (طارقـا) أرام انـسحابا[1]

ليـت (سـعدا) أقـام حتـى يرانـا كيـف نعـلي عـلى الأسـاس القبابـا

ويقول فيها:

جمـع الحـق كلـه في كتـاب واسـتثار الأسـود غابـا فغابـا

ومـشى يحمـل اللـواء إلى الحـق ويتلـو في النـاس ذاك الكتابـا

ثم يقول:

نـم هنيئـا فقـد سـهدت طـويلا وسـئمت الـسقام والأوصـابا

كـم شـكوت الـسهاد لي يـوم كنـا بالبـساتين نـستعيد الـشبابا

ننهـب اللهـو غـافلين وكنـا نحـسب الـدهر قـد أنـاب وتابـا

فـإذا الـرزء كـان منـا بمرمـى وإذا حـائم الـردى كـان قابـا

حرمتنـا المنـون ذيالـك الوجـه وذاك الحمـى وتلـك الرحابـا

خفـت فينـا مقـام ربـك حيـا فتنظـر بجنتيـه الثوابـا

بهذه الألفاظ والمعاني يؤبن حافظ إبراهيم زعيما من زعماء مصر الـوطنيين الأحـرار ففـي المقطع الأول من الأبيات المستلة مـن القـصيدة يعـرب الـشاعر عـن فجيعتـه بمـوت (سعد زغلول) طالبا من الليل أن ينعى للكون كله نبأ الفجيعة (بسعد)، ومن النجوم والكواكـب أن

---

(١) سيشل: اسم الجزيرة التي نفي إليها (سعد) وهي في شرق القارة الإفريقية، و(طارق) أي جزيرة جبل طارق، وكان (سعد) قد نفي إليها بعد سيشل، وفي ذلك إشارة الى طارق بن زياد حين مضى في فتح الأندلس واعتراضه البحر فقال قولته المشهورة البحر وراءكم والعدو أمامكم للمضي في وجهته.

تنعاه فقد كان في حياته أكثر منها بروزا ولمعانا، ويطلب إلى الليل أن يعلم النجـوم أن كوكـب الأرض (أي سعد) أصبح مغيبا في الأرض، فـما عليهـا إلا أن تختفـي مـن الـسماء حزنـا عـلى الفقيد، وأن تلبس ثوب الحداد عليه وتجلس استعدادا لتقبـل العـزاء فيـه، فقـد طـاب وقتـه، ويسأل الشاعر عن (سعد) ويحزن عليه لغيابه عن الحفل الذي أقيم لتأبينه وهو الذي ما غـاب عن حفل من قبل.

وفي الأبيات التي تلي هذا المقطع ينتقل الشاعر إلى وصف مشهد تشييعه، فقـد كـان حقـا مأتما متهيبا لم تشهد له مصر مثـيلا، حملـت نعـشه المـدافع بعـد أن عجـزت هامـات المـشيعين ورؤوسهم عن حمله، ويزداد المشهد حزنا وتأثرا وتأثيرا، فالنيل غدا سـاهيا ذاهـلا عـن مجـراه وكأنه أخذته غشية حين رأى جموع المشيعين باكية منتحبة، وكان قد ظن قبلا أنه يرى مهرجانا وإلا به يرى حشدا ضخما من المؤبنين.

ثم يشير بعد ذلك في الأبيات السابقة إلى السجن الذي نفـي إليـه سـعد، ولم يـضعف أو يفت هذاالنفي من عزمه وإرادته وقوته، ويستشهد على ذلك بالجزيرتين اللتين كانتا سجنا له، فقد شهدا على أن (سعد زغلول) لم يطرق الخوف قلبه ولم يفكر في التراجع عن مواقفه وآرائـه الوطنية التحررية.

ثم يخاطب في المقطع الأخير من الأبيات المختارة (سعدا) بأن يهنأ في نومـه في القـبر بعـد هذا العناء الذي عانى منه حين حمل هموم بني وطنـه وهمـا (أي سـعد والـشاعر) في البـساتين لاهيان غافلان يحسبان أن الدهر قد نسيهما وغفل عنهما وتاب عن إيـذائهما، ولكـن هيهـات، فقد كان الرزء بالفقيد ليس بعيدا كان قاب قوسين أو أدنى، وكان حائم الردى يحـوم حـولهما،

فاختطف (سعدا) وبهذا يكون قد حرم المصريين من ذلك الوجه المشرق وذلك الإنسان الذي يلوذ إليه المصريون وينزلون في رحابه.

وهكذا تفيض في هذه الأبيات لغة الحزن واللوعة والحسرة، جسدها الشاعر في ألفاظها التي تحكي هذه المعاني في مثل قوله: إيه ياليل هل شهدت المصابا، ولى، غابا، وانع للنيرات، البسيني ثوب الحداد، اجلسي للعزاء، الحزن طاب، حال لون الأصيل، والدمع يجري، تبكي انتحابا، مأتما، السجن، النفي، سهدت طويلا، السقام، الأوصاب، شكوت، الرزء، حائم الردى ... ناهيك عن الصور البيانية والمعاني البلاغية التي تمثلت فيما أورده من مجازات لغوية واستعارات وتشبيهات وكنايات تبدو واضحة جلية للمتأمل فيها.

وفي قصيدة يرثى بها الشيخ (محمد عبده) وتقع في أكثر من خمسين بيتا (من الطويل):

يقول فيها:

سلام على الإسلام بعد محمد	**سلام على أيامه النضرات**[1]
على الدين والدنيا، على العلم والحجا	**على البر والتقوى، على الحسنات**
لقد كنت أخشى عادي الموت قبله	**فأصبحت أخشى أن تطول حياتي**[2]
فوا لهفي – والقبر بيني وبينه –	**على نظرة من تلكم النظرات**[3]
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعا	**كأني حيال القبر في عرفات**[4]

(١) النضرات: الزاهيات.

(٢) عادى الموت: شدة وقعه.

(٣) اللهفة: الحسرة.

(٤) حاسر الرأس: مكشوف بلا غطاء، عرفات: مكان اجتماع الحجيج قرب مكة.

لقد جهلوا قدر الإمام فأودعوا ... تجاليده في موحش بفلاة[1]

ولو ضرحوا بالمسجدين لأنزلوا ... بخير بقاع الأرض خير رفات[2]

يعنى الشاعر فقد الدين والدنيا والعلم والتقوى والإحسان بعد فقد الشيخ (محمد عبده) فقد أضحت أيام الإسلام بعده ذاوية، وفقدت نضارتها وتألقها برحيله، ويعرب عن حزنه ويأسه من الحياة بعد فقد المرثي، ويتحسر على الشيخ الراحل وقد أضحى مسجى في قبره،ويتأسى لدفن الشيخ الفقيد في هذا الموضع، وكان حريا بالمسلمين أن يواروا جثمانه في عرفات أو المسجد النبوي الشريف، لأن رفاته تستحق أن تدفن في خير بقاع الأرض قدسية وعظمة.

يبدو الشاعر في هذه الأبيات منفعلا ومتأثرا أشد التأثر لفقد الشيخ، فألفاظ الأبيات وعباراتها تفصح عن ذلك في مثل قوله: سلام على الإسلام بعد (محمد) أصبحت أخشى أن تطول حياتي، فوا لهفي، والقبر بيني وبينه، وقفت عليه حاسر الرأس خاشعا.

ويقول فيها:

رأيت الأذى في جانب الله لذة ... ورحت ولم تهمم له بشكاة[3]

لقد كنت فيهم كوكبا في غياهب ... ومعرفة في أنفس نكرات

أبنت لنا التنزيل حكما وحكمة ... وفرقت بين النور والظلمات

---

(١) تجاليده: كناية عن جلده وبشرته.

(٢) ضرحوا: دفنوا في الضريح، أي القبر.

(٣) الشكاة والشكوى، واحد.

ووفقت بين الدين والعلم والحجا　　　فأطلعت نورا من ثلاث جهات[1]

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى شدة جلد الشيخ محمد عبده فيما تحمله في حياته من ظلم وأذى استشعرها لذة ونشوة طالما هي في جانب الله – سبحانه – ومع ذلك ظل المنافح عن الدين والجامع للعقل والعلم والدين معا، وبين ما جاء في القرآن الكريم من أحكام وحكمة، وفرق ما بين الإيمان والضلال.

لقد استخدم الشاعر في هذا المقطع لغة تنم عن الإعجاب والحزن في آن واحد – بالشيخ الفقيد، وتخللتها الصور البيانية، ظهر من ألفاظها وعباراتها التي نلحظها في قوله: رأيت الأذى في جانب الله لذة، قد كنت فيهم كوكبا في غياهب، فرقت بين النور والظلمات (وهنا تبدو المطابقة بن النور والظلمات والاستعارة في الوقت نفسه)، فأطلعت نورا من ثلاث جهات...

ويقول فيها:

وكم لك في إغفاءة الفجر يقظة　　　نفضت عليها لذة الهجعات[2]

ووليت شطر البيت وجهك خاليا　　　تناجي إله البيت في الخلوات[3]

وكم ليلة عاندت في جوفها الكرى　　　ونبهت فيها صادق العزمات

---

(١) الحجا: العقل.

(٢) الهجعات: الرقدات.

(٣) البيت: هو البيت الحرام بمكة، إشارة الى حج البيت.

يتابع الشاعر الحديث في هذه الأبيات عن مواقف الفقيد الشجاعة التي عرف بها في حياته، ويبين فضائله وخشوعه وبره وتقواه والذود عن حمى الدين.

والتصوير البياني واضح في كلمات هذه الأبيات، فقد جعل للفجر إغفاءة، كما أظهر لذة الهجعات في صورة ما ينفض ويزاح، وظلمة الليل في هيئة شخص يعاند النعاس .... وهي صور شابها الأسى والحزن على الفقيد.

ويقول فيها:

مشى نعشه يختال عجبا بربه ... ويخطر بين اللمس والقبلات

تكاد الدموع الجاريات تقله ... وتدفعه الأنفاس مستعرات[1]

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة ... وضاقت عيون اللون بالعبرات[2]

ففي الهند محزون، وفي الصين جازع ... وفي (مصر) باك دائم الحسرات[3]

وفي الشام مفجوع، وفي الفرس نادب ... وفي تونس ما شئت من زفرات

بكى عالم الإسلام عالم عصره ... سراج الدياجي هادم الشبهات[4]

يصف الشاعر في هذا الأبيات موكب التشييع، فهو موكب مهيب، يبعث على الخشوع، كانت تحيط به جموع المشيعين، وتودعه بالدموع، والكل مفجوع محزون، في الهند، في الصين،

(١) تقله: تحمله.

(٢) العبرات: الدموع.

(٣) جازع: فاقد، حزين.

(٤) الدياجي: الظلمات، وهادم الشبهات: كناية عن رد الشيخ على الافتراءات المثارة في وجه الإسلام.

في مصر، في الشام، في فارس، في تونس، في الشرق، إنهم جميعا يبكون الشيخ الإمام إمام الهداة والمتقين.

يظهر التصوير البارع لهذا المشهد والذي لا يخلو من المبالغة، فقد جعل الشاعر موكب المشيعين مختالا بلقاء ربه، ويخطر بين اللمس والقبلات مزهوا بالرجوع إلى خالقه، كما أظهر الدموع الجاريات في صورة المادي القادر على حمل النعش، وأنفاس المشيعين وزفاراتهم المستعرة تدفعه إلى مثواه الأخير، وعيون الكون ضاقت بما ذرفته من دموع، وعلمه الغزير يبدد الظلمات ويهدم الشبهات التي يلصقها أصحابها بالدين الحنيف، ولغة الحزن ظاهرة في هذه الأبيات من مثل: مشى نعشه، الدموع الجاريات تقله، تدفعه الأنفاس المستعرات، بكى الشرق، ضاقت عيون الكون بالعبرات، في الهند محزون، وفي الصين جازع، وفي مصر باك دائم الحسرات، وفي الشام مفجوع، وفي الفرس نادب، وفي تونس ما شئت من الزفرات ... بكى عالم الإسلام عالم عصره ...

ويقول في قصيدة يرثى بها (محمد فريد باشا) الزعيم الوطني والمحامي ورئيس الحزب الوطني (من الرمل):

من ليوم نحن فيه من لغد ... مات ذو العزمة والرأي الأسد[1]

حل (بالجمعة) حزن وأسى ... ومشى الوجد إلى يوم (الأحد)[2]

---

(١) الأسد: الأكثر سدادا وصوابا.

(٢) الجمعة: أراد بها مسلمي مصر، الأحد: أراد به مسيحيي مصر من الأقباط، الوجد: الحزن.

وبــــدا شـــــعري عـــــلى قرطاســـــه لوعـــة ســـالت عـــلى دمـــع جمـــد[1]

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حزنه وأساه لفقد هذاالزعيم، ويرى أنه فقد فيـه مـن كانت تحتاجه مصر في حاضرها ومستقبلها، ويصفه بذي العزيمـة الماضـية والـرأي الـسديد، وقد حل برحيله الحزن بالمصريين كافة مسلميهم ومسيحييهم الأقباط ... وواضح مـا ورد في الأبيات من تصوير لهذا المشهد، حيـث جعـل الحـزن يحـل بالمـصريين المـسلمين في جمعـتهم، والوجد يمشي بالمصريين المسيحيين في (أحدهم) وألفاظ الحزن حاضرة في الأبيات مـن مثـل قوله: من ليوم نحن فيه من لغد، مات ذو العزمة.

حل (بالجمعة) حزن وأسى، مشى الوجد إلى يوم (الأحد) بدا شعري على قرطاسه لوعة على دمع جمد.

ويقول فيها:

أيهـــا النيـــل لقـــد جـــل الأســـى كـــن مـــدادا لي إذا الـــدمع نفـــد[2]

فلقـــــد ولى (فريـــــد) وانطـــــوى ركـــن (مـــصر) وفتاهـــا والـــسند

يسترفد الشاعر عن نهر النيل ليمده بمائه وليكون حبرا إذا ما نفد دمعـه فالحـدث جلـل، والأسى حل ونزل بعد ذهاب (فريد) وانطوى برحيله ركن المصريين وفتاهم وسندهم.

والتصوير واضح في لغة الـشاعر في قولـه: كـن مـدادا لي إذا الـدمع نفـد، انطـوى ركـن (مصر) كما تبدو فيها ألفاظ الحزن كقوله: جل الأسى، ولى (فريد) ....

---

(١) القرطاس: الورق.

(٢) جل: عظم، الأسى: الحزن، المداد: الحبر.

ويقول فيها:

يـــا غريـــب الـــدار والقـــبر ويـــا	سـلوة (النيـل) إذا مـا الخطـب جـد
فقـــدت (مـــصر فريـــدا) وهـــي في	مـــوطن يعوزهـــا فيـــه المـــدد
فقـــدت (مـــصر فريـــدا) وهـــي في	لهـــوة الميـــدان والمـــوت رصـــد[1]
لم يكـــد يمتعهـــا الـــدهر بـــه	في ربـــوع (النيـــل) حيـــا لم يكـــد
ليتـــه عـــاش قلـــيلا فـــترى	شـعب (مـصر) عينـه كيـف اتحـد

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الفقيد فقد مات غريب الدار والقبر، لقد كان مـلاذ أهل النيل إذا ما حزبهم أمر وادلهمت الخطوب وحلكت الأيـام، وكـان موتـه خـسارة كبـيرة لمصر والمصريين، فلقد فقدته مصر وهي في أمس الحاجة إليه، ويتمنى لو أمهلـه الأجـل قلـيلا لترى عينه كيف أصبح شعب مصر موحدا.

وتأثر الشاعر للفقيد واضح في ألفاظ لغته التي استخدمها للتعبـير عـن المـصاب الجلـل كقوله: جل الأسى، الدمع نفد، ولى (فريـد) وانطـوى، غريـب الـدار والقـبر، سـلوة النيـل، فقدت (مصر فريدا) ... كما يبدو فيها التصوير البيـاني في قولـه: سـلوة النيـل، لهـوة الميـدان، والموت رصد.

ويقول في قصيدة يرثي بها (عثمان السيد أباظة) المفتش العام (من البسيط):

ردا كؤوســـكما عـــن شـــبه مفـــؤود	فلـيس ذلـك يـوم الـراح والعـود[2]

(١) رصد: أي متربعا به.

(٢) مفؤود: مصاب في فؤاده، الراح: الخمرة.

يا ساقيي أراني قد سكنت إلى ... ماء المدامع عن ماء العناقيد[1]

فإمسكا الراح إني لا أخامرها ... وبلغا الغيد عني سلوة الغيد[2]

تم امضيا ودعاني إنني رجل ... قد آل أمري إلى هم وتسهيد

يطلب الشاعر في هذه الأبيات من ساقييه جريا على عادة الشعراء في مخاطبة اثنين أن يردا ويعيدا كؤوس الخمر فهو شبه مفؤود مصاب فؤاده بالكمد والحزن، فليس الوقت وقت احتساء الخمور والاستماع للغناء وعزف العود، وقد استعاض ماء الدموع بماء عنا قيد كروم العنب، ويطلب منهما أن يمسكا الخمرة، فهو لا يخامرها حاليا كما يطلب إليهما أن يبلغا الحسان من النساء أنه الآن في سلوة عنهن، كما يطلب إليهما أن يمضيا ويتركاه مستسلما إلى ما آل إليه من هم وتسهيد حزنا على الفقيد.

بهذا الأسلوب وهذه اللغة يصور الشاعر حزنه وأساه على الفقيد، فهو شبه مفؤود، وليس اليوم يوم خمر وغناء وغزل، وقد استسلم لدموع عينيه، واستغنى عن ماء العناقيد، وهو لا يشرب الخمرة، وقد أصبح في سلوة عن الغيد الحسان من النساء، وقد انتهى به الأمر إلى الارتماء في أحضان الهموم والسهاد.

ويقول فيها:

أبعد (عثمان) أبغي مأربا حسنا ... من الحياة وحظا غير منكود

(١) ماء العناقيد، كناية عن الخمرة.

(٢) أخامرها: أخالطها وأشربها، الغيد: الحسان من النساء.

إني ليحزنني أن جاء ينشده داعي المنون وإني غير منشود[1]

يعرب الشاعر في هذين البيتين عن فقدان أمله في الحياة، فلم يعد له أمل يرجوه أو حظ ينتظره بعد رحيل الفقيد، كما يعرب عن حزنه حين جاء ملك الموت يطلب روح الفقيد ولم يكن هو المطلوب.

وألفاظ الحزن ظاهرة فيهما، حيث يقول: أبعد (عثمان) أبغي مأربا حسنا من الحياة، وحظا غير منكود، جاءينشده داعي المنون.

ويقول فيها:

يا راحلا أكبرتك الحادثات وما أكبرتها عند تليين وتشديد[2]

أبكيت حتى العلا والمكرمات وما جفت عليك مآقي الخرد الخود[3]

وبات آلك والأصحاب كلهم عليك ما بين محزون ومعمود[4]

يبكون فقد امرئ منتسب بالبشر منتقب في الناس محمود[5]

يصور الشاعر في هذه الأبيات أثر فقد المرثي على الأحبة والأهل وعارفيه، ويصفه بالراحل الذي أكبرته المصائب وهو يواجهها بحزم وقوة، ولم يكبرها في رخائها وشدتها،

---

(١) داعي المنون: هو الموت.

(٢) الحادثات: المصائب والنوازل.

(٣) المآقي: العيون، الخرد الخود: صفة للشابات الحسان من النساء.

(٤) معمود: محزون.

(٥) منتقب: لابس نقابا فيه نقائب ومحامد.

ويضيف قائلا، لقد بكت عليه العلا والمكرمات، وجفت دموع النساء الحسان حزنا وغدا أهله وأصحابه محزونين معمودين؛ لأنهم فقدوا امرأ خيرا ذا مناقب حميدة.

ولقد عبر الشاعر عن مناقب الفقيد بلغة ضمنها العديد من المبالغات والتهويل، كقوله: أكبرتك الحادثات وما أكبرتها، وأبكيت العلا والمكرمات، جفت عليك مآقي الخرد الغيد، بات آلك والأصحاب كلهم عليك ما بين محزون ومعمود، يبكون فقد امرئ، منتسب بالبشر، منتقب في الناس محمود.

ويقول في قصيدة يرثي بها (سليمان أباظة باشا) ناظر المعارف المصرية (من الخفيف):

أيهذا الثرى إلام التمادي	**بعد هذا، أأنت غرثان صادي**[1]
أنت تروى من مدمع كل يوم	**وتغذى من هذه الأجساد**
قد جعلت الأنام زادك في الدهر	**وقد آذن الورى بالنفاد**[2]
لم تلدنا (حواء) إلا لنشقى	**ليتها عاطل من الأولاد**[3]
أسلمتنا إلى صروف زمان	**ثم لم توصها بحفظ الوداد**

يتفجع الشاعر أسى في هذه الأبيات على وفاة المرثي، فيخاطب الثرى، أي التراب، سائلا إياه أأنت جوعان عطشان لتمضي قدما في فعلك هذا لتلتهم المزيد من أجساد البشر؟؟ ألا تعلم أيها التراب أنك تروي ظمأك من مدامع الثاكلين وتسد جوعك من أجساد الموتى؟

(١) التمادي: المضي قدما في فعل الشيء.

(٢) الورى: الخلق.

(٣) عاطل من الأولاد: لا أولاد لها.

لقد جعلت الناس لك زادا وتماديت حتى أوشك الخلق على الانتهاء والزوال، ويرى أن أمنا (حواء) كانت سببا في شقائنا حين ولدتنا ويتمنى لو كانت عقيما لا تنجب الأولاد، فهي التي أسلمتنا إلى مصائب الزمان، ولم توصها بحفظ أواصر المحبة والوداد واللطف بالأنام.

تبدو في هذه الأبيات لوعة الشاعر وتفجعه على المرثي، وعبر عن ذلك بإظهار الثرى في صورة التهامه لأجسام البشر وارتوائه من دموع الثاكلين وتغذيته بأجسام المدفونين واتخاذهم زادا له، وأظهر حواء في صورة من يتسبب بالشقاء للآدميين بعد أن أسلمتهم لصروف الزمان، وكأنه ينظر إلى قول أبي العلاء المعري:

فليت حواء عقيما غدت — لا تلد الناس ولا تحبل

ويقول فيها:

خبرينا جهين لا تكذبينا — ما الذي يفعل البلى بالجواد

كيف أمسى وكيف أصبح فيه — ذلك المنعم الكثير الرماد[1]

يستخبر الشاعر هنا (جهينة) التي ورد ذكرها في الشعر القديم بقولهم: ((وعند جهينة الخبر اليقين)) يستخبرها عن سر فناء الأجواد والأسياد في التراب، ومنهم المرثي، ماذا فعل به البلى؟، وكيف يكون فيه مساء وصباح هذا الجواد؟.

وكأني به ينظر في قوله (كثير الرماد) إلى بيت الخنساء في رثائها لأخيها (صخر):

رفيع العماد طويل النجاد — كثير الرماد ساد عشيرته أمردا

(١) كثير الرماد: كناية عن الكرم والجود.

ويقول فيها:

رحــــم الله منـــــه لفظـــا شـــهيا كــان أحـلى مــن رد كيــد الأعــادي

رحــــم الله منـــــه طرفـــا نقيـــا ويمينـــا تـــسيل ســـيل الغـــوادي[1]

رحــــم الله منـــــه شــــهما وفيـــا كــان مــلء العيــون في كــل نــادي

ألهـــم الله فيـــك صـــبرا جمـــيلا كـــل مـــن بـــات ناطقـــا بالـــضاد

بـــت في حلــــة النعـــيم وبتنـــا في ثيـــاب مـــن الأســـى والـــسهاد

وســكنت القــصور في بيــت خلــد وســكنا عليــك بيــت الحــداد

يستمطر الشاعر شآبيب الرحمة للفقيد، مستذكرا عذب لفظه وحديثه، وعفته، وكرمه وشهامته ووفاءه، مستلهما الصبر والعزاء الجميل، فقد بات الفقيد ينعم بحلة النعيم، وبات الشاعر والمحزونون في ثياب من الأسى وطول السهر وكثرة الأرق، وسكن المرثي جنة الخلد، وسكن هو والآخرون في بيوت الحزن والحداد.

ولغة الشاعر الحزينة حاضرة في هذه الأبيات قي مثل قوله: ما الذي يفعل البلى بالجواد، كيف أمسى وكيف أصبح، رحم الله منه لفظا شهيا، وطرفا نقيا، ويمينا يسيل سيل الغوادي، وشهما وفيا، ألهم الله فيك صبرا جميلا، بتنا في ثياب من الأسى والسهاد، وسكنا عليك بيت الحداد، كما أن التصوير البياني يبدو واضحا جليا فيها.

ويقول في قصيدة يرثي بها (محمود سامي البارودي) أحد رموز الثورة العرابية، والشاعر الألمعي المعروف في مصر (من البسيط):

(١) الطرف: العين، الغوداي: السحاب الممطر في الغداة.

ردوا عـــلي بيـــاني بعـــد (محمـــود) إني عييـت وأعيـا الـشعر مجهـودي[1]

مـــا للبلاغـــة غـــضبي لا تطـــاوعني ومـــا لحبـــل القـــوافي غـــير ممـــدود

ظنـــت ســـكوتي صـــفحا عـــن مودتـــه وأســـــلمتني إلى هـــــم وتـــــسهيد[2]

ولـــو درت أن هـــذا الخطـــب أفحمنـــي لأطلقــت مــن لــساني كــل معقــود[3]

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن فجيعته وحزنه بالفقيد، حتى أنه بات لا يستطيع نظم الشعر ولا النطق لشدة وقع المصيبة عليه.

لقد صور الشاعر إحساسه هذا بلغة تفيض بالحزن والأسى، فبيانه في غياب ويطلب رده عليه، ونظم الشعر استعصى عليه، وذهبت جهوده في محاولته أدراج الرياح، والبلاغة غاضبة لا تنقاد إليه، وحبال قوافي الشعر غير ممدودة، وقد ظنت البلاغة عدم نظمه للشعر اعتذارا عن الرثاء، وأسلمته إلى الهموم والسهر الطويل، لكن غاب عنها أن هذا الحدث الجلل هو الذي أسكته، ولو علمت بذلك لأطلقت عقدة لسانه للقول بهذه المناسبة الحزينة، وقد أورد الشاعر هذه المعاني في صور بيانية رائعها تضمنتها هذه الأبيات.

ويقول فيها:

لبيـــك يـــا مـــؤنس المـــوتى وموحـــشنا يـــا فـــارس الـــشعر والهيجـــاء والجـــود

لقـــد نزحـــت عـــن الـــدنيا كـــما نزحـــت عنهـــا لياليـــك مـــن بـــيض وســـود

(١) عييت: عجزت.

(٢) التسهيد: الحزن والأرق وعدم النوم.

(٣) أفحمني: أسكتني.

أغمضت عينيك عنها وازدريت بها   قبل الممات ولم تحفل بموجود

لبيك يا شاعرا ضن الزمان به   على النهى والقوافي والأناشيد

يستحضر الشاعر الفقيد، وكأنه يناديه، فيجيه ملبيا نداءه، قائلا له إن قبرك يؤنس الموتى حولك؛ لكنه أوحش الأحياء بموته وغيابه، ويضيف لقد كنت فارس الشعر والحرب والكرم، ولم تحفل بالدنيا وعرضها، فقد صرفت عينيك عنها ونظرتها نظرة ازدراء، واحتقار قبل أن ترحل، ولم تكن تحفل بما هو موجود بين يديك فيها.

هكذا صور الشاعر شدة وقع المصيبة عليه، وبين ما للفقيد من صفات حميدة قبل الممات وبعده، فقبره مؤنس للموتى، وموحش للأحياء، وعيونه ودعت الدنيا وزخارفها، وعز على الزمان أن يجود بمثله أديبا وشاعرا وفارسا مقداما، ولغة الحزن موجودة في هذه الأبيات ظاهرة في ألفاظها، وفي هذه الألفاظ والعبارات تظهر الصور البيانية التي زادت المشهد تأثرا وتأثيرا.

ويقول فيها:

يا ويح للقبر قد أخفى سنا قمر   مقسم الوجه محمود التجاليد[1]

يدعو الشاعر على القبر الذي أخفى كوكبا نيرا ووجها جميل القسمات وجسما محمود البشرة والجلد:

(١) التجاليد: كناية عن البشرة وجلدة البدن.

ويقول فيها:

محمـــود إني لأســـتحييك في كلمــــي	**حيــا وميتــا وإن أبــدعت تقــصيدي**
فاعـــذر قريــضي واعـــذر فيـــك قائلــه	**كلاهمـــا بـــين مـــضعوف ومحـــدود**

يأخذ الشاعر على نفسه عهدا بأنه سيقى يحيي (الفقيد) في شعره حيا وميتا، ويطلـب منـه أن يعذر شعره وقائله، فكلاهما بين مضعوف ومحدود، وكأنه يشعر بعدم إيفاء المرثي حقه من الإطراء.

ويقول في قصيدة يرثي بها (ملك ناصف) المعروفة باسم باحثة البادية، وهي من سيدات مصر المشهورات في الدفاع عن حرية المرأة (من مجزوء الكامل) :

(ملـــك) النهـــى لا تبعـــدي	**فـــالخلق في الـــدنيا ســير**
إني أرى لـــــــك ســـــيرة	**كـــالروض أرجـــه الزهـــر[1]**
ربي أبــــــوك الناشــــــئين	**فعـــاش محمــــود الأثــــر**
وســــلكت أنـــــت ســـبيله	**في الناشـــئات مــــن الـــصغر**

يثني الشاعر على (ملك ناصف) فهي إنسانة ذات مواهـب عقليـة وفكريـة، وهـي ذات سيرة طيبة وحسب أصيل، وتربية حكيمة، وفضيلة حميدة.

لقد أورد الشاعر هذه المعاني بلغة الإعجاب والإكبار للمرثية، فسيرتها عطـرة كـالروض الذي فاح عبق أزهاره وانتشر في الأرجاء، وقد عبر عنها الشاعر في ثوب من الـصور البيانيـة الجميلة.

---

(١) أرجه: عطره.

ويقول فيها:

فخـــــرت بوالـــــدها ووالـــــدها بحليتهـــــا افتخـــــر

بـــــالعلم حلـــــت صـــــدرها لا بـــــالآلئ والـــــدرر

فـــــانظر شـــــمائل فكرهـــــا بـــــالله يـــــوم (المـــــؤتمر)

واقـــــرأ (محـــــاضرة الجريـــــدة) والمقـــــالات الغـــــرر

وارجـــــع إلى مـــــا أودعـــــت عنـــــد المجـــــلات الكـــــبر

تعلـــــم بأنـــــا قـــــد فقـــــدنا خـــــير ربـــــات الفكـــــر

ذنـــــب المنيـــــة في اغتيـــــال شـــــبابها لا يغتفـــــر

يـــــا ليتهـــــا عاشـــــت (لمـــــصر) ولم تغيبهـــــا الحفـــــر

يتفجع الشاعر في هذا المقطع على الفقيدة الأديبة التي كانت تفخر بوالدها وإبداعه في فن الكتابة كما يفخر بها والدها بما هي عليه من مواهب متعددة، وقد كانت مثالا للفضيلة والإصلاح، وأنموذجا للشمائل الرفيعة، كما كانت ذات حضور لافت في عالم الكتابة والإبداع، وكان قلمها سيالا لا يفتر ولا يعرف الملل، فمقالاتها وكتاباتها مودعة لدى المجلات الكبيرة، ولكن المنية ارتكبت ذنبا لا يغتفر حين اختطفتها وهي في ميعة الشباب، فليتها عاشت طويلا من أجل مصر والمصريين ، بهذه اللغة الشفافة أعرب الشاعر عن إحساسه بالحسرة لفقد المرثية التي اتخذت من العلم زينة حلت به صدرها، لا باللآلئ والدرر، والتصوير البياني زاد هذا التعبير جمالا وتأثيرا.

ويقول فيها:

لا كـــان يومـــك يـــوم لاح الحـــزن مختلـــف الـــصور
علمـــت هاتفـــة القـــصور نـــواح هاتفـــة الـــشجر
وتركـــت أتـــراب الـــصبا حزنـــا يقطعـــن الـــشعر
يبكـــين عهـــدك في الـــصباح وفي المـــساء وفي الـــسحر
أنـــالم أذق فقـــد البنـــين ولا البنـــات عـــلى الكـــبر
لكننـــي لمـــا رأيـــت فـــؤاده وقـــد انفطـــر
أدركـــت معنـــى الحـــزن حـــزن الوالـــدين فـــما أمـــر
وشـــهدت زوجـــك مطرقـــا مستوحـــشا بـــين الـــسمر
فعلمـــت أنـــك كنـــت عقـــد هنائـــه فقـــد انتثـــر

يصور الشاعر في هذا المقطع حالة الهلع والفزع التي اعترت الجميع لفقد (ملك ناصف) حزن أترابهاورفيقاتها، حزن والدها المفجوع، حزن زوجهاالملتاع المعنى، حزن الـشاعر نفسه حين عرف حزن الوالدين على فلذات الأكباد، فحزنهم وبكاؤهم لا ينقطع، والـشاعر لم يمـر بتجربة فقد البنين ولم يعرف لوعة فقدهم إلا عندما رأى ما كان عليـه والـداها وزوجهـا مـن أمارات الحزن والأسى لفقد (ملك).

لقد أعرب الشاعر عن هذا الحدث بلغة تنطق بالحزن والأسـى وأورد فيهـا مـن الـصور البيانية ما زادها قوة وتأثيرا في النفوس كقوله: يوم لاح الحزن مختلف الصور، وعلمت هاتفـة القصور (أي المرأة النائحة)، النواح لهاتفة الشجر (أي الطير الهادلـة)، أتـراب الـصبا يقطعـن

الشعر، لما رأيت فؤاده وقد انفطر، شهدت زوجك مطرقا مستوحشا بين الصور، كنت عقد هنائه وقد انتثر.

ويقول فيها:

صبرا أبا (ملك) فإن الباقيات لمن صبر

يابرة بالوالدين أبوك بعدك لا يقر

فسلي إلهك سلوة لأبيك فهو به أبر

وليهنك الخدر الجديد فذاك دار المستقر[1]

يطلب الشاعر من والد (ملك) أن يتحلى بالصبر على المصائب، ويطلب من (ملك) البارة بوالديها بأن تضرع إلى الله أن يلهم أباها الصبر والسلوان فهو بهما أجدر وأحق.. كما يبارك للفقيدة بموثاها الأخير، ملتمسا ومنها الرحمة لوالديها والدعاء لهما.

لغة سهلة معبرة ذات دلالات عميقة صور بها الشاعر لوعة الآباء المفجوعين بأولادهم وكأن لسان حاله يحكي قول الشاعر:

أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض

لقد توزعت ألفاظ الشاعر وعباراته في هذه الأبيات التي اجتزأناها من القصيدة، توزعت بين الإعجاب بالمرثية والتأثر البليغ لفقدها، وقد ظهرت فيها اللغة الملتاعة التي تمثلت في قوله: ذنب المنية في اغتيال شبابها لا يغتفر، يا ليتها لم تغيبها الحفر، يوم لاح الحزن

---

(١) الخدر الجديد: كناية عن مثواها وهو القبر.

مختلف الصور، تركت أتراب الصبا حزنا يقطعن الشعر، يبكين، أدركت معنى الحزن، حزن الوالدين، مطرقا مستوحشا، صبرا أبا (ملك).

ويقول الشاعرفي قصيدة يرثي بها (اسماعيل صبري باشا) المحامي والقاضي والشاعر المعروف (من المتقارب):

نعاك النعاة وحم القدر ... ولم يغن عنا وعنك الحذر[1]

طوت ذبحة الصدر صدر الندي ... فلم تطو إلا سجل العبر[2]

فأمسيت تذكر في الغابرين ... وإن قل مثلك فيمن عبر[3]

اهني الثرى أم أعزي الورى ... لقد فاز هذا وهذا خسر[4]

إذا ذكرت سير النابهين ... فسيرة (صبري) تجب السير

يستهل الشاعر في هذه الأبيات مرثاته معربا عن أثر الفجيعة بالفقيد الذي كان مثالا للبر والتقوى ولنباهة الذكر.

لقد صور الشاعر فجيعته بالفقيد بهذه اللغة التي تفيض حزنا وأسى، بدا ذلك من خلال ألفاظها التي تمثلت في قوله: نعاك النعاة وحم القدر، لم يغن عنا وعنك الحذر، طوت ذبحة الصدر صدر الندي، ثم يأتي تصويره البليغ حين عبر عن حيرته في إزجاء التهنئة أهو يهنئ التراب أم يعزي الناس؟ وحيال هذا التساؤل يرى أن الثرى (التراب) ربح باحتضان جثمان

(١) حم القدر: حان القدر.

(٢) الندي: النادي والمحفل.

(٣) الغابرون: الماضون.

(٤) الثرى: التراب.

المرثي بينما خسر الورى (الناس) بغيابه عنهم، كما ظهر فيها التجانس بين الثرى والورى والمطابقة بن فار وخسر، وسيرته العطرة تجب سيرة الناهبين الذين غبروا ومضو قبله.

ويقول فيها:

وشعرك كالماء في صفوه … على صفحتيه تراءى الصور

عيون القصائد مثل العيون … وشعرك فيهن مثل الحور[1]

وكم لك شكوى هوى أو أسى … لها نفثات تذيب الحجر

وكم كنت تشعل فحم الدجى … بأنفاس صب طويل السهر[2]

فيا ويح قلبك ماذا ألح عليه … من الداء حتى انفطر[3]

أيخفق تحت الدجى وحده … لذكرى أليف سلا وهجر[4]

إذا قيل (صبري) ذكرت (الوليد) … ومرت بنفسي ذكرى (عمر)[5]

ينوه الشاعر في هذه الأبيات بعبقرية الفقيد الشعرية، وعذوبه أشعاره، وتنوع أغراضه من شكوى وغزل وغيرها من الأغراض الوجدانية الصادرة عن قلب صادق الحس والفكر والشعور.

(١) الحور: شدة سواد العين وبياضها.

(٢) الصب: العاشق الهيمان.

(٣) انفطر: تشقق.

(٤) الأليف: الحبيب والرفيق.

(٥) الوليد: هو اسم البحتري الشاعر العباسي، وعمر: هو عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغزل.

وقد أعرب الشاعر عن إحساسه هذا بلغة تتابعت فيها الصور البيانية، فشعر المرثي كالماء في صفوه، وعيون قصائده المشهورة كعيون اللواتي يتغزل بهن من النساء الحسناوات، وغزله فيهن كالحور في عيونهن، وظلام الليل كان يشعله بنفثات وتأوهات عاشق مغرم بالحسان، وشكواه من الحب والأسى نفثات تصهر الحجارة الصلبة، والداء ألح على قلبه حتى انخلع، وهو دائم الخفقات في ظلمة الليل لذكرى حبيب سلاه وهجره.

وإذا ذكر اسماعيل صبري في غزله تبادر إلى الذهن حضور الوليد (أسم البحتري الشاعر العباسي) كما تتمثل أمامه صورة الشاعر عمر بن أبي ربيعة في حبه وغزله...

تظهر في هذه الأبيات وغيرها من أبيات القصيدة المبالغة والتهويل في التعبير عن إحساسه تجاه الفقيد، كما تظهر في تعداد مناقب الفقيد.

ويقول فيها:

خلعت الشباب فلم تبكه	وساءك أنك لم تحتضر
وقد ذقت طعم الردى عندما	أصيب قطارك يوم السفر
فأقسمت أنك ألفيته	لذيذ المذاقة إذ تحتضر
تمنيت أن لم تعد للحياة	ولكن أباها عليك القدر

ينوه الشاعر من جديد بأخلاق الفقيد، زهده في الشهرة، صبره في البلاء، وخاصة عندما تعرض للموت في حادث قطار أثناء سفره.

تبدو المبالغة في هذه الأبيات كما تبدو الصور البيانية في لغتها الحزينة، فالمرثي يخلع ثياب شبابه ولا يبلى، ويسوؤه عدم موته، ويذوق طعم الردى (الموت) يوم سفره في حادث قطار،

ويقسم أنه وجد الموت لذيذ الطعم وهو يحتضر، ويتمنى ألا يعود للحياة مرى أخرى، ولكن القدر لا يستجيب لأمنيته.

ويقول في قصيدة يرثي بها (محمد سليمان أباظة) الضابط الإداري الناجح (من السريع):

من لم يذق فقد أليف الصبا	لم يدر ما أبدي وما أضمر[1]
أفقدني الموت به وافيا	لا يعرف الختل ولا يغدر[2]
تقرأ في عينيه كل الذي	في نفسه عن نفسه يستر
ثلاثة لم تعر عن عفة	لسانه والذيل والمئزر[3]
أوشك أن يفقره جوده	ومن صنوف الجود ما يفقر
أصيب فيه المجد يوم انطوى	والعرف والسائل والمعسر[4]

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن فجيعته بصديقه الفقيد، فقد كان مثالا للوفاء والصدق والإخلاص والعفة والكرم، وقد صاغ الشاعر هذه المعاني في صور تعبيرية رائعة لم تخل من المبالغة، فمن لم يذق فقد أليف الصبا، لا يعرف ما يبديه الشاعر وما يخفيه، فبفقده فقد الوفاء والصدق والإخلاص والشفافية، فهو لا يعرف المراوغة والكذب والغدر، دافئ اللسان، شريف عفيف طاهر الذيل، كريم جواد قاده جوده إلى الفقر، وبموته أصيب المجد، والعرف السائد، والسائل المحتاج، والفقير المعسر.

---

(١) الأليف: الرفيق، أضمر: أخفي: أستر.

(٢) الختل: الغدر.

(٣) المئزر: الثوب.

(٤) المعسر: الفقير المعدم.

ويقول فيها:

فكــم لنــا مــن مجلــس طيــب	**يــشتاقه (هــارون) أو (جعفــر)**
نلعــب بــاللفظ كــما نــشتهي	**ونــضمر المعنــى فــما يظهــر**
ونرســل النكتــة محبوكــة	**عــن غيرنــا في الحــسن ولا تــصدر**
ثــم انطــوى هــذا وهــذا ومــا	**يطــوى مــن الأيــام مــالا ينــشر**
كــم دوحــة أودى بهــا عاصــف	**والــنجم مــن مأمنــه ينظــر**[1]

يتذكر الشاعر في هذه الأبيات وأبيات أخرى سبقتها أيام صباه بصحبة المرثـي ومجموعـة أخرى من الأصدقاء والأصحاب، ويصف الشاعر هذه الأيام بأنها كانت مجالس طيبـة أنيـسة يشتاقها هارون الرشيد الخليفة العباسي ووزيره جعفر من آل برمـك، كـان الـشاعر وصـحبه يتجاذبون الأحاديث الشهية المحببة للنفوس يلعبون بألفاظها حينا ويـضمرون معناهـا حينـا آخر، وكان وصحبه يرسلون النكت المضحكة الذكية ولكن كـل هـذه المجـالس والـذكريات طوتها الأيام ولم تعد تذكرها، فكم من شجرة كبيرة اجتثتها الرياح العاصفة، والنجم ينظرهـا آمنا في سمائه، ولا يخفى ما تضمنته هذه الأبيات من الألفـاظ والعبـارات التـي تحمـل معـاني الأسى والحزن على أيام الصبا الخوالي.

ويقول في قصيدة يرثي بها الزعيم الوطني (مصطفى كامل) وقد أنـشدها في حفـل أقـيم إحياء لمرور أربعين يوما على وفاته (الأربعينية) (من الكامل):

(١) الدوحة: الشجرة الكبيرة.

نثـــروا عليـــك نـــوادي الأزهـــار وأتيـــت أنثـــر بيـــنهم أشـــعاري[1]

زيـــن الـــشباب وزيـــن طـــلاب العـــلا هـــل أنـــت بـــالمهج الحزينـــة داري؟[2]

غادرتنـــا والحادثـــات بمرصـــد والعـــيش عـــيش مذلـــة وإســـار

مـــا كـــان أحوجنـــا إليـــك إذا عـــدا عـــاد وصـــاح الـــصائحون بـــدار[3]

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حزنه وأساه لفقد هذا الزعيم الوطني الكبير الذي ترك فراغا ما بعده فراغ في الساحة الوطنية المصرية.

بهذا الاستهلال يصور الشاعر وداع المصريين للفقيد (مصطفى كامل)، فقد نثروا الأزهار الندية الطرية على قبره، وتقدم الشاعر ناثرا عليه أشعاره الحزينة، واصفا إياه بزين الشباب وزين طلاب العلا، ولا يدري فيما إذا كان الفقيد داريا بنفوس المصريين التي تتفطر حزنا عليه، لقد غادر المرثي مصر والحادثات ترصدهم، وعيشهم عيش مذلة وهوان وقهر، وكم كانت حاجة المصريين إليه إذا ما اعتدى عليهم ظالم، واستغاثه المستغيثون ليسارع لنجدتهم.

ويقول فيها:

تـــسعون ألفـــا حـــول نعـــشك خـــشع يمـــشون تحـــت (لوائـــك) الـــسيار

خطـــوا بـــأدمعهم عـــلى وجـــه الثـــرى للحـــزن أســـطارا عـــلى أســـطار

(١) نوادي الأزهار: الأزهار الندية الرطبة منها.

(٢) المهج: النفوس.

(٣) عدا: ظلم، بدار: اسم فعل أمر بمعنى سارع.

آنـــا يوالـــون الـــضجيج كـــأنهم ركـــب الحجـــيج بكعبـــة الـــزوار[1]

وتخـــالهم آنـــا لفـــرط خـــشوعهم عنـــد المـــصلى ينـــصتون لقـــاري

غلـــب الخـــشوع علـــيهم فـــدموعهم تجـــري بـــلا كلـــح ولا اســـتنثار[2]

يصور الشاعر مهابة موكب تشييع المرثي وسط الآلام والصياح والجلبة والتنهدات، والخشوع وانهمار الدموع حزنا على الفقيد.

وقد جاء هذا التصوير مفعما بلغة الحزن والأسى، فنعش الفقيد يحيط به تسعون ألفا من المشيعين خاشعين ذاهلين سائرين تحت لوائه السيار، ودموع الحزن خطت على وجه التراب خطوطا تعلوها خطوط، وضجيج صياحهم يتوالى فكأنهم جموع الحجاج في زيارة الكعبة لاهجين بالتلبية والدعاء، مستسلمين للخشوع وذرف الدموع التي تسيل غزيرة ودونما عبوس وتجهم.

وهذه الأبيات وسابقتها لا تخلو من المبالغة والتهويل، وقد يكون للشاعر عذره فهو منفعل بالحدث أشد الانفعال الذي ذهب به إلى هذا الحد من المبالغة والتهويل الذي يبدو واضحا في تصويره لمشهد التشييع، إضافة إلى ما ورد فيها من الصور البيانية.

ويقول فيها:

قـــد كنـــت تحـــت دمـــوعهم وزفـــيرهم مـــا بـــين ســـيل دافـــق وشرار

أســـعى فيأخـــذني اللهيـــب فـــأنثني فيـــصدني متـــدفق التيـــار

---

(١) الحجيج: جماعة الحجاج، حجاج بيت الله الحرام.

(٢) كلح : عبوس وتهجم.

لــــو لم ألـــــذ بـــالنعش أو بظلالــــه   لقـــضيت بـــين مراجـــل وبحـــار[1]

يلتفت الشاعر في هذه الأبيات إلى تصوير حاله أثناء تشييع الفقيد، حيث كان بين حشود المشيعين الذين يذرفون الدموع وينفثون الزفرات في مشهد مهيب، مما دفع الشاعر إلى البحث عن موضع يلوذ إليه ليحمي نفسه من هذا السيل الجارف الذي يوشك أن يجرف كل ما يصادفه في طريقه، وحيال هذا المشهد يكاد الشاعر يقضي من شدة هذا الزحام وهذا الحشد الذي يصعب وصفه.

هكذا يصور الشاعر تشييع الفقيد، مستخدما لغة حزينة أليمة ممزوجة بالمبلاغة والتهويل جاءت في صور تعبيرية متتالية، فالشاعر كان أثناء التشييع تحت دموع المشيعين وزفراتهم، وكان بين سيل جارف من الدموع وشرار قادح من الزفرات، كان يسعى فيأخذه لهيب الزفرات فينثني، فيصده تيار متدفق من الدموع، وكاد يقضي من أثر الزحام، فيبادر إلى الاحتماء يالنعش وبظلاله.

ويبدو في هذه الأبيات كما في غيرها من أبيات القصيدة، استخدام لغة المبالغة والتهويل، وخاصة عندما يصور دموع المشيعين التي شكلت بحارا مائجة هائجة يلتهم تيارها من يدنو منها، وعندما يصور زفرات المشيعين التي شكلت مراجل نارية تحرق من يقترب منها، وكذلك عندما صور نفسه في صورة الواقع ما بين الخشية من دموع المشيعين وما بين الخوف من نيران زفراتهم فيلجأ إلى النعش وظلاله طالبا منه حمايته.

ولكن هذا خيال لشاعر وهذا إحساسه وانفعاله!!

(١) المراجل والبحار: أي مراجل الدموع والزفرات وبحار البشر ودموعهم.

ويقول فيها:

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى	هتكت عليك حرائر الأستار [١]
سفرت تودع أمة محمولة	في النعش لا خبرا من الأخبار [٢]
أمنت عيون الناظرين فمزقت	وجه الخمار فلم تلذ بخمار [٣]
قد قام ما بين العيون وبينها	ستر من الأحزان و الأكدار [٤]

يصور الشاعر في هذه الأبيات حال النسوة اللائي شاهدن موكب التشييع، لقد كن نادبات مولولات باكيات حزينات.

وهنا يأتي الشاعر على دور المرأة في المشاركة بالتشييع، فكم من امرأة مصرية عندما علمت بموت الفقيد بادرت إلى تمزيق ما عليها من ثياب حريرية حزنا عليه، وقد خرجت سافرة تودع أمة محمولة في رجل (في النعش) لا فردا واحدا من الأفراد، وبادرت إلى تمزيق خمارها عندما أمنت عيون الناظرين ولم تستتر بخمار آخر، لأن الأحزان والآلام البادية على وجوه المشيعين شكلت ساترا ما بينها وبين عيونهم.

لا شك أن المبالغة في إبراز حزن النساء واضحة في لغة الشاعر، فذات الخدر هتكت حرائر الأستار، وسفرت تودع أمة محمولة في النعش وليس رجلا واحدا، وأمنت عيون

(١) ذات الخدر: كناية عن المرأة، الخدر: الستر، هتكت: مزقت.

(٢) سفرت: خرجت سافرة وأبدت زينتها وشعرها.

(٣) الخمار: غطاء الرأس للمرأة.

(٤) الأكدار: الأحزان.

الناظرين أثناء التشييع فمزقت خمارهــا، وقـام مـا بـين العيـون وبينهـا سـتر مـن الأحـزان والأكدار:

ويقول فيها:

واهـــا عـــلى تلـــك المواقـــف إنهـــا كانت مواقف ليث غـاب ضـاري [1]

فاهنـــأ بمنزلـــك الجديـــد ونـــم بـــه في غبطـــة وانعـــم بخـــير جـــوار [2]

واســتقبل الأجــر الكبــير جــزاء مــا ضـــحيت للأوطـــان مـــن أوطـــار [3]

نعـــم الجـــزاء ونعـــم مـــا بلغتـــه في منزليـــك ونعـــم عقبـــى الـــدار

يتحسر الشاعر في هذه الأبيات على مواقف الفقيد الجريئة الشجاعة، ويتمنى لـه الراحـة في منزله الجديد والهناء وحسن الثواب والجزاء.

ولغة التحسر والحزن ظاهرة في هذه الأبيات، تبدو في قولـه: واهـا عـلى تلـك المواقـف، فاهنأ بمنزلك الجديد، ونم به في غبطه، وواضح التصوير في قوله كانـت مواقـف ليـث غـاب ضار، عندما شبه الفقيد بأسد غاب شجاع جريء.

وصفوة القول في هـذه الأبيـات المستلة مـن قـصيدة طويلـة قالهـا الـشاعر في أربعينيـة (مصطفى كامل) إنها جاءت طافحة بألفاظ الحزن والأسى والمبالغة في آن واحد...

ويقول في قصيدة يرثي بها الشاعر (عبد الحليم المصري) (من الطويل):

---

(١) واها: أسفا وحسرة، وضار: شجاع.

(٢) الغبطة: السرور.

(٣) الأوطار: جمع وطر: وهو الغاية.

لـك الله قـد أسرعـت في الـسير قبلنـا ... وآثـرت يـا (مـصري) سـكنى المقـابر

وقـد كنـت فينـا يـا فتـى الـشعر زهـرة ... تفـتح للأذهـان قبـل النـواظر

فلهفـي عـلى تلـك الأنامـل في الـبلى ... فكم نسجت قبـل الـبلى مـن مفـاخر[1]

ويـا ويـح للأشـعار بعـد نجيهـا ... وويـح القـوافي سـاقها غـير شـاعر[2]

في هذه الأبيات يتلهف الشاعر حسرة على صديقه لذي قضى سريعا وهو في ميعة الصبا.

لقد صور الشاعر هذه الحسرة بلغة زانتها الصور البيانية كمثل قوله: كنـت فينـا يـا فتـى الشعر زهرة، وكم نسجت قبل البلى من مفاخر فلهفي على تلـك الأنامـل، كنايـة عـن نظمـه للشعر الجيد.

ويقول فيها:

وأورثتنـا حزنـا عليـك وحـسرة ... عـلى فقـد سـباق كـريم المحـاضر

فلـم تثـو يـا (عبـد الحلـيم) بحفـرة ... ولكـن بـروض مـن قريـضك نـاضر

عليـك سـلام مـا تـرنم منـشد ... وقـام خطيـب فـوق هـام المنـابر[3]

يذكر الشاعر هنا أن أشعار المرثي أورثت المصريين حزنا وحسرة، فقد كان سباقا إلى كـل فعل حسن، وكان ذا حضور كريم، ويرى أن المرثي ثوى برياض مـن الـشعر، لا بحفـرة مـن

(١) البلى: الرثاثة والفناء.

(٢) نجيها: مناجيها.

(٣) هام المنابر: رؤوسها، ترنم: تغنى.

التراب، ويتمنى للفقيد الرحمة والهناءة في منزله الجديد، مسلما عليه سلاما موصولا ما شدا شاعر بشعره وقام خطيب على المنابر ناثرا درر كلامه.

ولقد أورد الشاعر في هذه الأبيات ألفاظا تحمل معاني الأسى والحزن واللوعة وتخالطها المبالغة، كمثل قوله: آثرت سكنى المقابر، فلهفي على تلك الأنامل في البلى، فكم نسجت قبل البلى من مفاخر، ويا ويح للأشعار بعد نجيها، وويح القوافي ساقها غير شاعر.

ويقول في قصيدة يرثي بها (عبد الحليم العلايلي) النائب في مجلس الشعب المصري (من الخفيف):

يابن (عبد السلام) لا كان يوم ... غبت فيه عن هالة الأحرار[1]

كنت فيهم كالرمح بأسا ولينا ... كنت فيهم كالكوكب السيار

كنت فرعا بدوحة العز تأوي ... تحت أفنانه عفاة الديار[2]

قصفته المنون وهو نضير ... مورق عوده جني الثمار[3]

كنت تأسو جراحهم وتقيهم ... وتقيل العثار عند العثار[4]

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حسرته وحزنه على الفقيد، الرجل الوطني الحر العريق النسب والحسب، المجاهد المتحرر والسباق لنصرة الآخرين.

---

(١) الهالة : دارة القمر أو الشمس .

(٢) الفرع : الغصن ، الدوحة : الشجرة العظيمة، العفاة : طالبو المعروف والجود .

(٣) نضير : ريان زاهر، جني الثمار : كثيرها .

(٤) تأسو : تعالج ، العثار : السقوط .

يصور الشاعر مكانة المرثي بين صحبه من الأحرار، مستخدما لغة الإعجاب والإكبار ممزوجة بالحزن والتحسر للغياب عنهم، فهو هالة الأحرار، ورمح البأس واللين، والكوكب السيار بين الوطنيين،اختطفه الموت وهو في مقتبل العمر النضير، وفي قمة عطائه الكثير، والمواسي لجراح المكلومين، والمقيل لعثرة العاثرين ... وقد ساق الشاعر هذه المعاني في صور بيانية تمثلت في التشبيهات والاستعارات كمثل قوله: كنت فيهم كالرمح، كنت فيهم كالكوكب السيار، قصفته المنون وهو نضير، مورق عوده جني الثمار، تأسو الجراح، تقيل العثار.

ويقول في البيت الأخير من القصيدة:

فمن الحزن ما يدك الرواسي ومن الحزن ما يهد الضواري

يعود الشاعر ثانية للتعبير عن لوعته وحزنه وتبلغ حدا في تأثيرها عليه إلى درجة تهتز منه الجبال وتفت فيه شجاعة الشجعان، والمبالغة حاضرة بصورة ملحوظة في هذا البيت.

ويقول في قصيدة: نشدها في حفل أقيم لذكرى مرور أربعين يوما على وفاة (رياض باشا) رئيس مجلس النظار (من الطويل):

رياض أفق من غمرة الموت واستمع حديث الورى عما كنت تصنع

أفق واستمع مني رثاء جمعته تشاركني فيه البرية أجمع

لتعلم ما تطوي الصدور من الأسى وتنظر مقروح الحشا كيف يجزع

لئن تك عمرت دهرا لقد بكى عليك مع الخلائق أربع

مـــضاء وإقـــدام وحـــزم وعزمـــة من الصارم المـصقول أمـضى وأقطـع[(١)]

يخاطب الشاعر في هذه الأبيات الفقيد مستحثا إياه على الاستماع لحديث الناس عنـه فـيما فعله من صنائع حميدة، وليعلم ما تنطوي عليه صدورهم من الحسرة عـلى فقـده، وينظـر مـا يعتلج في أحشائهم من قروح وجروح، وقائلا له: لئن كنت عشت طـويلا ثـم رحلـت فلقـد بكى عليك مع الناس أربعة أمور: مضاء وإقدام وحزم وعزمة أشد حدة وقطعـا مـن الـسيف المحكم الصنع.

هكذا يصف الشاعر هذا المشهد في تأبين الفقيد (رياض باشا)، مصورا ما تنطـوي عليـه الصدور من اللوعة والحسرة على فقده، وجامعا الرثاء الذي يشاركه فيه جميع الناس، فالأسى يعيش في صدورهم، والجروح والقروح تدمى بها أحشاؤهم، ومع عمر المرثي الطويـل بكتـه بعد رحيله شمائل أربع، مضاء وثبات على المبـادئ، وإقـدام وشـجاعة في معمعـة المخـاوف، وحزم وصمود في تنفيذ المبادئ، وعزيمة أشد حدة من السيف الصارم، لا تلين ولا تضعف.

كما هو ملاحظ الأبيات لا تخلو من المبالغة المشوبة بالحزن والإشفاق على المرثي.

ويقول فيها:

وكم لك في (مصر) وفي (الشأم) مـن يـد لهـــا أيـــن حلـــت نفحـــة تتـــضوع[(٢)]

رفعــت عــن الفـــلاح عـــبء ضريبـــة ينـــوء بهـــل أيـــام لا غـــوث ينفـــع[(٣)]

---

(١) الصارم: السيف، أمضى أكثر مضاء وحدة وقطعا، الخلائق: الطبائع، مقروح: مجروح، البرية: الناس.

(٢) يد: فضل، نعمة، تتضوع: تفوح وتنتشر.

(٣) عبء، ثقل، ينوء : يشقى.

وأرهبـت حكـام الأقـاليم فـارعووا   وكـانوا أناسـا في الجهالـة أوضـعوا[1]

فخـافوك حتـى لـو تنـاجوا بنجـوة   لخـالوا (رياضـا) فـوقهم يتـسمع[2]

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حسرته ولوعته على الفقيد الذي كان ناصرا وعونا للفلاح، وإنصافا له في وقوفه في وجه الحكام المستبدين.

ويظهر في هذه الأبيات تصوير الشاعر ليد المرثي التي عم خيرها أرجاء مصر وعبقت نفحة عطره تفوح بشذاها الذي يسر أنوف مستنشقيها، والتي خلصت الفلاح من عبء الضرائب، التي ينوء بها، والمرثي مهيب مخوف أرهب الحكام الجائرين الظالمين الذي كانوا يحسبون له ألف حساب ويتخيلونه فوقهم لو تناجوا فيما بينهم بنجوى، أو نبسوا ببنت شفة رهبة وفزعا منه.

ولا يخفى ما يظهر في هذه الأبيات من مبالغة وبخاصة في البيت الرابع منها، وهي مبالغة درج الشاعر على تضمينها في رثائه، وهذا يعود إلى عاطفة الشاعر تجاه من يرثيه، كما أشرنا إلى ذلك آنفا ومرارا.

كما أن ألفاظ الحزن حاضرة في الأبيات التي اجتزأناها من قصيدة طويلة، في مثل قوله: أفق من غمرة الموت واستمع، استمع رثاء جمعته، تطوي الصدور من الأسى، مقروح الحشا، كيف تجزع، بكى عليك مع الباكي أربع، ينوء بها أيام لاغوث ينفع.

---

(١) فارعووا: عادوا إلى وعيهم ورشدهم.

(٢) تناجوا: تكلموا سرا ومناجاة.

ويقول في قصيدة يرثي بها (محمد المويلحي) وكان من بين المشيعين في جنازته (من السريع):

غاب الأديب أديب (مصر) واختفى فلتبكه الأقلام أو تتقصفا[1]

لهفي على تلك الأنامل في البلى كم سطرت حكما وهزت مرهفا[2]

مات (المولحي) الحسان ولم يمت حتى غزا ((عيسى)) العقول وثقفا[3]

يأسى الشاعر في هذه الأبيات لوفاة المويلحي الكاتب والأديب الألمعي المشهور. وجاء تعبير الشاعر عن هذا الإحساس بلغة مصورا فيها معاني الحزن، فالمرثي غاب وانتهى، ولتتقدم أقلام الأدباء لترثيه وإلا فمن الأفضل أن تتكسر، ولهفة الشاعر الحرى على الفقيد لا توصف، وأنامل المرثي سطرت الحكم البليغة، وهزت المسامع المرهفة، مات المويلحي الفائق الحسن، ولكنه لم يمت إلا بعد أن بهر كتابه الموسوم ب (حديث عيسى بن هشام) العقول وأسر القلوب ببلاغته وروعة بيانه.

وفي بيتين قالهما ارتجالا حالما قوبل بالتصفيق وهو يهم بإلقاء قصيدة يرثي بها (اسماعيل صبري) (من السريع):

أكثرتم التصفيق في موطن كان البكا فيه بنا أليقا

فأكرموا (صبري) بإنصاتكم وليعذر الدمع إذا صفقا

(١) تتقصف: تتكسر.

(٢) المرهف: صفة للسيف.

(٣) الحسان: الفائق الحسن، للمبالغة، والمقصود بـ (عيسى) كتاب الفقيد الموسوم بـ (عيسى بن هشام).

يعترض الشاعر على التصفيق الذي علا احتفاء به، قائلا لمن أكثروا التصفيق كان الأجدر بكم أن تكثروا من ذرف الدموع على الفقيد طالبا إليهم أن يكرموا لمرثي بالإنصات لما سينشده حزنا عليه، وأن يصفقوا بدموعهم قبل أن يصفقوا بأكفهم.

ويظهر في البيتين التصوير الرائع والمبالغ فيه في قوله: وليعذر الدمع إذا صفقا فقد جعل من الدمع شخصا يمتلك القدرة على التصفيق.

ويقول في قصيدة يرثي بها (محمد أبو شادي) الصحفي والمحامي والنائب في ذكراه (من السريع):

عجبت أن جعلوا يوما لذكراكا	**كأننا نسينا يوم منعاكا**[1]
إذا سلت يا (أبا شادي) مطوقة	**ذكر الهديل فثق أنا سلوناكا**[2]
في مهجة (النيل)والوادي وساكنه	**رجع لصوتك موصول بذكراكا**

يأسى الشاعر في هذه الأبيات على فقد المرثي الذي ما زال حيا في قلوب المصريين، ويبدي عجبه من أن يجعل المصريون يوما لذكرى وفاة الفقيد، وكأنهم نسوا يوم نعيه، لكن الشاعر يؤكد على عدم نسيانه، قائلا: نكون قد نسيناك إذا كانت الحمامة المطوقة تستغني عن هديلها فوق الشجر، وهذا من المحال، فأنت لا زلت تعيش في مهج المصريين وواديهم (النيل) وصدى أصواتهم موصول بذكر صوتك.

(١) منعاك: نعيك.

(٢) المطوقة: الحمامة ذات الطوق في العنق.

ولغة الحزن ظاهره في الأبيات في مثل قوله: يوم منعاكا، سلت مطوقة، سلوناكا، رجع لصوتك.

ويقول فيها:

يا مدمن الذكر والتسبيح محتسبا   هأنت في الخلد قد جاورت مولاكا

لو لم يكن لك في دنياك مفخرة   سوى (زكي) لقد جملت دنياكا

يطمئن الشاعر الفقيد إلى أنه سيكون نزيل جنان الخلد في جوار ربه، ويثني على خلفه وولده (زكي) أي (احمد زكي أبو شادي).

يصور الشاعر إحساسه في هذين البيتين تجاه الفقيد بلغة تترجم حياة الفقيد الدينية فقد كان دائم التلاوة للقرآن الكريم وتسبيح الله مدمنا عليهما، ولهذا طاب منزلا في رحاب الرحمن مولاه، ومفاخر الفقيد في دنياه عديدة، وإذا ما سكت عن ذكرها فيكفيه فخرا خلفه أحمد زكي أبو شادي ...

ويقول في قصيدة يرثي بها (قاسم أمين) نصير المرأة (من الكامل):

لله درك كنت من رجل   لو أمهلتك غوائل الأجل[1]

خلق كأنفاس الرياض إذا   أسحرن غب العارض الهطل[2]

وشمائل لو أنها مزجت   بطبائع الأيام لم تحل[3]

(١) الغوائل: المصائب.

(٢) غب: بعد، العارض: السحاب الممطر.

(٣) الشمائل: المناقب الحميدة.

جـــم المحامـــــد غـــير مـــتهم	جـــم التواضـــع غـــير مبتـــذل
يـــا دولـــــة الأخــــلاق رافلــــة	مـــن (قاســـم) في أبهـــج الحلــــل
كيــف انطويـــت بـــه عـــلى عجـــل	أكـــذا تكـــون مـــصارع الـــدول

يأسى الشاعر في هذه الأبيات لفقد (قاسم أمـين) منوهـا بأخلاقـه، وشـمائله، ومحامـده، وتواضعه.

ولقد صور الشاعر هذه المعاني بلغة الإعجاب والإكبار للمرثي، فالمرثي رجل أي رجل، ويتمنى لو أمهله الموت، وتأتي الصورة البيانية في جعل أخلاقه كأنفاس الرياض ساعة السحر وبعد سقوط المطر عليها، وشمائل المرثي لا تزول مع مـرور الأيـام، ومحامـده كثـيرة لا تعـد، وتواضعه كبير لا يحد، ودولة مصر دولة الأخلاق تزهو بأخلاق قاسم أمـين في أبهـى حللهـا، ويعجب الشاعر من انطوائها بهذه العجلة والسرعة، قائلا أهكذا تكون نهاية دول الأخـلاق، وألفاظ الأبيات حافلة بمعاني الحزن واللوعة على رحيل قاسم أمين المبكر.

ويقول فيها:

أو كلـــــما أرســــلت مرثيـــــة	مـــن أدمعـــي في إثـــر مرتحـــل
هاجـــت بي الأخـــرى دفـــين أســـى	فوصـــــلت مــــدامع المقـــــل
إن خــــانني فـــيما فجعـــت بـــه	شـــعري فهـــذا الـــدمع يـــشفع لي
ولقـــد أقـــول ومـــا يطـــالني	عنـــد البديهـــة قـــول مرتجـــل
يـــا مرســـل الأمثـــال يـــضربها	قـــد عـــز بعـــدك مرســـل المثـــل

يبدو الشاعر في هذه الأبيات هلعا فزعا لفقد المرثي وفقد غيره من رجالات مصر الأعلام فكأنما النحس وسوء الطالع كتبا على مصر والمصريين، وكأنما الشاعر ما ينتهي من تأبين صديق حتى ينتقل إلى تأبين آخر.

الانفعال والتأثر للفقيد واضحان في هذه الأبيات، فالأحزان تتوالى وتترى فما أن ينتهي من مرثية، ينتقل إلى مرثية أخرى، ودموع عينيه متواصلة لا تنقطع ولا تجف، وإن خانه شعره في فجيعة؛ فإن دموعه تقوم بواجبها فتشفع له تقصير شعره، ويقول الشعر أحيانا مرتجلا لا يجاريه فيه مرتجل ... ولا تخلو هذه الأبيات من المبالغة في التعبير عن تأثر الشاعر لرحيل الفقيد.

ويقول فيها:

لهفي عليك قضيت مرتجلا ... لم تشك، لم تستوص، لم تقل

شغلتك عن دنياك أربعة ... والمرء من دنياه في شغل

حق تناصره ومفخرة ... تمشي إليها غير منتحل

وحقائق للعلم ينشدها ... ما للحكيم بهن من قبل

وفضيلة أعيت سواك فلم ... تمدد إليه يدا ولم يصل

إن رأيت رأيا في الحجاب ولم ... تعصم، فتلك مراتب الرسل

يتحسر الشاعر على الفقيد الذي قضى مرتجلا ويتلهف على حكمته وعقله ونصرته الحق، ونزاهته في القضاء، ونشدانه الحقيقة والعلم، ونصرة المرأة، والدفاع عنها، ودعوته لسفور المرأة، وقد أعرب الشاعر عن هذه المعاني بلغة تنم عن الإعجاب بالمرثي الذي كان مثالا يحتذى به، فلقد مضى مرتجلا، لم يشك، لم يستوص، ولم يقل، لم تشغله دنياه بحطامها

وبهرجها التي عادة ما تشغل الإنسان، وإنما شغله أربعة أشياء: مناصرة الحق، وتحقيق مفخرة في غير مباهاة، ونشدان حقائق العلم، وفضيلة عجز الآخرون عن الاتصاف بها، ويضيف الشاعر قائلا: إن كان لك رأي في حجاب المرأة ولم تكن معصوما عن الخطأ في المناداة بخلعه، فالعصمة للرسل وحدهم وليس لك.

ويقول فيها:

واها على دار مررت بها ... قفرا وكانت ملتقى السبل[1]

ساءلتها عن (قاسم) فأبت ... رد الجواب فرحت في خبل

متعثرا، ينتابني وهن ... مترنحا، كالشارب الثمل

يتأوه الشاعر ويتأسف لفقد المرثي، متذكرا أيامه الغابرة، ومروره بالدار التي كان يسكنها الفقيد، وقد عبر الشاعر عن إحساسه وشعوره بلغة اتسمت ألفاظها بالحزن والأسى، كقوله: واها، مررت بها قفرا، كانت ملتقى السبل، ساءلتها عن (قاسم)، أبت رد الجواب، فرحت في خبل، متعثرا ينتابني وهن، مترنحا، يشبه شارب الخمرة الثمل الذي فقد عقله، والمبالغة لا تغيب عن هذه الأبيات كسابقتها.

والأبيات التي عرضتها في هذه المرثية اجتزأناها من قصيدة طويلة، تظهر مدى قدرة الشاعر على اختيار الألفاظ التي تعبر عن المعاني والأهداف التي عمد إليها.

ويقول في قصيدة أنشدها في الحفل الذي أقيم لتأبين(علي أبي الفتوح باشا) وكيل المعارف، (من مجزوء الكامل):

---

(١) واها: أسفا.

جـــــل الأســـــى فـــــتجملي وإذا أبيـــــت فـــــأجملي[1]

يــــا مـــصر قـــد أودى فتـــاك ولا فتـــــى إلا (عـــــلي)[2]

قـــد مـــات نابغـــة القـــضاء وغـــاب بـــدر المحفـــل

حـــلال عقـــد المعـــضلات قـــضى بـــداء معـــضل

ويـــح الكنانـــة مـــا لهـــا في غمـــرة لا تـــنجلي

يـــا زهـــرة المـــاضي ويـــا ريحانـــة المـــستقبل

كنـــا نعـــدك للـــشدائد في الزمـــان المقبـــل

في هذا الشعر يستفظع الشاعر موت الفقيد، ويعزي مصر والمصريين بهذا القاضي النابغة الفذ، الذي خدم مصر والمصريين خدمات جلى.

وقد أعرب الشاعر عن هذا المصاب الجلل بلغة الآسى والحزن، معزيا المصريين بموت فتاها (علي) ولا فتى لها بعده، فهو نابغة القضاء، وهو بدر المحفل، حلال المشاكل المستعصية المعضلة، مات بداء عضال، فيا حزن أرض الكنانة، إنها تعيش في غمة لا تنكشف، وكان زهرة الماضي، والريحانة المرجوة للمستقبل، وهو الفتى المدخر إذا ما حزبتهم الشدائد ... وتبدو في هذه المقاطع بعض الصور البيانية التي يلحظها الناظر فيها، إضافة إلى ما تخللها من المبالغة في بعض صورها.

ويقول فيها:

(١) جل: عظم، الأسى: الحزن، أجملي: تصبري.

(٢) أودى: هلك.

أبكـــى بكـــاء الثـــاكلات وأصـــطلي مـــا أصـــطلي[1]

لم يبـــق لي يـــوم الفقيـــد عزيمـــة لم تفلـــل

يـــوم عبـــوس قـــد مـــضى يفتـــى أغـــر محجـــل[2]

مـــن لم يـــشاهد هولـــه عنـــد القـــضاء المنـــزل

لم يـــدر مـــا قـــصم الظهـــور ولا انخـــزال المفـــصل[3]

يتحسر الشاعر على الفقيد فيبكيه بكاء مرا، مستعظما يوم رحيله وشدة وقعه على نفسه عندما نزل به قضاء الله...

وقد أعرب الشاعر عن إحساسه هذا بلغة اتسمت بالأسى والمرارة، وبصور بيانية زادتها روعة وتأثيرا ومبالغة، فهو يبكي المرثي بكاء النساء الثاكلات الفاقدات لأولادهن، ويصطلي بما يصطليه من نار الفراق، يوم رحيله كان يوما عبوسا، لم يبق للشاعر عزيمة إلا وأفلها، ومن لم يشاهد هول المصيبة التي حلت بالمصريين لفقده، لا يدري ما يصاب به الثاكل من قصم ظهره وانخزال مفصله.

ويقول فيها:

يـــا قـــبر ويحـــك مـــا صـــنعت بوجهـــه المتـــهلل

عبـــست منـــه نـــضرة كانـــت ريـــاض المجـــتلي

(١) الثاكلات: جمع ثكلى: الفاقدات أبناءهن، أصطلي: أعاني لهبها.

(٢) عبوس: غضوب، وأغر: أبيض، ومحجل فيه حجلة وتكون في قائمة الفرس وفيها بياض.

(٣) انخزال المفصل: الانقطاع والانفصال.

وعبثت منه بطرة ... سوداء لما تنصل[1]

يا قبر هل لعب البلى ... بلطاف تلك الأنمل

لهفي عليها في الطروس ... تسيل سيل الجدول[2]

لهفي عليها في الجدال ... تحل عقد المشكل

يا قبر ضيفك بيننا ... وكان خير مؤمل

إني حللت رحابه ... فنزلت أكرم منزل

ونهلت من أخلاقه ... فوردت أعذب منهل

يخاطب الشاعر في هذا المقطع قبر المرثي، متسائلا متحسرا ما الذي صنعه بوجهه الوضيء وطرة شعره الأسود، وأنامله اللطيفة، وما خطته في الورق من بديع الكلام؟ ومشيرا إلى ضيافة القبر للمرثي الذي كان محطا للآمال، طالبا منه أن يحسن ضيافته، فالشاعر كان قد حل في رحابه فأكرمه أحسن إكرام، ونهل من أخلاقه فكانت أعذب مشرب، وقد أعرب الشاعر عن هذه المعاني بلغة أكسبت ألفاظها جمالية التعبير وتأثره بفقد المرثي، يسأل القبر ماذا فعل بوجهه الوضيء المشرق؟ هل غير بياضه سوادا؟ فهذاالوجه كان بمنزلة الروض المزهر للرائي، وماذا فعل بطرة شعره السوداء التي لم يخطها الشيب؟ وهل عبث البلى بأنامله اللطيفة التي رقمت على الورق أجمل المعاني وأعذبها، ويطلب من القبر أن يحسن وفادة المرثي، فضيفه كان خير مؤمل لأبناء وطنه، يحسن إكرامهم وينهلون من أخلاقه النبيلة.

وهذا المقطع كسابقه يتسم بلغة الحزن والمبالغةالتي تضمنتها ألفاظه وعباراته.

---

(١) الطرة: مقدم شعر الرأس، لما تنصل: لم يظهر فيها الشيب.

(٢) الطروس: الورق.

ويقول في قصيدة راثيا بها كلا من (ابراهيم حسن باشا) و (محمد شكري باشا) الطبيبين المشهورين وكانت وفاتها سنة ١٩١٧ (من الكامل):

لا مرحبا بك أيهذا العام	لم يرع عندك للأساة ذمام[1]
في مستهلك رعتنا بمآتم	للنافعين من الرجال تقام
علمان من أعلام (مصر) طواهما	فيك الردى فبكتهما (الأهرام)[2]
غيبت (شكري) وهو نابه عصره	وأصبت (إبراهيم) وهو إمام
ورأى عليل النيل أن أساته	بذوا الأساة فلم يرعه سقام

يعرب الشاعر في هذه الأبيات عن حسرته وحزنه لموت هذين الطبيبين العلمين اللامعين اللذين كانا قدوة لناشئة مصر وطلابها ومتعلميها.

وقد عبر الشاعر عن هذه المعاني مستهلا أبيات قصديته بعدم الترحيب بهذا العام؛ لأنه لم يحفظ للأطباء عهودهم، فقد فجعهم في بدايته بالمآتم التي تقام لرسل الإنسانية، فقد طوى الموت علمين لامعين من أعلام مصر وأطبائها، وبكتهما أهرام مصر، وغيب الردى محمد شكري الطبيب الفذ نبيه عصره، وإبراهيم حسن الطبيب الإمام اللذين بذا وتفوقا الأطباء كافة، وهذا مما خفف على ابن النيل العليل مرضه، ولم يعد يخشى السقام أو تروعه علة، ولغة الحزن والأسى حاضرة في هذه الأبيات في مثل قوله، رعتنا بمآتم، طواهما فيك الردى، غيبت (شكري) وأصبت (إبراهيم)، وعليل النيل، فلم يرعه سقام.

---

(١) ذمام: عهود.

(٢) الردى: الموت.

ويقول فيها:

يا (مصر) حسبك ما بلغت من المنى صدق الرجاء وصحت الأحلام

ومشى بنوك كما، اشتهيت إلى العلا وعلى الولاء - كما علمت - أقاموا

ورفعت رأسك عند مفتخر النهى بين الممالك حيث تحنى الهام[1]

كم فيك جراح كأن يمينه عند الجراحة بلسم وسلام[2]

فبهؤلاء الغر يا (مصر) اهنئي فبمثلهم تتفاخر الأيام

وعلى طبيبيك اللذين رماهما رامي المنون تحية وسلام

في هذه الأبيات وأبيات قبلها لم نذكرها هنا ينوه الشاعر بمصر ونهضتها العلمية المتمثلة بالأطباء، جراحين وأطباء عيون وأطفال عيون وأطفال ونساء، حاثا مصر على التباهي والتفاخر بمثل هؤلاء وخصوصا بالفقيدين المرحومين المذكورين في القصيدة.

وقد عبر الشاعر عن هذه المعاني بلغة الإكبار والإعجاب بما بلغته مصر من تقدم ونهضة في ميدان الطب، فمصر يكفيها ببلوغ مناها وصدق رجائها، وتحقيق أحلامها، فأبناؤها شقوا طريقهم نحو العلا والولاء والانتماء لها، ورفعت رأسها مفتخرة بعقول أبنائها النيرة بين الأمم حيث تحنى الرؤوس إكبارا وإعظاما لها، وجراحوها ماهرون أيمانهم (جمع يمين) بلسم شاف عند إجراء العمليات الجراحيةوحق لك يا مصر أن تتيهي فخرا بهذه الكوكبة من أطبائك المتخصصين في شتى العلوم الطبية، وأخيرا يزجى الشاعر سلامه إلى روحي

(١) النهى: العقل، الهام: الرؤوس.

(٢) البلسم: الشفاء.

الفقيدين المرثيين اللذين اخترمتهما يد المنون ... وألفاظ الأبيات هنا موشحة بمعاني الحزن والأسى التي لا تغيب عنها المبالغة.

ويقول في قصيدة يرثي بها كلا من (حسن عبد الرزاق) و (اسماعيل زهدي) وهما من حزب الدستوريين الأحرار، وقد قضيا إثر اعتداء غاشم عليهما (من مجزوء الكامل):

علمان من أعلام مصر	عدا الردى فطواهما [1]
(حسن) و (زهدي) لم	يمتع بالشباب كلاهما
سلكا سبيل الحق ما	عاشا وما أولاهما
داس الأثيم حماهما	تحت الدجى ودهاهما [2]
فرمى النهى والفضل مجتمعين	حين سقاهما [3]
إن تذكروا هم الرجال	فقدموا ذكراهما
أو تسألوني عن شهيدي	مبدإ فهما هما [4]

يذكر الشاعر هذين العلمين اللذين أوديا إثر اعتداء غاشم أليم، وبموتهما ذهب الخلق والعقل والفضل.

---

(١) الردى: الموت.

(٢) تحت الدجى: في ظلمة الليل.

(٣) النهى: العقل.

(٤) فهما هما: تأكيد لمكانتيهما من العقل والفضل.

يبدو الشاعر حزينا متأثرا لموت هذين العلمين اللذين لم يهنآ بشبابهما، جاء ذلك بتصوير الموت العادي الذي يطوي النفوس، لقد عاشا حياتهما سالكين طريق الحق لا يحيدان عنه، وفي ظلمة الليل يتسلل غاشم أثيم إلى حماهما، فيرديهما قتيلين بريئين، وبفعلته الظالمة يكون قد قضى على العقل والفضل، فجسدهما الشاعر في صورة شيء مادي يستهدف فيرمى بأداة فيقضى عليهما ... ويحث الشاعر الآخرين على تذكرهما وأن يقدموهما على غيرهما عند ذكرهم الرجال؛ لأنهما شهيدا الحق والمبادئ الوطنية، وعنصر المبالغة باد في قول الشاعر: فرمى النهى والعقل مجتمعين حين رماهما. ولغة الحزن تظهر في قوله: عدا الردى فطواهما، لم يمتع بالشباب كلاهما، داس الأثيم حماهما تحت الدجى ودهاهما، شهيدي مبداء فهماهما.

ويقول في رثاء (عبد الحليم العلايلي) سكرتير حزب الدستورين الأحرار والنائب في الجمعية العمومية المصرية (من الوافر):

مضيت ونحن أحوج ما نكون ... إليك ومثل خطبك لا يهون[1]

برغم (النيل) أن عدت العوادي ... عليك وأنت خادمه الأمين[2]

أجل مناه لو يحويك ميتا ... ليجبر كسره ذاك الدفين[3]

أسال من الدموع عليك بحرا ... تكاد بلجه تجري السفين[4]

(١) الخطب: المصيبة.

(٢) العوادي: الشدائد والمصائب.

(٣) يجبر: يعالج.

(٤) لجة البحر: وسطه المتلاطم الأمواج.

وقـــام النادبـــات بكـــل دار   وكـــبر في مآذنـــه الأذيـــن [1]

فتـــى الفتيـــان غالتـــك المنايـــا   وغـــصنك لا تطاولـــه غـــصون

يستفظع الشاعر في هذه الأبيات موت العلايلي، كما استفظع موته المصريون، حتى نهر النيل بكى هذا الراحل الكبير.

وقد أعرب الشاعر عن وقع هذه المصيبة عليه وعلى المصريين، بما ترتب عليها من فراغ بفقد المرثي، فلقد مضى في وقت كان المصريون أحوج ما يكونون فيه إليه، فالخطب جلل لا يهون، رحل الفقيد رغم وجود النيل الذي هو الذائد والحاني على المصريين، أصابه الموت وهو خادم النيل الأمين، وأعظم منى النيل أن يحتضنك ميتا ليعالج كسره عندما يفيض ماؤه، لقد بكاه أبناء النيل بدموعهم الغزيرة والتي شكلت بحرا تكاد تجري بلجته السفن، وبكته النساء النادبات في كل بيت وكبر المؤذنون في مآذن المساجد، فهو فتى فتيان مصر الذي نال منه الموت، وهو الغصن المورق الذي لا تطاوله أي غصون أخرى.

وقد اتسمت لغة الشاعر بمعاني الحزن والأسى في مثل قوله: مضيت، مثل خطبك لا يهون، عدت الصواري، لو يحويك ميتا، فقام النادبات بكل دار، غالتك المنايا، كما تبدو المبالغة والتهويل في البيت الرابع، حين جعل الدموع تشكل بحرا تسير في لجته السفن.

ويقول فيها:

مـــضى لـــسبيله لم يحـــن رأســـا   ولم يـــبرح سريرتـــه اليقـــين

تركـــت أليفـــة ترجـــو معينـــا   ولـــيس ســـوى الـــدموع لهـــا معـــين

---

(1) الأذين: المؤذن.

تنــوح عـــلى القـــرين وأيـــن منهـــا ... وقـــد غـــال الـــردى ذاك القـــرين[1]

ســـمعت أنينهـــا والليـــل ســـاج ... فمـــزق مهجتـــي ذاك الأنـــين

دهاهـــا المـــوت في الإلـــف المفـــدى ... وكـــدر صـــفوها الـــدهر الخـــؤون[2]

وفـــت لأليفهـــا حيـــا وميتـــا ... كـــذاك كريمـــة (اللـــوزي) تكـــون[3]

ســـتكفيها العنايـــة كـــل شر ... ويحـــرس خـــدرها (الـــرح الأمـــين)

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عما كان عليه المرثي من مبادئ ثابتة، ويصور حال قرينته وفظاعة مصابها، كيف باتت رهينة اللوعة والأسى، ومع هذا فإن الله – سبحانه – لـن يـتخلى عنها؛ لأنها من أكرم النساء عفة وأدبا ومحتدا.

جاء حديث الشاعر عن هذه المعاني من خلال تصويره لهول الفجيعة التي حلت بقرينته، فالزوج مضى لسبيله رافع الرأس، نقي السريرة، ثابت الإرادة واليقين، وغدت الزوجة أسيرة الحزن والأسى على هذا الزوج الذي أهلكه الموت، وأناتها حرى في هدأة الليـل، وقـد تنامـت إلى مسمع الشاعر، فمزقت نياط قلبه، نكبها الموت بحليلها المفـدى، وعكـر الـدهر الخـؤون صفو حياتها، وكانت مثال الزوجة لزوجها في حياته ومماتـه، ولا غـرو في ذلـك فهـي سـليلة أسرة مصرية كريمة النسب والحسب، وليس لها سوى الرعاية الإلهية، وحراسة الروح الأمين الملائكية في خدرها.

---

(١) القرين: الزوج.

(٢) الإلف: القرين والزوج.

(٣) اللوزي: اسم العائلة التي تنتمي إليها الزوجة الثكلى.

لغة الحزن والأسى والمبالغة تبرز في هذه الأبيات في مثل قوله: تنوح على القرين، غال الردى ذاك القرين، سمعت أنينها والليل ساج، فمزق مهجتي ذاك الأنين، ليس لها سوى الدموع معين، دهاها الموت في الإلف المفدى، كدر صفوها الدهر الخؤون، وتظهر المبالغة في قوله سمعت أنينها والليل ساج، فمزقت مهجتي ذاك الأنين، وفي قوله: ويحرس خدرها (الروح) الأمين إشارة إلى جبريل عليه السلام ...

ويقول في رثاء (محمود سليمان باشا) وهو من رجال مصر الوطنيين (من البسيط):

مسدي الجميل بلا من يكدره ... ومكرم الضيف أمسى ضيف (رضوان)[1]

تجتازنا عبقة من روضة أنف ... إذا ألمت بنا ذكرى (سليمان)[2]

فقل لآل (سليمان) إذا جزعوا ... ردوا النفوس إلى صبر وسلوان

ما إن رأيت دفينا قبل شيخكم ... تحت التراب وفوق النجم في آن

يشاطر الشاعر ذوي الفقيد حزنهم على فقيدهم، مطمئنا إياهم إلى أن فقيدهم ينعم في جنات الخلد.

وقد صور الشاعر هذه المشاطرة، بالثناء على الفقيد، فهو المسدي الجميل بدون من يعكر صفوه، وكالماء الفرات، ومكرم الضيف، أمسى في ضيافة رضوان خازن الجنة، وإذا ما هبت نفحة بكر، ذكرتنا سيرة المرثي الطيبة الأثر والذكر الحسن، ويطلب إلى ذوي الفقيد أن يتحلوا

---

(١) المسدي: المعطي، المن: العطاء أو التشوف بالعطاء، رضوان: اسم خازن الجنة.

(٢) الأنف: البكر.

بالصبر والسلوان، فدفينهم ليس كأي دفين، إنه على حاله تحت التراب في مماته وفي علو النجوم في حياته في آن واحد.

وقد جاءت لغة الشاعر متسمة بالحزن والمبالغة كقوله: إذا ألمت بنا ذكرى (سليمان)، إذا جزعوا ردوا النفوس إلى صبر وسلون، ما إن رأينا دفينا، وتبدو المبالغة في قوله: أمسى ضيف (رضوان)، ما إن رأيت دفينا قبل شيخكم، تحت التراب وفوق النجم في آن.

ويقول فيها:

وكم صفحت عن الجاني ولم تره ... وكم غرست وكان المعوز الجاني

وكم أقلت كريما عند عثرته ... وكم مشيت في صلح بين إخوان

إني رأيتك قبل الموت في فلك ... من الجلال على جنبيه نوران

نور اليقين ونور الشيب بينهما ... سكينة حركت نفسي ووجداني

أنجبت أربعة سادوا بأربعة ... فضل ونبل وإحسان وعرفان

أورثتهم شمما هش الإباء له ... وأورقت في ذراه عزة الشان[1]

يذكرن برا رحيما قد أقام لهم ... صرحا من المجد أعلى ركنه الباني[2]

كم نعمة لك (يا محمود) عند أبي ... بشكرها لك عند الموت أوصاني

(١) الشمم: العلو والارتفاع،هش: ابتسم.

(٢) الصرح: البناء العالي.

ينوه الشاعر في هذه الأبيات ببر الفقيد وإحسانه، وإصلاح ذات البين، والصفح عن الجاني وإقالة عثرة الكريم إذا عثر، كما يشيد بما ترك الفقيد، وحسبه أولاده الذين كانوا قمة في الفضل والنبل والإحسان والعرفان.

وقد صور الشاعر هذه المعاني بلغة الإعجاب والإكبار للمرثي، فهو مقيل عثرة الكريم إذا كبا، والمصلح بين الإخوان في فض نزاعاتهم، وهو قبل الموت في هالة من الجلال والعظمة، يحيط جانبيه نوران، نور اليقين، ونور المشيب، بينهما سكينة الضمير التي هزت نفس الشاعر ووجدانه، وقد أنجب الفقيد أربعة من الأبناء كانوا خير خلف لأحسن سلف في الفضل والنبل والإحسان والعرفان، وقد أورثهم علو الهمة وعزة النفس، وقد ابتسم لهم الإباء، وعزه شأنهم أينعت أوراق شجره، كما أقام لهم صرحا من المجد أعلا بنيانه، ورفع ركن سمائه، وفي البيت الأخير يشير الشاعر إلى رابطة الصداقة التي كانت بين والد الشاعر وبين الفقيد المرثي.

والمبالغة لا تخلو منها هذه الأبيات وبخاصة في الثاني والرابع منها، ولا ندري كيف أوصاه أبوه بشكر المرثي.

ويقول في قصيدة يرثي بها (محمود عبده الحمولي) (من السريع):

شوقتماني أيها الفرقدان	لبدر ثم غاب قبل الأوان[1]
وكلما أشرقتما مرة	علمتما عيني نظم الجمان[2]

(١) الفرقدان: نجمان معروفان في السماء الشمالية.

(٢) الجمان: الفضة واللؤلؤ كناية عن الدموع.

علـــى عزيـــز قـــد تـــولى ولـــن يـــؤوب حتـــى يرجـــع القارظـــان[1]

عجلـــت يـــا (محمـــود) في رحلـــة فـــرت بـــه أعـــين حـــور الجنـــان

كـــأنها آخـــر عهـــد الهنـــا قـــد كـــان منـــا ليلـــة المهرجـــان

يأسف الشاعر لفقد (محمود) في ريعان شبابه، ويتحدث عن مكانته العزيزة عنده، وقد أعرب الشاعر عن أسفه مخاطبا الفرقدين اللامعين في القطب الشمالي بأنهما شوقاه للفقيد مصورا إياه بالبدر ليلة تمامه والذي سرعان ما اختفى قبل أوان أفوله، وأنهما كلما ظهرا في إشراقتهما في كل مرة ألهما عينيه ذرف الدموع على الفقيد، الذي قضى ولن يرجع إلا برجوع القارظين وهذا من المحال، ولقد تعجل الراحل (محمود) في رحلته الآخرية التي قرت بها أعين حور الجنان، مشيرا إلى فقده غب عقد قرانه بقليل الذي كنى عنه بليلة المهرجان، أي العيد، أي عيد زواجه.

ومعاني الحزن والأسى تبرز في هذه الأبيات كقوله: غاب قبل الأوان، علمتها عيني نظم الجمان، عجلت يا (محمود) في رحلة، كأنها آخر عهد الهنا.

ويقول في قصيدة أنشدها في الحفل الذي أقيم تكريما للشهداء وفي رثاء (أمين الرافعي) (من البسيط):

أمـــا (أمـــين) فقـــد ذقنـــا لمـــصرعه وخطبـــه مـــن صـــنوف الحـــزن ألوانـــا

لم تنـــسنا ذكـــره الـــدنيا وإن نـــسجت للـــراحلين مـــن النـــسيان أكفانـــا

مـــضى نقيـــا عفيـــف الـــنفس محتـــسبا فهـــد مـــن دولـــة الأخـــلاق أركانـــا

---

(١) يؤوب: يرجع، القارظان: جانبا القرظ يضرب بها المثل في الغياب.

لم يلوه المال عن رأي يدينُ به (ولو حملت) إليه الدهر ملانا

ظلم من القبر أن تبلى أنامله فكم رمت في سبيل الله من خانا

عشرون عاما على الطرس الطهور جرى ما خط فاحشة أوخط بهتانا[1]

يجول بين رياض الفكر مقتطفا من طيب مغرسها وردا وريحانا

فينشق الذهن من أسطاره أرجا وتبصر العين فوق الطرس بستانا[2]

يتحسر الشاعر على فقد (أمين) وما سببه موته من الحزن، كما ينوه بعفته، وخلقه ودينه وجرأته في الحق، وقوله (ولو حملت إليه الدهر ...) شطر بيت للمتنبي أوله: (قد علم البين منا البين أجفانا)، كما يأسف الشاعر لفناء أنامل الفقيد، تلك الأنامل التي طالما بذلت الخير والمعروف، وخطت روائع الكلم.

لقد أعرب الشاعر عن هذه المعاني مصورا الحزن ألوانا، فذكراه باقية لا تمحوها الدنيا بما تنسجه من أكفان للراحلين وفي هذا التشخيص تبدو الدنيا تجيد نسج الأكفان للأخلاق وانهيارها كما يسقط البناء، ولم تأخذه الدنيا بعرضها الزائل، ويأسف الشاعر لفناء أنامل الفقيد التي بقيت طيلة عشرين عاما تخط كلمات تحث على بذل الخير والمعروف، وتكتب روائع الأدب، وكان الفقيد بين رياض الفكر فيقطف ما طاب من غرسها ومن ثمارها وردا وريحانا، وليتفتق حينها من كلامه أرج فواح، وستبصر العين فوق ورقه ألوانا من بساتين الفكر والمعرفة.

(١) الطرس: الورق، البهتان: الزور.

(٢) الأرج: الريح الطيب.

وألفاظ الحزن واضحة في هذه الأبيات، كقوله: من صنوف الحزن ألوانا، نسجت للراحلين أكفانا، هد دولة الأخلاق، ظلم من القبر تبلى أنامله، كما يبدو فيها التصوير البياني في البيت الثاني والبيت الثالث، والبيت السابع.

ويقول فيها:

(أمين) فارقتنا في حين حاجتنا ... إلى فتى لا يرى للمال سلطانا

إن القناعة كنز كنت حارسه ... ترى به القوت ياقوتا ومرجانا[1]

أودى بك (السكر) المضني ولا عجب ... أن يورث الحلو مر العيش أحيانا

(أمين) حسبك ما قدمت من عمل ... فأنت أرجحنا في الحشر ميزانا

أبشر فإنك في أخراك أسعدنا ... حظا وإن كنت في دنياك أشقانا

بلغ ثلاثتكم عنا تحيتنا ... واذكر لهم ما يعاني قومنا الآنا

واضرع إلى الله في الفردوس مبتهلا ... أن يحرس النيل ممن رام طغيانا

في هذه الأبيات يأسف الشاعر لمفارقة الفقيد، ولقناعته، ولتمسكه بالحق، يأسى لهذا الرجل الذي صارع مرض السكري طويلا ثم قضى المرض عليه، كما يكبر همته وسعيه، محملا إياه تحيته إلى من فقد من الأصحاب، وليهنأ في نعيم الله وفردوسه.

وقد صور الشاعر هذه المعاني بإظهار الفقيد بالحاجة إليه كفتى زاهد في الدنيا ليس للمال عليه سلطان، يرى القناعة كنزا لا يفنى، القوت فيه كالياقوت والمرجان في قيمته، ويكفيه ما قدمه من أعمال الخير، سيكون يوم الحشر أرجح ميزانا من الآخرين، وسيكون أسعد حظا في

(١) الياقوت والمرجان: من الأحجار الكريمة.

الآخرة وإن كان في الدنيا أكثر شقاء من غيره، وتحية الشاعر موصولة إلى صحبه الثلاثة الـذين قضوا قبل موت المرثي، موصيا إياه بذكر ما يعانيه قومهم من الحزن في هذه الأثناء، وبالتضرع إلى الله بالابتهال ليحفظ النيل وأهله ممن أراد بهما شرا وطغيانا.

وألفاظ الحزن ترى في هذه الأبيات كقوله: أودى بك (السكر) المـضني. كنـت في دنيـاك أشقانا، ما يعاني قومنا الآنا، كما يبرز في شطرالبيت الثالث، مثـل سـائر، وفي البيـت الخـامس لون من فنون علم البديع في المطابقة والمقابلـة: فإنـك في أخـراك أسـعدنا حظـا وإن كنـت في دنياك أشقانا.

ويقول في بيتين أنشدهما على ضريح (عبد الله أباظة) عضو مجلس الأمة (من البسيط):

يـا عابـد الله نـم في القـبر مغتبطـا ... ما كنت عن ذكر رب العرش بـاللاهي

يـا رحمـة الله هـذا قـبره فقفـي ... وآنـسي روحـه يـا رحمـة الله

يطمئن الشاعر هذا الفقيد أن يخلد في قبره منشرحا مسرورا، فقد كان لا يغفـل عـن ذكـر الله، ضارعا إليه – سبحانه – أن تحل رحمته في قبره وتؤنس روحه من وحشته.

ويقول في بيتين راثيا فيهما ابنة (محمود سامي البارودي) (من السريع):

وديعـة ردت إلى ربهـا ... ومالـك الأرواح أولى بهـا

ألم يكـن صـبرك في بعـدها ... يربـو عـلى شـكرك في قربهـا[1]

يتضرع الشاعر في هذين البيتين إلى الله سـبحانه أن يخفـف مـن مـصائب والـد الفقيـدة، ملتمسا لها الرحمة وله الصبر والسلوان.

---

(١) يربو: يزيد، الوديعة: كناية عن الفقيدة، أي الأمانة، وما يودع.

صور الشاعر هذه المعاني بأن قال: بأنها وديعة ردت إلى بارئها،ولا بد يوما أت ترد الودائع، وعزرائيل أولى بها من غيرها فهو ملك الموت، وقد كان صبر والدها على بعدها عنه عندما توفاها الله يفوق شكره لله على قربها منه في حياتها، وقد طابق الشاعر في البيت الثاني بين بعدها وقربها.

والألفاظ الحزينةتبرز في قوله: وديعة، مالك الأرواح أولى بها، صبرك في بعدها.

ويقول في قصيدة يرثي بها (السلطان حسين كامل) (من الخفيف):

دك ما بين ضحوة وعشي ... شامخ من صروح (آل علي)

وهوى عن سماوة العرش ملك ... لم تمتع بعهده الذهبي

قد تساءلت يوم مات (حسين) ... أفقدنا بفقده كل شي

أم ترى يسعد الكنانة باريها ... ويقضي لها بلطف خفي

يفزع الشاعر لفقد السلطان (حسين كامل) ويعتبر كل شيء فقد بفقده إلا أن يلطف الله بالمصريين ويخفف من مصابهم بأن يمن عليهم بسلطان يخلفه، فيكون خير سلف لأحسن سلف.

وقد أعرب الشاعر عن هذا الإحساس بلغة اتسمت بالحزن والتصوير، فبموت الفقيد انهد صرح من صروح (آل علي) وهم أسرة الفقيد التي يرجع نسبها إلى (محمد علي باشا الكبير)، وبموت الفقيد هوى عرش الملك، ويتساءل: أفقدنا كل شيء بموت هذا السلطان؟ لكن أمله لا ينقطع فلعله – سبحانه – أن يعوضهم بفقده من يخفف مصابهم...

ويقول فيها:

لم يكــد يــنعم الفقــير بعــيش ... مــن نــداه وفيــضه الحــاتمي[1]

حجــب المــوت مطلــع الجــود ... يا (مصر) فجودى لـه بـدمع سـخي[2]

وقــضى كافــل اليتــامى فويــل ... لليتــامى مــن الزمــان العتــي[3]

ينوه الشاعر في هذه الأبيات بحكم الفقيد، وعدله، وجوده، وكفالة اليتامى، وهو الـذي لم يدم حكمه طويلا، ويستحث المصريين أن يذرفوا عليه الدموع السخية.

لقد صور الشاعر هذه المعاني بلغة الإعجاب والثناء على الفقيد، فـالفقير لم يـنعم طـويلا بكرم المرثي وجوده الحاتمي؛ لأن المـوت سـارع في اخترامـه، فحجـب هـذا الجـود، فـما عـلى المصريين إلا أن يجودوا عليه بالدموع السخية، لقد مات كافل اليتامى، ويا ويلهم، لا يـدرون ماذا يخبئ لهم الزمان الظالم بعد رحيل الفقيد.

كما تظهر في الأبيات معاني الحزن مثل قوله: حجب المـوت، مطلـع الجـود، فجـودي لـه بدمع سخي، قضى كافل اليتامى، ويل لليتامى من الزمان العتي، كما تبدو فيها المبالغة.

ويقول فيها:

حــبس الخطــب فيــك ألــسنة ... القــول وأعيــا قريحــة العبقــري[4]

---

(١) نداه: جوده، الحاتمي: نسبة الى حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الجود.

(٢) سخي: غزير.

(٣) العتي: الظالم.

(٤) أعيا: أعجز.

وإذا جلــت الخطــوب وطمــت أعجـزت في القـريض طـوق الـروي[1]

إن شر المــصاب مــا أطلــق الــدمع وراع المفــوهين بعــي[2]

لهـف نفـسي عـلى انبـساطك للـضيف وذيالــك الحــديث الــشهي

يحــسب الــدار داره وهــو يمــشي فــوق زاهــي بــساطك الأحمــدي

يأسف الشاعر لفقد المرثي، قبل الأوان، فكان رحيله شديد الوقع على الشعراء، كما يثني على كرمه واحتفائه بضيفه.

لقد صور الشاعر هذه المعاني بلغة الحسرة واللوعة على الفقيـد، فالخطـب عظـيم، ومـن هول المصاب لجمت ألسنة القول، وعييت قريحة الشعراء عـن تحقيـق الـروي في قـصائدهم، وأصيب الملسنون الفصحاء بالعي والعجز عن الكلام، ويتلهف الـشاعر عـلى خلـق الراحـل وأريحيته، فهو يستقبل ضيفه هاشا باشا مشعرا إياه وكأنه في داره، يستقبله بالحفاوة والتكريم، وكأن لسان حاله يقول:

يــا ضــيفنا لــو زرتنــا لوجــدتنا نحــن الــضيوف وأنــت رب المنــزل

هكذا رثى الشاعر الفقيد بهذه الأبيات التي اجتزأناهـا مـن قـصيدة طويلـة، يبـدو فيهـا الشاعر متأثرا كثيرا كما هو شأن المصريين لرحيل الفقيد، ويبدو هذا في ألفاظها وعباراتهـا مـن مثل قوله: دك شامخ من صروح (آل علي)، هوى مـن سـماوة العـرش ملـك، تـساءلت يـوم مات، أفقدنا بفقده كل شيء حجب الموت مطلع الجود، قضى كافل اليتامى، فويل لليتامى من

(١) طمت: طفحت، القريض: الشعر، الروي: آخر حرف في القافية.

(٢) راع: أفزع وأذهل، العي: العجز عن النطق، المفوهون: الملسنون الفصحاء.

الزمان العتي، حبس الخطب ألسنة القول، أعيا قريحة العبقري، جلت الخطوب، وطمت، إن شر المصاب ما أطلق الدمع، راع المفوهين بعي، لهف نفسي على انبساطك للضيف.. وكلها مفردات وعبارات تزيد المشهد تصويرا وتأثيرا.

ويقول في رثاء (مصطفى كامل) زعيم الحزب الوطني سنة ١٩٠٨ (من الطويل):

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة ... فهلل وكبر والق ضيفك جاثيا[1]

عزيز علينا أن نرى فيك (مصطفى) ... شهيد العلا في زهرة العمر ذاويا

أيا قبر لو أنا فقدناه وحده ... لكان التأسي من جوى الحزن شافيا[2]

ولكن فقدنا كل شيء بفقده ... وهيهات أن يأتي به الدهر ثانيا

في هذه الأبيات يناجي الشاعر قبر الفقيد، منبها على أن هذه القبر يضم في أحشائه أحد أعلام مصر الخالدين، لا بل هو يضم أمة في رجل.

أورد الشاعر هذه المعاني بلغة تفيض بالأسى والحزن على الفقيد، مناجيا فيها قبره الذي حل فيه أن يحسن وفادته فهو آمال المصريين جميعهم، حاثا القبر على التهليل والتكبير واستقبال ضيفه جاثيا على ركبتيه إكبارا وإجلالا، وفي هذا التعبير تشخيص للقبر وإظهاره في صورة شخص يقابل ضيفه بالبشاشة والترحيب، ويعز على الشاعر والمصريين كافة أن يروا في هذا القبر شهيد مصر ذاويا وهو في عمر الزهر، كان من الممكن أن يسد الحزن والتأسي على

---

(١) جاثيا: خاضعا على ركبتيك.

(٢) التآسي: العزاء، الجوى: شدة الحزن.

الفقيد فيكون لهم بلسما شافيا لو فقدوه وحده، ولكن هيهات لقد فقدوا بفقده كل شيء فلن يجود الدهر بمثله ثانية.

وتبدو المبالغة والتهويل في البيتين الأخيرين من هذه الأبيات، ولكن نقول هذا هو إحساس الشاعر تجاه المرثي ومكانته عند المصريين.

ويقول فيها:

ومات الذي أحيا الشعور وساقه ... إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا

مدحتك لما كنت حيا فلم أجد ... وإني أجيد اليوم فيك المراثيا

عليك، وإلا ما لذا الحزن شاملا ... وفيك، وإلا ما لذا الشعب باكيا

يموت المداوي للنفوس ولا يرى ... لما فيه من داء النفوس مداويا

شهيد العلا ما زال صوتك بيننا ... يرن كما قد كان بالأمس داويا

يهيب بنا: هذا بناء أقمته ... فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا

يصيح بنا لا تشعروا الناس أنني ... قضيت وأن الحي قد بات خاليا[1]

يناشدنا بالله ألا تفرقوا ... وكونوا رجالا، لا تسروا الأعاديا

فروحي من هذا المقام مطلة ... تشارفكم عني وإن كنت باليا[2]

فلا تحزنوها بالخلاف فإنني ... أخاف عليكم في الخلاف الدواهيا[3]

---

(١) قضيت: مت.

(٢) باليا: ميتا.

(٣) الدواهي: المصائب والخطوب.

يبكي الشاعر في هذه الأبيات بوفاة (مصطفى كامل) المروءة، والوفاء، والحكمة والعقل والجرأة، فلا غرابة أن تكون مصر كلها في حداد على هذا الرجل العظيم، الذي يناشد المصريين بأن لا يشعروا الناس بأنه قد مات وأن مصر أصبحت خالية منه، ويهيب بهم أن يكونوا موحدين رجالا بكل معنى الرجولة لئلا يشمت بهم الأعادي، ويناجيهم بروحه المطلة عليهم وإن كان ميتا، بأن لا يختلفوا، لأن في خلافهم تحل بهم المصائب الشديدة والدواهي العظيمة.

ولقد عبر الشاعر عن هذه المعاني بلغة الإكبار والتقدير للفقيد، مصورا إياه بالإنسان الذي أحيا شعور الأمة واستنهضها من سباتها، لتسمو إلى المجد، وأعاد إلى النفوس حياتها الحرة، والشاعر مدحه حيا، وهو اليوم يجيد القول في رثائه، ويلذ له الحزن في بكائه، كما يلذ للمصريين بكاؤهم عليه، فهو شهيد المبادئ السامية، والآراء السديدة، وصوته المجلجل لا يزال مدويا في مسامع المصريين، ويهيب بهم الفقيد بأن يحافظوا على البناء الذي أقامه من أجل حريتهم ودفعتهم فلا يكونون أول من يهدمه.

وألفاظ الحزن لا تغيب عن هذه الأبيات، فهي تظهر في قوله: مات وإلا ما لذا الحزن شاملا، وإلا ما لذا الشعب باكيا، يموت المداوي للنفوس، لا يزال صوتك بيننا يرن، فروحي من هذا المقام مطلة، وإن كنت باليا، فلا تحزنوها بالخلاف، أخاف عليكم في الخلاف الدواهيا.

ويقول فيها:

ثلاثـــون عامـــا بـــل ثلاثـــون درة　　　بجيـد الليـالي سـاطعات زواهيـا[1]

ستـــشهد في التـــاريخ أنـــك لم تكـــن　　　فتـى مفـردا بـل كنـت جيـشا مغازيـا

يبين الشاعر في هـذين البيتـين أن الفقيـد عـاش ثلاثـين عامـا، وقـضى في وقـت مبكـر، وسيكون التاريخ شاهدا على وطنيته وغيرته على المصريين فهو لم يكن فردا بشخصه، بل كـان أمة وجيشا في حقيقته.

هكذا يصور الشاعر عمر الفقيد وذكراه الخالدة، فعمره القصير الثلاثون عاما كانت درة ثمينة في عنق الليالي تسطع بها زاهية متباهية، وفي هذا التعبير ما لا يخفى مـن براعـة التـصوير وجماله، كما أن التاريخ سيكون شاهدا حيا على عظمة هذا الرجـل الكبـير الـذي خـدم مـصر والمصريين، فكان في نظرهم جيشا عرمرما لا فردا واحدا.

وبعد ....

فقد طالت رجلتنا مع مرثيات الشاعر الكثيرة والتي اقتطفنـا أبياتـا مـن قـصائدها تخـدم أهداف هذه الدراسة، ولا عجب في ذلك، ألم نقل فيما سبق أنه قال:

إذا تـــصفحت ديـــواني لتقـــرأني　　　وجـدت شـعر المراثـي نـصف ديـواني

مات حافظ إبراهيم تاركا ديوانا شعريا نصفه في المراثي، وقد قيل – كـما ذكرنـا سـابقا – الوفاء في الرثاء – ومن هنا جاء وفـاء أحمـد شـوقي لحـافظ إبـراهيم، فرثـاه في قـصيدته التـي مطلعها :

قـــد كنـــت أوثـــر أن تقـــول رثـــائي　　　يـــا منـــصف المـــوتى مـــن الأحيـــاء

(١) ثلاثون عاما: هي عمر الفقيد، الجيد: العنق.

ويجدر بالذكر هنا أن حافظ إبراهيم كان على رأس الشعراء العرب الكبار من مختلف البلدان الناطقة بالضاد في اللقاء الذي جمعهم لاختيار أمير للشعر العربي وأسفر عن مبايعة شوقي بالإمارة وكان حافظ إبراهيم على رأس المبايعين حين قال:

أمير القوافي قد أتيت مبايعا وهذي وفود الشعر بايعت معي

كانت علاقة حافظ بشوقي ودية لا عدائية، وإن قيل بأنه الصديق اللدود لشوقي، وأن العلاقة بينهما كانت ندية وتناقضية، وتنازعا على امتلاك ناصية الشعر، وتعلقا لا يستطيع أحدهما فراق الآخر، وليس من قبيل الصدفة أن يغيب الموت شوقي بعد رفيقه بأيام.

ولم يكن بين شوقي وحافظ تنافس إلا من هجائياتهما المتبادلة التي هي أقرب إلى المداعبات واللطائف على سبيل التنكيت، ولكن هذا الصراع لم يفقد بين حافظ وشوقي للود قضية، وإن المتأمل لهذا التهاجي المتبادل بين القطبين تصيبه حيرة شديدة، فكيف يصل الهجاء إلى هذه الحدة القاطعة فيما تتصل المجالس الودودة الحميمة بين الشاعرين نفسيهما اللذين يتبادلان الهجاء، ومثال واحد على الهجاء يكفي، فحافظ يهجو شوقي بقوله:

يقولون إن الشوق نار ولوعة فما بال شوقي اليوم أصبح باردا

فللوهلة الأولى يشعر القارئ أن حافظا يتكلم عن شوقه، وأن الياء الخاصة بالملكية في شوقي عادية، لكن المقصود بها شوقي الشاعر، ولكن شوقي رد عليه بأفظع منها فقال:

حملنا الإنسان والكلب أمانة فخانها الإنسان والكلب حافظ

والمعنى في رد شوقي مفهوم واضح، ولا يحتاج إلى الشرح.

وثمة لبس كبير وقع فيه الكتاب المؤلفون حين صوروا حافظا وشوقي عدوين، غير أن العلاقة بينهما كانت على النقيض من ذلك، فهما كانا متنافسين حقا، ولكل منهما مدرسة شعرية مختلفة تماما عن مدرسة رفيقه، لكن تشيع الأدباء وتحزبهم أدى إلى انقسامهم بين شوقي وحافظ، وأشاع وهم العداوة، والواقع التاريخي يقول إن أكثر مجالس حافظ لم تكن تخلو من شوقي.

وعلى الرغم من كل ما قيل في علاقتهما؛ فإن شوقي تلقى نبأ وفاة حافظ ببالغ من الحزن والأسى، وثمة رواية شهيرة تقول إنه حين توفى حافظ إبراهيم، كان شوقي بالإسكندرية، ودخل عليه سكرتيره ليبلغه وفاة الصديق اللدود، وكان كتم الخبر عنه ثلاثة أيام – عامدا – لرغبة السكرتير في إبعاد الأخبار السيئة عنه – كان شوقي شديد التشاؤم بأخبار الموت في أيامه الأخيرة، كما أن السكرتير كان يعلم بأنه على الرغم من التنافس الظاهر بين حافظ وشوقي على عرش الشعر آنذاك؛ فإن حافظا كان قريبا إلى قلب شوقي، وحين ألقى السكرتير الخبر في وجه أمير الشعراء، شرد شوقي لحظات، ثم رفع رأسه وقال أول بيت من مرثيته الشهيرة في حافظ، وتقع في اثنين وخمسين بيتا، اجتزأت منها الأبيات التالية:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت، وكل طول سلامة ... قدر – وكل منية بقضاء

الحق نادى فاستجبت، ولم تزل ... بالحق تحفل عند كل نداء

وأتيت صحراء الإمام تذوب من ... طول الحنين لساكن الصحراء[1]

(١) صحراء الإمام: المقبرة التي دفن فيها، وهذه الصحراء تنسب للإمام الشافعي لوقوع ضريحه (رضي الله عنه في نطاقها).

فلقيــــت في الـــدار الإمـــام محمـــدا في زمـــرة الأبـــرار والحنفـــاء[1]

أثـــر النعـــيم عـــلى كـــريم جبينـــه ومراشـــد التفـــسير والإفتـــاء

فـــشكوتما الـــشوق القـــديم، وذقـــتما طيـــب التـــداني بعـــد طـــول تنـــائي

إن كانـــت الأولى منـــازل فرقـــة فالـــسمحة الأخـــرى ديـــار لقـــاء[2]

وودت لـــو أني فـــداك مـــن الـــردى والكـــاذبون المرجفـــون فـــدائي

إســـكندرية يـــا عـــروس المـــاء وخميلـــة الحكـــماء والـــشعراء[3]

نـــشأت بـــشاطئك الفنـــون جميلـــة وترعرعـــت بـــسمائك الزهـــراء

بنـــت الحـــضارة مـــرتين ومهـــدت للملـــك في بغـــداد والفيحـــاء

وســـمت بقرطبـــة ومـــصر، فحلتـــا بـــين الممالـــك ذروة العليـــاء[4]

ماذا حـشدت مـن الـدموع ((لحـافظ)) وذخـــرت مـــن حـــزن لـــه وبكـــاء

ووجـــدت مـــن وقـــع الـــبلاء بفقـــده إن الـــبلاء مـــصارع العظـــماء

الله يـــشهد وفيـــت ســـحية بالـــدمع غـــير بخيلـــة الخطبـــاء

---

(١) الإمام : هو المرحوم الشيخ محمد عبده العالم الديني الكبير، وقد اشتهر المرحوم حافظ في حياته باكتساب عطفه ورضاه.

(٢) الأولى: الحياة الدنيا.

(٣) نظم المرحوم شوقي هذه القصيدة وهو في الإسكندرية، فكان لا بد لشاعريته المستوعبة من وصف هذه المدينة وفاء لإقامته فيها وقتئذ.

(٤) قرطبة: إحدى عواصم الأندلس الكبرى وكانت في المغرب مثل بغداد في المشرق، كلتاهما منبع للعلوم والفنون في أزهر عصور الإسلام .

وأخــذت قــسطا مــن مناحــة ماجــد ... جـــم المـــآثر، طيـــب الأنبـــاء

هتـــف الـــرواة الحـــاضرون بـــشعره ... وحـــدا بـــه البـــادون في البيـــداء[1]

لبنـــان يبكيـــه، وتبكـــى الـــضاد مـــن ... حلـــب إلى الفيحـــاء إلى صـــنعاء

عـــرب الوفـــاء وفـــوا بذمـــة شـــاعر ... بـــاني الـــصفوف، مؤلـــف الأجـــزاء

يـــا حـــافظ الفـــصحى وحـــارس مجـــدها ... وإمـــام مـــن نجلـــت مـــن البلغـــاء[2]

مـــا زلـــت تهتـــف بالقـــديم وفـــضله ... حتـــى حميـــت أمانـــة القـــدماء

جـــددت أســـلوب (الوليـــد) ولفظـــه ... وأتيـــت للـــدنيا بـــسحر (الطـــائي)[3]

وجريـــت في طلـــب الجديـــد إلى المـــدى ... حتـــى اقترنـــت بـــصاحب البؤســـاء[4]

مـــاذا وراء المـــوت مـــن سلـــوى، ومـــن ... دعـــة، ومـــن كـــرم، ومـــن إغفـــاء

اشرح حقـــائق مـــا رأيـــت، ولم تـــزل ... أهـــلا لـــشرح حقـــائق الأشـــياء

رتـــب الـــشجاعة في الرجـــال جلائـــل ... وأجلهـــــــــن شـــــــــجاعة الأراء

كـــم ضـــقت ذرعـــا بالحيـــاة وكيـــدها ... وهتفـــت بالـــشكوى مـــن الـــضراء

فهلـــم فـــارق يـــأس نفـــسك ســـاعة ... واطلـــع عـــلى الـــوادي شـــعاع رجـــاء

وأشر إلى الـــــدنيا بوجـــــه ضـــــاحك ... خلقـــــت أسرتـــــه مـــــن الـــــسراء

---

(١) البادون: السائرون في البادية.

(٢) نجلت: أي ولدت.

(٣) الوليد: هو أبو عبادة البحتري الشاعر العباسي الشهير، والطائي: هو حبيب بن أوس الشهير بأبي تمام.

(٤) البؤساء: كتاب لفكتور هوجو، عربه الفقيد حافظ إبراهيم.

يا طالما ملأ الندي بشاشة ... وهدى إليك حوائج الفقراء

اليوم هادنت الحوادث فاطرح ... عبء السنين وألق عبء الداء

خلفت في الدنيا بيانا خالدا ... وتركت أجيالا من الأبناء

وغدا سيذكرك الزمان، ولم يزل ... للدهر إنصاف وحسن جزاء





الخـــاتمـــة

وبعد...

هذا هو حافظ ابراهيم في شعره، وصف وتغزل، ومدح وهجا، وشكا ورثـي، فجاءت قصائده تعبيرا عن هذه المعاني، وقد اخترت منها واجتزأت أبياتا من بعضها ما يخدم هذه الدراسة، كان حافظ فيها – بحق – شاعرا للأحزان وحاملا لهموم الإنسان أينما كان، أحس بحاله وبواقع شعبه وأمته، فنظمه شعرا، واستفزته مصائب الإنسانية فصورها في قصائده، وأعطى هذه وتلك من ذوب فؤاده وحشاشة نفسه من القول، والوصف لها ما يكاد ينفرد به عن غيره من شعراء عصره.

كان حافظ إبراهيم فقيرا معدما شاكيا لنفسه ولغيره من الحياة وشظفها وقسوتها وهي التي أظلمت في وجهه ولم تحن عليه وتلطف به ومن هم في بيئته إلا قليلا، ولم ينل من حطام الدنيا مثل ما ناله من حب الشعب له حتى أسموه شاعر الشعب، ولقد جسدت قصائده حياته في طفولته وشبابه وتقدم عمره، كما صورت أحداث وطنه وعصره، وما كان يدور في محيطه العربي والعالم الأجنبي، فكانت قصائده تصور شعور إنسان بإنسان، يعيش واقعا حقيقيا، لا برجا فضائيا، فكان الرائد الذي لا يكذب أهله وإنسانيته، وكان الشاعر الذي ذاع صيته وانتشر ذكره، حباه الله عاطفة جياشة شد ما جعلته يهتز لما يستثيرها من أحداث بسرائها وضرائها، ولم يكن حافظ – برأيي – متزلفا أو مرائيا بقدر ما كان ذا شعور مرهف، تحركه الأحزان، ويؤلمه الحرمان، وتأخذه الغيرة بالأخذ بأيدي من قست عليهم الدنيا – كما هو – ورمتهم في متاهاتها، وتوجعه الويلات والمصائب التي تلحق بالبشرية بأجمعها.

لقد ذكر لنا التاريخ ما كان لإلقاء حافظ للشعر من الأثر البعيد في نفوس سامعيه، ولا ريب أن لهذه الخاصية في الإلقاء فضلا في توجيه حكم معاصريه من النقاد على شعره، فلابد لنا الآن وقد طوى التاريخ (حافظا) وما شاب حياته من أحوال وظروف أن ننظر في آثاره نظرة المدقق الهادئ ونظرة المتفحص المحايد، ويكاد النقاد يجمعون على أن شعر (حافظ) يخلو من روعة العنصر المعنوي واستلهام الخيال المجنح، وعليه يبقى جمال شعره في قوة عاطفته وصدقها وجزالة ألفاظه وموسيقاها، فعاطفته اتسمت برقة الشعور وخبرة شخصيته بالألم وأنواع الذل واليأس والحرمان والضياع، فحفل شعره بوصف آماله وإخفاقه وضجره من الحياة ولوعته على ما فاته من السعد والجاه، وعلو المنصب، وثورته على كيد الناس وخداعهم، ولم يكن شعوره وقفا على لواعج نفسه وأحداث حياته، فقد شارك الشعب في مصائبه، وسمع شكاوى المظلومين، وعزى المفجوعين، ولم تكن حدود الإقليمية والوطنية وحوافز الأثرة القومية والدينية لتحد من شمول عاطفته التي انتظمت الإنسانية جمعاء، ورددت صدى الكوارث البعيدة والأحزان العالمية؛ ولذا أجاد (حافظ) مواقف الرثاء، ووصف الفواجع، فهو يستوحي الإلهام من كامن حزنه وتقديره الحقيقي والصادق لمن فقد من الأصحاب وأعلام الوطن ومن شفقته المرفرفة على المآسي البشرية فكان شعره صادق اللهجة والتعبير، بعيد الأثر والتأثير.

وأما الموسيقى فما هي في شعر (حافظ) سوى انعكاس شخصيته ونتيجة ثقافته، فهو رجل البؤس، ليس فقط عن الجوع والظمأ، بل عن النفس الحزينة التي جفت فيها الأماني، والقلب الذي تتنازعه العواطف المتناقضة، والتأوهات الملتهبة، والعين التي تبكي لمصاب الشعب والوطن والإنسانية، ولذلك شاع في شعره توقيع شجي مطرب، وهو رجل القلق والاضطراب الذي لا يتفرغ للعمل، ولا يتعمق في القضايا والبحث عن الأنسب أو الأوفق؛

ولذلك انقاد إلى السهولة، ولم يعن نفسه بالغوص وراء المعاني وخلق الصور، بـل حفـل برنـة اللفظ، وهو رجل الثقافة السطحية الذي تلمذ للفن العباسي مـن حيـث هـو صـيغة مـشرقة، ولفظ متساوق ووزن منسجم، وآثر شعراء اللفظ عـلى شـعراء المعنـى، وقـد تهيـأ لـه، لقـوه حافظته، وكثرة مطالعته، ثورة ضخمة من التراكيب والألفاظ ونموذجـات الـسلف، فتخـير منها ما كان ملائما لنزعته الموسيقية.

وبالرغم ما يوجه إلى شعر (حافظ) من سياط النقد، ومعاول الحط من شأن الكبـار مـن الشعراء، وكلام النقاد بـأن (حافظـا) كـان مبالغـا في تـصويره لأحـداث عـصره، وحركاتـه الوطنية، ورثاءاته الوطنيـة والإنـسانية، فهـذا شـأن الـشاعر في إحـساسه المرهـف وعاطفتـه الصادقة، جاء شعره حاكيا حال شعبه وواصفا أحداث عصره، وراثيا رجال وطنه، وزعـماءه الأحرار، ومشاركا البشرية في كوارثها وفجائعها، لا زلنا نقـرأ شـعره، نتذوقـه ونعجـب بـه، صاغه بلغته السلسة، وبأسلوبه السهل الممتنع بعيدا عن التقعر والتكلـف. مـن يقـرأه يدركـه ويقع على مراميه.

وقد ذهبت في هذه الدراسة مذهب الوصف السهل والتحليل الواضـح القريـب للفهـم والنقد الموضوعي، وابتعدت عن اللغة الضبابية أو البحث عـن غوامـضها وبواطنهـا، مـؤثرا التوضيح والتصريح والتفصيل حينا ومكتفيا بالإيجاز والتلميح حينا آخر، مـستميحا القـارئ عذرا إن كنت أطلت الوصف والتحليل والنقد للنماذج التي اختزلتها من القـصائد المختـارة؛ فإن طبيعة الدراسة اقتضتها.

كما خلصت فيها إلى الحقائق التالية:

- يستهل (حافظ) في معظم قصائده بالتصريع وهو اتفاق عروض البيت الأول وضربه وزنا وقافية شأنه في ذلك شأن شعراء عصره والقدامى منهم.
- لم يقتصر في شعره على وزن معين أو محدد وإنما نظم في شتى الأوزان العروضية المشهورة.
- يحتل الرثاء مساحة واسعة في شعره، ويطول نفسه فيه، وقد تصل بعض قصائده فيه الى ما يزيد على التسعين بيتا، ولا يخلو فيه من المبالغة والتهويل.
- يحفل قاموسه اللغوي في الرثاء بتكرار ألفاظ: الحزن، الحسرة، اللوعة، الوجد، الخطب، الموت، الفجيعة، الدمع، دموع، النواح، الأنين، الزفرات، البكاء، رثائي، الردى، الأسى، المنون، العوادي، النعي، أودي، طوى، نعاك، رثاك، غال، عدا، تولى، بكى، بكاك، ونحن في حاجة، ونحن في حاجتنا إليك.
- يكثر من ذكر الإشارات التاريخية والدينية والسياسية والأدبية والفكرية.
- يستخدم الحكم والأمثال الشعبية الدارجة تصريحا وتلميحا.
- يضمن شعره بيتا أو شطر بيت من شعر الأقدمين بصورة مباشرة أو غير مباشرة.
- يشمل شعره في الرثاء الرجل والمرأة، والزعماء والقادة الوطنيين الأحرار، والحكام والقادة ورجال الفكر العالميين.
- لم يحتل الغزل والهجاء مساحة واسعة في شعره، وكان مقلا فيهما.

- يكثر في شعره من التلميح الذي يأتي على هيئة مثل سائر، أو شعر نـادر، أو قـصة مشهورة، أو ما يجري مجرى المثل، وهو ما يسميه بعـضهم ب (التملـيح) بتقـديم الميم، كأن يأتي في بيت مـن أبياتـه الـشعرية بنكتـة حـسنة تزيـد الكـلام سلاسـة وجمالا.

- يورد الشاعر المعاني التي يريد التعبير عنها في صور جميلة قريبة من الفهم بليغة في تأثيرها.

- يراوح شعره ما بين التقليد حينا والتجديد حينا آخر، وهو أقرب إلى القـديم منـه إلى الحديث .

ويبقى حافظ إبراهيم شاعرا مصريا عربيا وإنسانيا، أحب الجميع فأحبوه، فرح لفرحهم، وحزن لحزنهم، فخلدوه في قلوبهم ونفوسهم، فكان بحق، وكما أسموه ((شاعر النيل وشـاعر الشعب)) رحمه الله.


الذخيرة العربية

المراجع :

١- ديوان حافظ إبراهيم/ الأعمال الشعرية الكاملة/ دار العودة، بيروت ١٩٩٦ .

٢- في الأدب الحديث، عمر الدسوقي ١٩٤٨، القاهرة.

٣- التجديد في الأدب العربي الحديث، عبد الوهاب حمودة، القاهرة.

٤- شعراء مصر، عباس محمود العقاد ١٩٣٧، القاهرة.

٥- حافظ وشوقي، حسن كامل الصيرفي ١٩٤٩، القاهرة.

٦- ذكرى الشاعرين، أحمد عبيد، دمشق.

٧- حافظ وشوقي، طه حسين ١٩٣٣، القاهرة.

٨- أدب مصر الحديث، مصطفى زيد ١٩٤٩، القاهرة.

٩- مقدمة في دراسة الأدب العربي الحديث، عبد الرحمن ياغي ١٩٧٥، عمان.

١٠- شرح دبوان حافظ إبراهيم، د. يحيى شامي، دار الفكر العربي ١٩٩٨، بيروت.

١١- المنجد في اللغة، لويس معلوف، دار المشرق ١٩٨٦، بيروت.

١٢- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، إبراهيم مصطفى ورفاقه ١٩٦١.



مطالع القصائد والمقطوعات الواردة في الكتاب

١- الوطنيات والقوميات

٢- المقاومات والمنددات بالاستعمار والمستعمرين

٣- المنوهات والداعيات لدور (رعاية الأطفال)

٦- الخمريات

٧- الغزليات

٨- الهجائيات

٩- الإخوانيات

١٠ – الشاكيات والباكيات

١١ – المترجمات

١٢ – المرثيات

فهرس المحتوى

حافظ إبراهيم (شاعر النيل)

شاعر الأحزان وحامل هموم الإنسان

دراسة وصفية تحليلية نقدية

تقع هذه الدراسة في مقدمة وبابين ، وخاتمة، وفهرسة، جاءت على النحو التالي: